

حَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ الْبَلُوشِي

سُلَيْسَةُ الْقُرْبَى بَيْنَ الْمَدْرَسَةِ الصُّوفِيَّةِ وَالْمَدْرَسَةِ السُّنَنِيَّةِ

(١)

تَحْقِيقُ الْوُصُولِ
فِي
شَرْحِ ثَلَاثَةِ الْأُصُولِ



مَكْتَبَةُ وَهْبٍ

٤١ شارع الجمهورية / عابدين / القاهرة

ت. ٢٣٩١٧٤٧ فاكس. ٢٣٩٠٣٧٤٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - رضي الله عن الصحابة الكرام من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . وبعد . . فهذا العمل هو الحلقة الأولى من سلسلة التقريب بين المدرسة الصوفية والمدرسة السلفية (أهل السنة والجماعة)، من خلال شرح رسالة - ثلاثة الأصول وأدلتها - للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وقبل الشروع في ذلك لا بد من كلمة في جمع الكلمة :

بين الحقيقة والشرعية^(١)

تمهيد وتعريف :

لقد ورد في حديث جبريل المشهور الذي يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه تقسيم الدين إلى ثلاثة أركان ، بدليل قول الرسول ﷺ لعمر : « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم »^(٢) .

١ - فركن الإسلام : هو الجانب العملي ؛ من عبادات ومعاملات وأمور تعبدية ، ومحله الأعضاء الظاهرة الجسمية . وقد اصطلح العلماء على تسميته بالشرعية ، واختص بدراسته السادة الفقهاء .

(١) حقائق عن التصوف : عبد القادر عيسى . ص ٣٨١ - ٤٥٠ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان . والإمام أحمد في مسنده في باب الإيمان والإسلام والإحسان ٦٤/١ .

٢- وركن الإيمان : وهو الجانب الاعتقادي القلبي ؛ من إيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقضاء والقدر . . وقد اختص بدراسته السادة علماء التوحيد .

٣- وركن الإحسان : وهو الجانب الروحي القلبي ؛ وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وما ينتج عن ذلك من أحوال وأذواق وجدانية ، ومقامات عرفانية ، وعلوم وهبية ، وقد اصطلح العلماء على تسميته بالحقيقة ، واختص ببحثه السادة الصوفية .

ولتوضيح الصلة بين الشريعة والحقيقة نضرب لذلك مثلاً الصلاة ، فالإتيان بحركاتها وأعمالها الظاهرة ، والتزام أركانها وشروطها ، وغير ذلك مما ذكره علماء الفقه ، يمثل جانب الشريعة ، وهو جسد الصلاة . وحضور القلب مع الله تعالى في الصلاة يمثل جانب الحقيقة ، وهو روح الصلاة .

فأعمال الصلاة البدنية هي جسدها ، والخشوع روحها . وما فائدة الجسد بلا روح؟! وكما أن الروح تحتاج إلى جسد تقوم فيه ، فكذلك الجسد يحتاج إلى روح يقوم بها ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (البقرة: ١١٠) ولا تكون الإقامة إلا بجسد وروح ، ولذا لم يقل : أوجدوا الصلاة .

ومن هذا ندرك التلازم الوثيق بين الشريعة والحقيقة كتلازم الروح والجسد . والمؤمن الكامل هو الذي يجمع بين الشريعة والحقيقة ، وهذا هو توجيه الصوفية للناس ، مقتفين بذلك أثر الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام . وللوصول إلى هذا المقام الرفيع ، والإيمان الكامل ، لا بد من سلوك الطريقة ، وهي مجاهدة النفس ، وتصعيد صفاتها الناقصة إلى صفات كاملة ، والترقي في مقامات الكمال بصحبة المرشدين ، فهي الجسر الموصل من الشريعة إلى الحقيقة .

قال السيد رحمه الله تعالى في تعريفاته : (الطريقة هي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى ، من قطع المنازل والترقي في المقامات) ^(١).

فالشريعة هي الأساس ، والطريقة هي الوسيلة ، والحقيقة هي الثمرة وهذه الأشياء الثلاثة متكاملة منسجمة ، فَمَنْ تَمَسَّكَ بالأولى منها سلك الثانية فوصل إلى الثالثة ، وليس بينها تعارض ولا تناقض . ولذلك يقول الصوفية في قواعدهم المشهورة : (كل حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة) . وكيف تخالف الحقيقة الشريعة وهي إنما نتجت من تطبيقها .

يقول إمام الصوفية أحمد زروق رحمه الله تعالى : (لا تصوف إلا بفقه ، إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه ولا فقه إلا بتصوف ، إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه لله تعالى ولا هما [التصوف والفقه] إلا بإيمان ، إذ لا يصح واحد منهما دونه فلزم الجميع لتلازمها في الحكم ، كتلازم الأجسام للأرواح ، ولا وجود لها إلا فيها ، كما لا حياة لها إلا بها ، فافهم) ^(٢).

ويقول الإمام مالك رحمه الله تعالى : (مَنْ تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق) ^(٣).

تزندق الأول لأنه نظر إلى الحقيقة مجردة عن الشريعة ، فقال بالجبر وأن الإنسان لا خيار له في أمر من الأمور ، فهو يتمثل قول القائل :

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْلُغَ بِالْمَاءِ .

فعطّل بذلك أحكام الشريعة والعمل بها ، وأبطل حكمتها والنظر إليها . وتفسق الثاني لأنه لم يدخل قلبه نور التقوى ، وسر الإخلاص وواعظ المراقبة ، وطريقة المحاسبة ، حتى يحجب عن المعصية ، ويتمسك بأهداب السنة .

(١) تعريفات السيد ص ٩٤

(٢) «قواعد التصوف» للشيخ أحمد زروق قاعدة ٣ . ص ٣

(٣) «شرح عين العلم وزين الحلم» للإمام ملا علي القاري ٣٣/١

وتتحقق الثالث لأنه جمع كل أركان الدين : الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ، التي اجتمعت في حديث جبريل عليه السلام .

وكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة ، كذلك حفظ علماء التصوف آدابها وروحها ، وكما أبيع لعلماء الظاهر الاجتهاد في استنباط الأدلة واستخراج الحدود والفروع ، والحكم بالتحليل والتحرير على ما لم يرد فيه نص ، فكذلك للعارفين أن يستنبطوا آداباً ومناهج لتربية المريدين وتهذيب السالكين . ولقد تحقق السلف الصالح والصوفية الصادقون بالعبودية الحقّة والإسلام الصحيح ، إذ جمعوا بين الشريعة والطريقة والحقيقة ، فكانوا متشرّعين متحققين ، يهدون الناس إلى الصراط المستقيم فالدين إن خلا من حقيقته جفّت أصوله ، وذوت أغصانه ، وفسدت ثمرته .

مناقشة المتحاملين على الصوفية

أما هؤلاء المعترضون على السادة الصوفية :

- إن كانوا ينكرون هذا التقسيم إلى [شريعة ، وطريقة ، وحقيقة] على النحو الذي بيّناه آنفاً ، فهم لاشك يريدون بذلك أن يفصلوا روح الإسلام عن جسده ، وأن يهدموا ركناً هاماً من أركان الدين الثلاثة الموضحة في حديث جبريل عليه السلام ، ويخالفوا علماء الإسلام وكبار فقهاءه .

يقول ابن عابدين رحمه الله تعالى في حاشيته المشهورة (برّد المحتار) : (الطريقة : هي السيرة المختصة بالسالكين من قطع المنازل ، والترقي في المقامات) . ويقول في الصفحة التي تليها : (الحقيقة : هي مشاهدة الربوبية بالقلب ، ويقال : هي سر معنوي لا حدّ له ولا جهة وهي الطريقة والشريعة متلازمة ، لأن الطريق إلى الله تعالى لها ظاهر وباطن ، فظاهرها الشريعة والطريقة ، وباطنها الحقيقة . فبطون الحقيقة في الشريعة والطريقة ، كبطون الزبد في لبنه ، لا يُظفر من اللبن بزبد بدون مخضّه ، والمراد من الثلاثة [الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة] إقامة العبودية على الوجه المراد من العبد^(١) .

(١) حاشية ابن عابدين ٣٠٣/٣

ويقول الشيخ عبد الله اليافعي رحمه الله تعالى : (إن الحقيقة هي مشاهدة أسرار الربوبية ولها طريقة هي عزائم الشريعة ، فمن سلك الطريقة وصل إلى الحقيقة . فالحقيقة نهاية عزائم الشريعة ، ونهاية الشيء غير مخالفة له ، فالحقيقة غير مخالفة لعزائم الشريعة) ^(١).

وقال صاحب كشف الظنون في حديثه عن علم التصوف : (ويقال : علم التصوف علم الحقيقة أيضاً ، وهو علم الطريقة ، أي تركية النفس عن الأخلاق الردية ، وتصفية القلب عن الأغراض الدنية . وعلم الشريعة بلا علم الحقيقة عاطل ، وعلم الحقيقة بلا علم الشريعة باطل .

علم الشريعة وما يتعلق بإصلاح الظاهر بمنزلة العلم بلوازم الحج . وعلم الطريقة وما يتعلق بإصلاح الباطن بمنزلة العلم بالمنازل ، وعقبات الطريق . فكما أن مجرد علم اللوازم ، ومجرد علم المنازل لا يكفيان في الحجج الصوري بدون إعداد اللوازم وسلوك المنازل ، كذلك مجرد العلم بأحكام الشريعة وآداب الطريقة لا يكفيان في الحجج المعنوي ، بدون العمل بموجبيهما) ^(٢).

- وإن كان المعترضون يقرّون فكرة التقسيم السالفة الذكر ، ولكنهم ينكرون هذه التسمية : [الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة] .

نقول لهم : هذا تعبير درج عليه العلماء ، وجرى عليه الفقهاء كما بينا وهو اصطلاح ، ولا مشاحة في الاصطلاحات .

- وإن كانوا يقرّون التقسيم والتسمية ، ولكنهم ينكرون على الصوفية أحوالهم القلبية ، وأذواقهم الوجدانية ، وعلومهم الوهيبية .

نقول لهم : إن هذه أمور يكرم الله تعالى بها عباده المخلصين ، وأحبابه الصادقين ، ولا حجر على القدرة الإلهية . إنما هي أذواق ومفاهيم ، وكشوفات

(١) نشر المحاسن الغالية ١٥٤/١

(٢) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، لحاجي خليفة ٤١٣/١

وفتوحات ، منحهم الله إياها ، فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « العلم علمان : علم في القلب ، وفي رواية : علم ثابت في القلب ، فذلك العلم النافع . وعلم على اللسان ، فذلك حجة الله على خلقه »^(١).

ويدل على ذلك حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، فقد أخرج أبو نعيم في الحلية عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن معاذ بن جبل دخل على رسول الله ﷺ فقال : « كيف أصبحت يا معاذ ؟ » . قال : أصبحت مؤمناً بالله تعالى . قال : « إن لكل قول مصداقاً ، ولكل حق حقيقة ، فما مصداق ما تقول ؟ » . قال : يا نبي الله ! ما أصبحت صباحاً قط إلا ظننت أنني لا أمسي ، وما أمسيت مساء قط إلا ظننت أنني لا أصبح ، ولا خطوات خطوة إلا ظننت أنني لا أتبعها أخرى ، وكأني أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها ، معها نبيها وأوثانها التي كانت تعبد من دون الله وكأني أنظر إلى عقوبة أهل النار ، وثواب أهل الجنة . قال : « عرفت فالزم »^(٢).

فلم يصل الصالحون إلى هذه الكشوفات والمعارف إلا بتمسكهم بالكتاب والسنة ، واقتنائهم أثر الرسول الأعظم وأصحابه الكرام ، ومجاهدتهم لأنفسهم ، من صيام وقيام ، وزهدهم في هذه الدنيا الفانية ، كما أكرم الله معاذاً رضي الله عنه بهذا الكشف الذي أقره عليه رسول الله ﷺ بقوله : « عرفت فالزم » .

وهذا الإمام الشعراني رحمه الله تعالى يتحدث عن إكرام الله تعالى للصوفية الذين ساروا على نهج رسول الله ﷺ وأصحابه من أمثال معاذ رضي الله عنه فيقول :

(اعلم يا أخي أن علم التصوف عبارة عن علم انقذح في قلوب الأولياء حين استتارت بالعمل بالكتاب والسنة ، فكل من عمل بهما انقذح له من ذلك علوم

(١) رواه الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه بإسناد حسن ، ورواه ابن عبد البر النمري في كتاب العلم عن الحسن مرسلاً بإسناد صحيح كما في الترغيب والترهيب ٦٧/١

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢٤٢/١

وآداب وأسرار وحقائق ، تعجز الألسنة عنها ، نظير ما انقذح لعلماء الشريعة من أحكام ، حين عملوا بما علموه من أحكامها^(١).

وقد كان علماء السلف الصالح رضي الله عنهم يعملون بكل ما يعلمون على وجه الإخلاص لله تعالى ، فاستنارت قلوبهم ، وخلصت من العلل القادحة أعمالهم ، فلما ذهبوا وخلف من بعدهم أقوام لا يعتنون بالإخلاص في علمهم ولا في عملهم أظلمت قلوبهم ، وحُجبت عن أحوال القوم فأنكروها .

وهناك مغرضون يتحاملون على الصوفية مستشهدين بكلام ابن تيمية وغيره ، ويتهمونهم زوراً وبهتاناً ، بأنهم يهتمون بالحقيقة فقط ، ويهملون جانب الشريعة ، وأنهم يعتمدون على كشفهم ومفاهيمهم ولو خالفت الشريعة ، فهذا كله افتراء باطل ، يشهد على بطلانه كلام ابن تيمية نفسه . فقد تحدث ابن تيمية رحمه الله تعالى عن تمسك السادة الصوفية بالكتاب والسنة في قسم علم السلوك من فتاواه فقال : (والشيخ عبد القادر [الجيلاني رحمه الله تعالى] ونحوه من أعظم مشائخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق والقدر ، ومن أعظم المشائخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية ، فإن الخطأ في الإرادة من حيث هي إرادة إنما تقع من هذه الجهة ، فهو يأمر السالك أن لا تكون له إرادة من جهته هو أصلاً ؛ بل يريد ما يريد الرب عز وجل ؛ إما إرادة شرعية إن تبين له ذلك ، وإلا جرى مع الإرادة القدريّة ، فهو إما مع أمر الرب وإما مع خلقه . وهو سبحانه له الخلق والأمر . وهذه طريقة شرعية صحيحة)^(٢).

وقال أيضاً : (فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشائخ السلف مثل الفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبي سليمان الداراني ، ومعروف

(١) التصوف الإسلامي والإمام الشعراي : طه عبد الباقي سرور ص ٧٠

(٢) مجموع فتاوى أحمد بن تيمية ٤٨٨/١٠ ، ٤٨٩

الكرخي ، والسري السقطي ، والجنيد بن محمد ، وغيرهم من المتقدمين ، ومثل الشيخ عبد القادر [الجيلاني] ، والشيخ حماد ، والشيخ أبي البيان ، وغيرهم من المتأخرين ، فهم لا يسوِّغون للسالك ولو طار في الهواء ، أو مشى على الماء ، أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين ، بل عليه أن يفعل المأمور ، ويدع المحذور إلى أن يموت . وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف وهذا كثير في كلامهم^(١).

وهذه نبذة يسيرة من أقوال أئمة السادة الصوفية وتوجيهاتهم تشهد على :

تمسكهم بالكتاب والسنة

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى : (كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة . طرُّ إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة ، ادخل عليه ويدك في يد الرسول ﷺ)^(٢).

وقال منكرًا على من يعتقد أن التكاليف الشرعية تسقط عن السالك في حال من الأحوال : (ترك العبادات المفروضة زندقة . وارتكاب المحظورات معصية ، لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال)^(٣).

ويقول سهل التستري رحمه الله تعالى : (أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسوله ﷺ ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق)^(٤).

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى يقول : (إذا عارض كشفك الصحيح الكتاب والسنة فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف ، وقل لنفسك : إن

(١) مجموع فتاوى أحمد بن تيمية « ١٠ / ٥١٦ ، ٥١٧

(٢، ٣) « الفتح الرباني » للشيخ عبد القادري الجيلاني ص ٢٩

(٤) « طبقات الصوفية » للسلمي ص ٢١٠

الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ، ولم يضمنها لي في جانب الكشف والإلهام^(١).

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى : (كلُّ باطنٍ يخالفه ظاهرٌ فهو باطلٌ)^(٢).

وقال أبو الحسين الوراق رحمه الله تعالى : (لا يصل العبد إلى الله إلا بالله ، وبموافقة حبيبه ﷺ في شرائعه ، ومن جعل الطريق إلى الوصول في غير الاقتداء يضل من حيث يظن أنه مهتد)^(٣).

وقال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى : (إن طريق القوم محررة على الكتاب والسنة كتحرير الذهب والجوهر ، فيحتاج سالكها إلى ميزان شرعي في كل حركة وسكون)^(٤).

وقال أيضاً : (إن حقيقة طريق القوم علم وعمل ، سداها ولحمتها شريعة ، وحقيقة ، لا أحدهما فقط)^(٥).

وقال الشعراني أيضاً : (فمن دقق النظر علم أنه لا يخرج شيء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة . وكيف يخرج والشريعة صلتهم إلى الله عز وجل في كل لحظة)^(٦).

وسئل أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى عن الصوفي فقال : (هو الذي يأخذ كتاب الله بيمينه وسنة رسوله بشماله ، وينظر بإحدى عينيه إلى الجنة ،

(١) «إيقاظ الهمم» ٣٠٢/٢ ، ٣٠٣

(٢) «الرسالة القشيرية» ص ٢٧

(٣) «طبقات الصوفية» للسلمي ص ٣٠٠

(٤) «لطائف المنن والأخلاق» للشعراني ٢/١

(٥) المرجع السابق ٢٥/١

(٦) «التصوف الإسلامي والإمام الشعراني» طه عبد الباقي سرور ص ٧١

وبالأخرى إلى النار ، ويأتزر بالدنيا ، ويرتدي بالآخرة ، ويلبي من بينهما للمولى : لبيك اللهم لبيك^(١) .

ومن جملة توجيه أبي يزيد رحمه الله تعالى : (عشرة أشياء فريضة على البدن : أداء الفرائض ، واجتناب المحارم ، والتواضع لله ، وكف الأذى عن الإخوان ، والنصيحة للبرِّ والفاجر ، وطلب مرضاة الله في جميع أموره ، وطلب المغفرة ، وترك الغضب ، والكبر والبغي والمجادلة من ظهور الجفا ، وأن يكون وصي نفسه يتهيأ للموت)^(٢) .

ومع كل هذا نجد الحاقدين على التصوف إذا سمعوا بشيء من أخلاق القوم قالوا : [هذا منزع صوفي ، لا شرعي] فيتوهم السامع أن التصوف أمر خارج عن أصل الشريعة ، والحال أنه لب الشريعة كما رأيت . وإنَّ مَنْ يطالع كتب القوم السليمة من الدس ؛ مثل : كتاب الحلية لأبي نعيم ، والرسالة القشيرية ، وكتاب التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ، واللمع للطوسي ، والإحياء للغزالي ، وطبقات الصوفية للسلمي ، والرعاية لحقوق الله للمحاسبي ، والوصايا للشيخ محيي الدين بن عربي ، وغير ذلك من كتب الصوفية ، لا يكاد يجد خُلُقًا مما فيها يخالف الشريعة أبدًا ، لكثرة محاسبة الصوفية لأنفسهم وأخذهم بالعزائم ، فإن حقيقة طريق القوم علم وعمل ، سداها ولحمتها شريعة وحقيقة .

التحذير من الفصل بين الحقيقة والشريعة

هناك أناس ادَّعَوْا التصوف كذبًا ونفاقًا ، انحرفوا عن الإسلام ، وقالوا : إن المقصود من الدين هو الحقيقة فقط ، وعطلوا أحكام الشريعة ، فأسقطوا عن أنفسهم التكليف ، وأباحوا المخالفات ، وقالوا : إن المَعْوَل عليه صلاح القلب ، ويقولون : [نحن أهل الباطن ، وهم أهل الظاهر] . فهؤلاء ضالون منحرفون

(١) « شطحات الصوفية » لعبد الرحمن البدوي ص ٩٦

(٢) المرجع السابق ص ١٠٣

زنادقة ، لا يجوز أن نأخذ أعمالهم وأحوالهم حجة على السادة الصوفية الصادقين المخلصين .

وإن السادة أئمة الصوفية قد نبهوا إلى خطرهم ، وحذروا من صحبتهم ومجالستهم ، وتبرؤوا من سيرهم وانحرفهم . قال أبو يزيد البسطامي رحمه الله تعالى لبعض أصحابه : (قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية ، وكان رجلاً مقصوداً مشهوراً بالزهد ، فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه)^(١). وقال أيضاً : (لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة)^(٢).

وقال الشيخ أحمد زروق رحمه الله تعالى في قواعده : (وكل شيخ لم يظهر بالسنة فلا يصح اتباعه لعدم تحقق حاله ، وإن صح في نفسه وظهر عليه ألف كرامة من أمره)^(٣).

وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله تعالى : (احذر صحبة ثلاث من أصناف الناس : الجبابرة الغافلين ، والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين)^(٤).

وقال السيد أحمد الرفاعي رحمه الله تعالى : (لا تقولوا كما يقول بعض المتصوفة : [نحن أهل الباطن ، وهم أهل الظاهر] . هذا الدين الجامع باطنه لب ظاهره ، وظاهره ظرف باطنه ، لولا الظاهر لما بطن ، لولا الظاهر لما كان الباطن ولما صح . القلب لا يقوم بلا جسد ، بل لولا الجسد لفسد ، والقلب

(٢٠١) «الرسالة القشيرية» ص ١٦

(٣) «قواعد التصوف» للشيخ أحمد زروق ص ٧٦

(٤) «شرح الحكم» لابن عجيبة ٧٦/١

نور الجسد . هذا العلم الذي سماه بعضهم بعلم الباطن ، هو إصلاح القلب ، فالأول عمل بالأركان وتصديق بالجنان . إذا انفرد قلبك بحسن نيته وطهارة طويته ، وقتلتَ وسرقتَ وزنيتَ ، وأكلتَ الربا ، وشربتَ الخمر ، وكذبتَ وتكبرتَ وأغلظتَ القول ، فما الفائدة من نيتك وطهارة قلبك؟ وإذا عبدت الله وتعففت ، وصمتَ وتصدقتَ وتواضعت ، وأبطنَ قلبك الرياء والفساد ، فما الفائدة من عملك؟^(١).

وينكر الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى على من يعتقد أن التكاليف الشرعية تسقط عن السالك في حال من الأحوال ، كما مرَّ بك قوله : (ترك العبادات المفروضة زندقة ، وارتكاب المحظورات معصية . لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال)^(٢). وقال شيخ الصوفية الإمام الجنيد رحمه الله تعالى : (مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة)^(٣).

وقال أيضاً : (الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام ، واتبع سنته ولزم طريقته ، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه)^(٤). وذكر رجل عنده المعرفة فقال : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات [الأعمال] من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل . فقال الجنيد رحمه الله تعالى : (إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال [الصالحة التكليفية] وهو عندي عظيمة ، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا ، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى ، وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي

(١) «البرهان المؤيد» للسيد أحمد الرفاعي رحمه الله تعالى . توفي سنة ٥٧٨ هـ

بأم عبيدة بالعراق ص ٦٨

(٢) «الفتح الرباني» للشيخ عبد القادر الجيلاني ص ٢٩

(٣،٤) «طبقات الصوفية» للسلمي ص ١٥٩

دونها^(١). وقال أيضاً : (ما أخذنا التصوف عن القليل والقال لكن عن الجوع [الصوم] وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات)^(٢).

وقال إبراهيم بن محمد النصر أباضي رحمه الله تعالى : (أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع ، وتعظيم حرمان المشايخ ، ورؤية أعداء الخلق ، وحسن صحبة الرفقاء ، والقيام بخدمتهم ، واستعمال الأخلاق الجميلة ، والمداومة على الأوراد وترك ارتكاب الرخص والتأويلات ، وما ضل أحد في هذا الطريق إلا بفساد الابتداء ، فإن فساد الابتداء يؤثر في الانتهاء)^(٣).

الفقهاء الصوفية

لقد كان علماء الشريعة الإسلامية من الفقهاء والمحدثين ، يسيرون على أثر الرسول الأعظم ﷺ ، فيجمعون بين الشريعة والطريقة والحقيقة ، ويؤدون العبادات العملية متحققين بسر الإخلاص فيها ، متذوقين حلاوتها ، مدركين أسرارها ، وقد كانت لهم مجاهدات لتهديب نفوسهم وإصلاح قلوبهم . ولما تحلوا به من صلاح وتقوى ومعرفة نالوا هذه المراتب العلمية ، ومنحهم الله تعالى هذا الفهم لكتابه والتعمق في شرعه ، ونفع الله الأمة بعلومهم على مرّ السنين والأيام ، فكانهم أحياء بآثارهم الخالدة وجهودهم العلمية المباركة . نقل الفقيه الحنفي الحصكفي صاحب الدر : أن أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى قال : (أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصر أباضي ، وقال أبو القاسم : أنا أخذتها من الشبلي ، وهو من السري السقطي ، وهو من معروف الكرخي ، وهو من داود الطائي ، وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة رضي الله عنه ، وكلّ منهم أثنى عليه وأقرّ بفضلته ..) ثم قال صاحب الدر معلقاً : (فيا عجباً

(٢٠١) « الرسالة القشيرية » ص ٢٢

(٣) طبقات الصوفية للسلمي ص ٤٨

لك يا أخي ! ألم يكن لك أسوة حسنة في هؤلاء السادات الكبار ؟ أكانوا مُتَّهَمِينَ في هذا الإقرار والافتخار ، وهم أئمة هذه الطريقة وأرباب الشريعة والحقيقة ؟ ومَنْ بعدهم في هذا الأمر فلهم تبع ، وكل ما خالف ما اعتمدوه مردود مبتدع^(١).

ولعلك تستغرب عندما تسمع أن الإمام الكبير ، أبا حنيفة النعمان رحمه الله تعالى ، يعطي الطريقة لأمثال هؤلاء الأكابر من الأولياء والصالحين من الصوفية ! . فهلاً تأسى الفقهاء بهذا الإمام ، فساروا على نهجه ، وجمعوا بين الشريعة والحقيقة ، لينفع الله بعلمهم ، كما نفع بإمامهم الأعظم ، الإمام الكبير ، معدن التقوى والورع أبي حنيفة رحمه الله تعالى !

يقول ابن عابدين رحمه الله تعالى في حاشيته متحدثاً عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى ، تعليقاً على كلام صاحب الدر الأنف الذكر : (هو فارس هذا الميدان ، فإن مبنى علم الحقيقة على العلم والعمل وتصفية النفس ، وقد وصفه بذلك عامة السلف ، فقال أحمد بن حنبل [رحمه الله تعالى] في حقه : إنه كان من العلم والورع والزهد وإيثار الآخرة بمحل لا يدركه أحد ، ولقد ضرب بالسياط لِيَلِيَ القضاء ، فلم يفعل . وقال عبد الله بن المبارك [رحمه الله تعالى] : ليس أحد أحق من أن يُقْتَدَى به من أبي حنيفة ، لأنه كان إماماً تقيّاً ورعاً عالماً فقيهاً ، كشف العلم كشفاً لم يكشفه أحد ببصر وفهم وفطنة وتقى . وقال الثوري لمن قال له : جئتُ من عند أبي حنيفة : لقد جئتُ من عند أعبد أهل

(١) الدر المختار ٤٣/١ . وعليه حاشية ابن عابدين وهو محمد أمين بن عمر ابن عبد العزيز عابدين الدمشقي فقيه الديار الشامية وإمام الحنفية في عصره ، له من التأليف [رد المحتار على الدر المختار] في خمسة مجلدات يعرف بحاشية ابن عابدين ، وله رفع الأنظار عما أورده الحلبي على الدر المختار ، والعقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية جزءان ، ونسمات الأسحار شرح المنار ، ومجموعة الرسائل . . مولده ووفاته في دمشق سنة ١١٩٨-١٢٥٢هـ

الأرض^(١). ومن هذا نعلم أن الأئمة المجتهدين والعلماء العاملين ، هم الصوفية حقيقة .

فإن قال قائل : لو أن طريق التصوف أمر مشروع ، لوضع فيه الأئمة المجتهدون كتباً ، ولا نرى لهم قط كتاباً في ذلك ؟ يجيب الشعراني رحمه الله تعالى على هذا فيقول : (إنما لم يضع المجتهدون في ذلك كتاباً لقلة الأمراض في أهل عصرهم ، وكثرة سلامتهم من الرياء والنفاق . ثم بتقدير عدم سلامة أهل عصرهم من ذلك ، فكان ذلك في بعض أناس قليلين ، لا يكاد يظهر لهم عيب . وكان معظم همة المجتهدين إذ ذاك إنما هو في جمع الأدلة المنتشرة في المدائن والثغور مع أئمة التابعين وتابعيهم ، التي هي مادة كل علم ، وبها يُعرف موازين جميع الأحكام ، فكان ذلك أهم من الاشتغال بمناقشة بعض أناس في أعمالهم القلبية التي لا يظهر بها شعار الدين ، وقد لا يقعون بها في حكم الأصل . ولا يقول عاقل قط : إن مثل الإمام أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد رضي الله عنهم ، يعلم أحدهم من نفسه رياءً أو عجباً أو كبراً أو حسداً أو نفاقاً ثم لا يجاهد نفسه ولا يناقشها أبداً . ولولا أنهم يعلمون سلامتهم من تلك الآفات والأمراض لقدموا الاشتغال بعلاجها على كل علم^(٢)).

الدس على العلوم الإسلامية : التفسير - الحديث - التاريخ - التصوف

لقد تعرض الإسلام منذ انبثاق فجره إلى خصوم أشداء ، وأعداء ألداء حاولوا تقويض بنيانه ، وتحطيم أركانه ، عن طريق تشويه معالمه ، ودس الأباطيل والخرافات في علومه ، كما نرى ذلك في التفسير والحديث وفي التاريخ والتصوف .. وغيرها .

أما التفسير : فكثيراً ما نقرأ في كتبه بعض الإسرائيليات التي ليست إلا

(١) « حاشية ابن عابدين » ٤٣/١

(٢) « لطائف المنن والأخلاق » للشعراني ٢٥/١ ، ٢٦

أساطير كاذبة ، وعقائد غير إسلامية ، نقلها إلى الدين الإسلامي اليهود الذين اعتنقوا الإسلام غير مخلصين ، أو مخلصين ولكن علقت بأذهانهم هذه الأساطير حين كانوا على دين اليهودية ، فنقلوها عن كتب أنبيائهم التي دخلها التحريف والتغيير ، وتقبلها بعض المسلمين على أنها صحيحة .

وقد وفق الله تعالى علماء المسلمين إلى تمحيص هذه الإسرائيليات وتنبيه المسلمين إلى ضررها ، وخصوصاً منها ما يضر بالعقيدة ، كالإخبار بأن أيوب عليه السلام مرض حتى ظهر الدود على جسده ، وكنسبة المعاصي إلى بعض الأنبياء ، فقد زعموا أن داود عليه السلام عشق امرأة بعض جنوده ، ثم أرسل زوجها لبعض المواقع الحربية لقتله ، فقتل وتزوجها . كما زعموا أن يوسف عليه السلام همَّ بامرأة العزيز همَّ فُحشٍ وسوء ، ولفَّقوا في ذلك قصصاً وحكايات لا تليق بمقام الرسل الكرام ، الذين عصمهم الله من كل سوء وفاحشة .

فالواجب على كل مسلم نبذ هذه الإسرائيليات ، والاعتماد على المصادر الإسلامية الصحيحة الشهيرة .

وأما الحديث : فلقد حاول الدسَّاسون المغرضون تشويه معالم الإسلام عن طريق وضع أحاديث مكدوبة مفتراة على لسان الرسول ﷺ ؛ يقصدون بذلك تحطيم العقيدة ، ودس الأفكار الهدامة ؛ كالتجسيم والتشبيه والفوقية والجهة ، وغير ذلك من العقائد الفاسدة .

كما وضعوا أحاديث في الترغيب والترهيب ما أنزل الله بها من سلطان . وإذا قيل لهم : لِمَ تكذبون على رسول الله ﷺ ، وهو يقول : « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »؟^(١) قالوا : نحن نكذب له لا عليه . كما كان بعضهم يضع الحديث تقريباً إلى الحكام ، وتزلفاً إلى الملوك ، رغبة في مطعم دنيوي ومكسب مادي .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم في كتاب الإيمان ، والترمذي في كتاب العلم ، وابن ماجه في أبواب السنة

ولكن الله تعالى قيّض لسنة رسوله ﷺ علماء مخلصين غيورين ، محصوا تلك الأحاديث ، وبينوا الصحيحة من الضعيفة ، والموضوعة من الحسنة ، والمشهورة من الغريبة ، كالمُزَيّ والزين العراقي والذهبي وابن حجر وغيرهم [وقد جمع بعض العلماء الغيورين على الأحاديث النبوية كتباً بينوا فيها الأحاديث الموضوعة منها : اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي ، وكشف الخفاء للعجلوني ، وأسنى المطالب للحوت البيروتي] .

وأما التاريخ : فقد كان ميداناً خصباً للدس والافتراء ؛ حيث ألصق المضلّلون في تاريخ الإسلام قصصاً وحوادث من نسيج خيالهم . حاولوا بذلك تشويه سيرة الخلفاء وملوك الإسلام ، كما نسبوا إلى هارون الرشيد أموراً غريبة منكرة ، نجدها في أكاذيب ألف ليلة وليلة .

ولا يخفى ما أحدثه المضللون الصليبيون والمستشرقون ومن لف لفهم في تاريخ الإسلام من افتراءات وتُرّهات وأضاليل واضحة البطلان لم يقصدوا بها إلا التهديم والتشكيك .

ولكن المؤرخين المسلمين المحققين كالذهبي ، والطبري ، وابن كثير ، وابن الأثير ، وابن هشام وغيرهم ، قد دونوا التاريخ الإسلامي ، وهذبوه ونفّوا عنه الدخائل ، وأخرجوه نقياً سليماً . فعلى طالب الحقيقة أن يعود إلى هذه المراجع الصحيحة ، كي يميز الخبيث من الطيب ، والغث من السمين .

وأما التصوف : فكغيره من العلوم الدينية ، لم يسلم من الدس والتحريف من هؤلاء الدخلاء والمفتريين .

فمنهم من أدخل في كتب الصوفية أفكاراً منحرفة ، وعبارات سيئة ما أنزل الله بها من سلطان ، كقولهم :

وما الكلبُ والخنزيرُ إلا إلهنا وما الربُّ إلا راهبٌ في كنيسة .
﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (الكهف: ٥).

ومنهم من أراد أن يفسد دين المسلمين بأشياء أخر تمس عقائدهم ؛ فنسب إلى بعض رجال الصوفية أقوالاً تخالف عقيدة أهل السنة ؛ كالقول بالحلول والاتحاد ، وبأن الخالق عين المخلوق ، والكون عين المكون .

ومنهم من حاول تشويه تاريخ رجال الصوفية ، ونزع ثقة الناس بهم ، فدسّ في كتبهم حوادث وقصصاً من نسج خياله ، فيها ارتكاب للمنكرات واقتراف للآثام والكبائر ، كما نجد ذلك كثيراً في الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رحمه الله تعالى ، وهو منها بريء كما سيأتي .

ومنهم المبشّرون والمستشرقون ، وأبواق الاستعمار الذين درسوا كتب السادة الصوفية ، وكتبوا عنهم المؤلفات لأجل التحريف والتزوير والدس ، يقصدون بذلك أن يطعنوا الإسلام في صميمه ، وأن يسلخوا روح الدين عن جسده ، ولقد خدع بهم أقوام أرادوا أن يفهموا التصوف من كتب هؤلاء المستشرقين ، كأمثال [نكلسون الإنكليزي ، وجولد زيهير اليهودي ، وماسينيون الفرنسي وغيرهم] ، فوقعوا في أحاييلهم ، وتسمّموا من أفكارهم ، وانجرفوا في تيار محاربة الصوفية . ولا أدري كيف يثق مسلم صادق بأقوال عدوه المخادع الماكر؟

ومنهم السُدُجُ الذين يصدقون هؤلاء وهؤلاء ، فيعتقدون بهذه الأمور المدسوسة ويشبتونها في كتبهم . وكل هذا بعيد عن الصوفية والتصوف .

فإن قال قائل : إنّ ما نسب إلى الصوفية من أقوال مخالفة هي حقاً من كلامهم بدليل وجودها في كتبهم المطبوعة المنشورة .

نقول : ليس كل ما في كتب الصوفية لهم ؛ لأنها لم تسلم من حملات الدس والتحريف . وما أحوجنا إلى تضافر جهود المؤمنين المخلصين لتنقية هذا التراث الإسلامي الثمين مما لحق به من دس وتحريف .

ولو ثبت بطريق صحيح عن بعض الصوفية كلام مخالف لحدود الشريعة فنقول : ليست كلمة فرد واحد حجة على جماعة ، شعارها ومذهبها التمسك

بالكتاب والسنة . حتى إنهم ليقولون : إن أول شرط الصوفي أن يكون واقفاً عند حدود الشريعة ، وألا ينحرف عنها قيد شعرة ، فإذا هو تخطى هذا الشرط ، ووصف نفسه بأنه صوفي ، فقد اختلق لنفسه صفة ليست فيه وزعم ما ليس له .

وإن من إضاعة الوقت الثمين الانشغال بمثل هذه التُّرَّهَات والأباطيل المفتراة على هؤلاء القوم في هذه الأوقات التي يوجد ما هو أهم من المجادلة بها ، فهي معروفة لدى الصوفية المحققين والعلماء المدققين . وعلمنا أن نعرف أن التصوف ليس علماً نتلقاه بقراءة الكتب ومطالعة الكراريس ، ولكنه أخلاق وإيمان ، وأذواق ومعارف ، لا ينال إلا بصحبة الرجال ، الذين اهتموا بهدي الرسول ﷺ ، وورثوا عنه العلم والعمل والأخلاق والمعارف . وهو علم ينتقل من الصدر إلى الصدر ، ويفرغه القلب في القلب .

وهناك أقوام مغرضون ، درسوا كتب السادة الصوفية وتتبعوا ما فيها من دس وتشويه وتحريف واعتبروها حقائق ثابتة ، وارتكزوا عليها في حملاتهم العنيفة وتهجماتهم الشديدة على السادة الصوفية الأبرار . ولو أنهم قرأوا ما يعلنه رجال التصوف في جميع كتبهم من استمسакهم بالشريعة واعتصامهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتقيدهم بالمذاهب الإسلامية المعتبرة ، وتبنيهم عقيدة أهل السنة والجماعة ، كما بيناه آنفاً في بحث بين الحقيقة والشريعة ، لأدركوا تماماً أن ما ورد في كتبهم مما يناقض هذا المبدأ الواضح والمنهج السوي ، إنما هو مؤول أو مدسوس .

وإليك بعض أمثلة الدس المفتراة على الصوفية والعلماء في كتبهم :

يقول ابن الفراء في طبقاته نقلاً عن أبي بكر المروزي ومسدّد وحرب إنهم قد رووا الكثير من المسائل ، ونسبوا للإمام أحمد بن حنبل . . وبعد أن يفيض في ذكر هذه المسائل يقول :

(رجلان صالحان بلياً بأصحاب سوء : جعفر الصادق ، وأحمد بن حنبل ، أما جعفر الصادق فقد نسبت إليه أقوال كثيرة ، دونت في فقه الشيعة الإمامية

على أنها له ، وهو بريء منها . وأما الإمام أحمد ، فقد نسب إليه بعض الحنابلة آراء في العقائد لم يقل بها^(١) .

وسئل الإمام الفقيه ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى ونفعنا به : في عقائد الحنابلة ما لا يخفى على شريف علمكم ، فهل عقيدة الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه كعقائدهم؟

فأجاب بقوله : (عقيدة الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وأرضاه وجعل جنان المعارف متقلبه ومأواه ، وأفاض علينا وعليه من سوابغ امتنائه ، وبوأه الفردوس الأعلى من جنانه ، موافقةً لعقيدة أهل السنة والجماعة من المبالغة التامة في تنزيه الله تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ؛ من الجهة والجسمية وغيرها من سائر سمات النقص ، بل وعن كل وصف ليس فيه كمال مطلق ، وما اشتهر بين جهلة المنسوبين إلى هذا الإمام الأعظم المجتهد من أنه قائل بشيء من الجهة أو نحوها فكذب وبهتان وافتراء عليه . فلعن من نسب إليه ، أو رماه بشيء من هذه المثالب التي برأه الله منها ، وقد بين الحافظ الحجة القدوة الإمام أبو الفرج بن الجوزي من أئمة مذهبه المبرئين من هذه الوصمة القبيحة الشنيعة أن كل ما نسب إليه من ذلك كذب عليه وافتراء وبهتان ، وأن نصوصه صريحة في بطلان ذلك وتنزيه الله تعالى عنه ، فاعلم ذلك ، فإنه مهم)^(٢) .

وأما الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد دُسَّ عليه كتاب نهج البلاغة أو أكثره ، فقد ذكر الذهبي رحمه الله تعالى في ترجمة علي بن الحسين الشريف المرتضى أنه : (هو المتهم بوضع كتاب نهج البلاغة ، ومن طالعه جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، وفيه السب الصراح والخط على السيدين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وفيه من التناقض والأشياء

(١) التصوف الإسلامي والإمام الشعراني طه عبد الباقي سرور ص ٨٢

(٢) الفتاوى الحديثية لابن حجر المكي ص ١٤٨

الركيكة والعبارات التي من له معرفة بنفس القرشيين الصحابة ، وبنفس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين جزم بأن الكتاب أكثره باطل^(١).

وممن دسَّ عليهم الإمام الشعراني رحمه الله تعالى ، وأكثر ما دسَّ عليه في الطبقات الكبرى ، ولقد أوضح ذلك في كتابه لطائف المنن والأخلاق فقال : (ومما منَّ الله تبارك وتعالى به عليَّ ، صبري على الحسدة والأعداء ، لما دسوا في كتبي كلاماً يخالف ظاهر الشريعة ، وصاروا يستفتون عليَّ زوراً وبهتاناً ، ومكاتبهم فيَّ لباب السلطان ، ونحو ذلك . اعلم يا أخي أن أول ابتلاء وقع لي في مصر من نحو هذا النوع ، أني لما حججتُ سنة سبع وأربعين وتسعمائة ، زورَ عليَّ جماعة مسألة فيها خرق لإجماع الأئمة الأربعة ، وهو أنني أفتيتُ بعض الناس بتقديم الصلاة عن وقتها إذا كان وراء العبد حاجة ، قالوا : وشاع ذلك في الحج ، وأرسل بعض الأعداء مكاتبات بذلك إلى مصر من الجبل ، فلما وصلتُ إلى مصر ، حصل في مصر رجٌ عظيم ، حتى وصل ذلك إلى إقليم الغربية والشرقية والصعيد وأكابر الدولة بمصر ، فحصل لأصحابي غاية الضرر ، فما رجعتُ إلى مصر إلا وأجد غالب الناس ينظر إليَّ شذراً ، فقلت : ما بال الناس ؟ فأخبروني بالمكاتبات التي جاءتهم من مكة ، فلا يعلم عدد من اغتابني ، ولا ث بعرضي إلا الله عز وجل .

ثم إنني لما صنف كتاب البحر المورود في المواثيق والعهود ، وكتب عليه علماء المذاهب الأربعة بمصر ، وتسارع الناس لكتابته ، فكتبوا منه نحو أربعين نسخة ، غار من ذلك الحسدة ، فاحتالوا على بعض المغفلين من أصحابي ، واستعاروا منه نسخته ، وكتبوا لهم منها بعض كراريس ، ودسوا فيها عقائد زائغة ومسائل خارقة لإجماع المسلمين ، وحكايات وسخریات عن جحا ، وابن الراوندي ، وسبكوا ذلك في غضون الكتاب في مواضع كثيرة ، حتى كأنهم المؤلف ، ثم أخذوا تلك الكراريس ، وأرسلوها إلى سوق الكتبيين في يوم

(١) ميزان الاعتدال للذهبي ١٢٤/٣

السوق ، وهو مجمع طلبة العلم ، فنظروا في تلك الكراريس ، ورأوا اسمي عليها ، فاشتراها من لا يخشى الله تعالى ، ثم دار بها على علماء جامع الأزهر ، ممن كان كتب على الكتاب ومن لم يكتب ، فأوقع ذلك فتنة كبيرة ، ومكث الناس يلوثون بي في المساجد والأسواق وبيوت الأمراء نحو سنة ، وأنا لا أشعر . وانتصر لي الشيخ ناصر الدين اللقاني ، وشيخ الإسلام الحنبلي ، والشيخ شهاب الدين بن الجلي ، كل ذلك وأنا لا أشعر ، فأرسل لي شخص من المحبين بالجامع الأزهر ، وأخبرني الخبر فأرسلت نسختي التي عليها خطوط العلماء ، فنظروا فيها ، فلم يجدوا فيها شيئاً مما دسه هؤلاء الحسدة ، فسبوا من فعل ذلك ، وهو معروف .

وأعرفُ بعض جماعة من المتهورين ، يعتقدون فيَّ السوء إلى وقتي هذا ، وهذا بناء على ما سمعوه أولاً من أولئك الحسدة ، ثم إن بعض الحسدة ، جمع تلك المسائل التي دُست في تلك الكراريس وجعلها عنده ، وصار كلما سمع أحداً يكرهني ، يقول له : إن عندي بعض مسائل تتعلق بفلان ، فإن احتجت إلى شيء منها أطلعتك عليه ، ثم صار يعطي بعض المسائل لحاسد بعد حاسد إلى وقتي هذا ، ويستفتون عليَّ وأنا لا أشعر ، فلما شعرتُ ، أرسلت لجميع علماء الأزهر أنني أنا المقصود بهذه الأسئلة ، وهي مفتراة عليَّ ، فامتنع العلماء من الكتابة عليها^(١) .

وقد ذكر المؤرخ الكبير عبد الحي بن العماد الحنبلي رحمه الله تعالى في كتابه شذرات الذهب في أخبار من ذهب ترجمة الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى وبعد أن أثنى عليه ، وذكر مؤلفاته الكثيرة ، وأثنى عليها أيضاً قال فيه : (وحسده طوائف فدسوا عليه كلمات يخالف ظاهرها الشرع ، وعقائد زائغة ، ومسائل تخالف الإجماع ، وأقاموا عليه القيامة ، وشنعوا وسبوا ، ورموه بكل عزيمة ، فخذلهم الله ، وأظهره الله عليهم وكان مواظباً على السنة ، ومبالغاً

(١) «لطائف المنن والأخلاق» للشعراني ١٩٠/٢ ، ١٩١

في الورع ، مؤثراً ذوي الفاقة على نفسه حتى بملبوسه ، متحملاً للأذى ، موزعاً أوقاته على العبادة ؛ ما بين تصنيفٍ وتسليكٍ وإفادة . . وكان يُسمَعُ لزاويته دوي كدوي النحل ليلاً ونهاراً ، وكان يحيي ليلة الجمعة بالصلاة على المصطفى ﷺ ، ولم يزل مقيماً على ذلك ، معظماً في صدور الصدور ، إلى أن نقله الله تعالى إلى دار كرامته^(١).

وقال الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه اليواقيت والجواهر : (وقد دس الزنادقة تحت وسادة الإمام أحمد بن حنبل في مرض موته ، عقائد زائغة ، ولولا أن أصحابه يعلمون منه صحة الاعتقاد ، لافتتنوا بما وجوده تحت وسادته)^(٢).

وكذلك ذكر الشيخ مجد الدين الفيروز أبادي صاحب القاموس في اللغة : أن بعض الملاحدة صنف كتاباً في تنقيص الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه وأضافه إليه ، ثم أوصله إلى الشيخ جمال الدين بن الخياط اليمني ، فشنع على الشيخ أشد التشنيع ، فأرسل إليه الشيخ مجد الدين يقول له : (إني معتقد في الإمام أبي حنيفة غاية الاعتقاد ، وصنفت في مناقبه كتاباً حافلاً وبالغت في تعظيمه إلى الغاية ، فأحرق هذا الكتاب الذي عندك ، أو اغسله ، فإنه كذب وافتراء علي)^(٣).

وقال الفقيه الكبير أحمد بن حجر الهيتمي المكي رحمه الله تعالى : (وإياك أن تغترّ بما وقع في كتاب الغنية لإمام العارفين ، وقطب الإسلام والمسلمين ، الشيخ عبد القادر الجيلاني . فإنه دسه عليه فيها مَنْ سينتقم الله منه ، وإلا فهو بريء من ذلك . وكيف تروج عليه هذه المسألة الواهية مع تضلعه من الكتاب

(١) «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» للمؤرخ الفقيه الأديب عبد الحي الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩هـ . ٣٧٤/٨

(٢) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر للشيخ عبد الوهاب الشعراني ٨/١

(٣) لطائف المنن والأخلاق للشعراني ١٢٧/١

والسنة وفقه الشافعية والحنابلة ، حتى كان يفتي على المذهبين . هذا مع ما انضم لذلك من أن الله مَنْ عليه من المعارف والخوارق الظاهرة والباطنة . وما أنبأ عنه ما ظهر عليه وتواتر من أحواله . . إلى أن قال : فكيف يُتصور أو يُتوهم أنه قائل بتلك القبائح التي لا يصدر مثلها إلا عن اليهود وأمثالهم ممن استحكم فيهم الجهل بالله وصفاته وما يجب له وما يجوز وما يستحيل . سبحانه هذا بهتان عظيم) ^(١) .

وكذلك دسوا على الإمام الغزالي عدة مسائل في كتاب الإحياء ، وظفر القاضي عياض بنسخة من تلك النسخ فأمر بإحراقها ^(٢) .

قال الشعراني رحمه الله تعالى : (ومما دسوا على الغزالي ، وأشاعه بعضهم عنه ، قولهم عنه إنه قال : [إن لله عبادة لو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها ، وإن لله عبادة لو سألوه أن يقيم الساعة الآن لأقامها] . فإن مثل ذلك كذب وزور على الإمام حجة الإسلام رضي الله تعالى عنه وأرضاه ، يجب على كل عاقل تنزيه الإمام عنه ، لأنه يردُّ النصوص القاطعة الواردة في مقدمات الساعة ، فيؤدي ذلك إلى تكذيب الشارع ﷺ فيما أخبر ، وإن وجد ذلك في بعض مؤلفات الإمام فذلك مدسوس عليه من بعض الملاحدة ، وقد رأيت كتاباً كاملاً مشحوناً بالعقائد المخالفة لأهل السنة والجماعة ، صنَّفه بعض الملحدين ونسبه إلى الإمام الغزالي ، فاطلع عليه الشيخ بدر الدين بن جماعة ، فكتب عليه : كذبَ والله وافترى مَنْ أضافَ هذا الكتاب إلى حجة الإسلام) ^(٣) .

وقال أيضاً : (وكذلك دسوا عليَّ أنا في كتابي المسمى بالبحر المورود جملةً من العقائد الزائغة ، وأشاعوا تلك العقائد في مصر ومكة نحو ثلاث سنين ، وأنا بريء منها كما بيَّنتُ في خطبة الكتاب لما غيرتها ، وكان العلماء

(١) « الفتاوى الحديثية » لابن حجر ص ١٤٩

(٢) « اليواقيت والجواهر » ٨/١

(٣) « لطائف المنن والأخلاق » للشعراني ١٢٧/١

كتبوا عليه وأجازوه ، فما سكنت الفتنة حتى أرسلت إليهم النسخة التي عليها خطوطهم^(١).

هذا وقد ملأ خصومُه الدنيا حوله حقداً وحسداً ، وافترأ وكذباً وتضليلاً ، لاسيما في كتبه المعروفة ، وأشهرها الطبقات الكبرى .

فلو قارن المُنصِفُ بين كلام الشعراني رحمه الله تعالى الذي يعلن فيه تمسك الصوفية بالشرعية ، وقد مر بك في بحث بين الحقيقة والشرعية . . وبين كلامه في الطبقات الكبرى لرأى تبايناً ظاهراً ، ولظهر له كذب ما في الطبقات .

وكذلك دسوا على الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى ، قال الشعراني : (كان رضي الله عنه متقيداً بالكتاب والسنة ، ويقول : كل مَنْ رمى ميزان الشرعية من يده لحظة هلك . . إلى أن قال : وهذا اعتقاد الجماعة إلى قيام الساعة ، وجميع ما لم يفهمه الناس من كلامه إنما هو لعلوا مراقبه ، وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشرعية وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه ، كما أخبرني بذلك سيدي أبو طاهر المغربي نزيل مكة المشرفة ، ثم أخرج لي نسخة الفتوحات التي قابلها على نسخة الشيخ التي بخطه في مدينة قونيه ، فلم أر فيها شيئاً مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات . . ثم قال الشعراني رحمه الله تعالى : إذا علمت ذلك ، فيحتمل أن الحسدة دسوا على الشيخ في كتبه ، كما دسوا في كتبي أنا ، فإنه أمر قد شاهدته عن أهل عصري في حقي ، فالله يغفر لنا ولهم آمين)^(٢).

ذكر الفقيه الحنفي صاحب الدر المختار أن : (من قال عن فصوص الحكم للشيخ محيي الدين بن عربي ، إنه خارج عن الشرعية ، وقد صنفه للإضلال ، ومن طالعه ملحد ، ماذا يلزمه؟ أجاب : نعم ، فيه كلمات تباين الشرعية ، وتكلف بعض المتصّلّفين لإرجاعها إلى الشرع ، لكن الذي تيقنّه أن بعض

(١) «اليواقيت والجواهر» ٨/١

(٢) «اليواقيت والجواهر» للشعراني ٩/١

اليهود افتراها على الشيخ قدس الله سره ، فيجب الاحتياط بترك مطالعة تلك الكلمات . قال العلامة ابن عابدين رحمه الله تعالى في حاشيته على الدر المختار عند قوله : [لكن الذي تيقنُهُ] : وذلك بدليل ثبت عنده ، أو لسبب عدم اطلاعه على مراد الشيخ فيها ، وأنه لا يمكن تأويلها ، فتعين عنده أنها مفتراة عليه ، كما وقع للشيخ الشعراني أنه افتري عليه بعض الحساد في بعض كتبه أشياء مكفرة ، وأشاعها عنه ، حتى اجتمع بعلماء عصره ، فأخرج لهم مسودة كتابه التي عليها خطوط العلماء فإذا هي خالية عما افتري عليه . وقال ابن عابدين أيضاً عند قوله : [فيجب الاحتياط] : لأنه إن ثبت افتراؤها فالأمر ظاهر ، وإلا فلا يفهم كلُّ أحد مراده فيها ، فيخشى على الناظر فيها من الإنكار عليه ، أو فهم خلاف المراد^(١) .

ومن المدسوس على الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى أيضاً : القول بأن أهل النار يتلذذون بدخولهم النار ، وأنهم لو أخرجوا منها ، تعذبوا بذلك الخروج .

قال الشعراني رحمه الله تعالى : (وإن وُجد نحو ذلك في شيء من كتبه فهو مدسوس عليه ، فلإني مررت على كتاب الفتوحات المكية جميعه فرأيتَه مشحوناً بالكلام على عذاب أهل النار)^(٢) .

وقال أيضاً : (كذب مَنْ دسَّ في كتاب الفصوص والفتوحات ، أن الشيخ محيي الدين بن عربي قال بأن أهل النار يتلذذون بالنار ، وأنهم لو أخرجوا منها لاستغاثوا ، وطلبوا الرجوع إليها ، كما رأيت ذلك في هذين الكتابين . وقد حذفت ذلك من الفتوحات حال اختصاري لها . حتى ورد عن الشيخ

(١) حاشية ابن عابدين ٣/٣٠٣ ، وصاحب الدر المختار الشيخ محمد علاء الدين الحصكفي المتوفى سنة ١٠٨٨هـ

(٢) «الكبرى الأحمر» ص ٢٧٦ طبعة ١٢٧٧ . كذا في مجلة العشيرة المحمدية عدد محرم ١٣٨١هـ ، ص ٢١

شمس الدين الشريف ، بأنهم دسوا على الشيخ في كتبه كثيراً من العقائد الزائغة التي نقلت عن غير الشيخ ، فإن الشيخ من كُمل العارفين بإجماع أهل الطريق ، وكان جليس رسول الله ﷺ على الدوام ، فكيف يتكلم بما يهدم شيئاً من أركان شريعته ، ويساوي بين دينه وبين جميع الأديان الباطلة ، ويجعل أهل الدارين سواء؟! هذا لا يعتقده في الشيخ إلا من عزلَ عنه عقله . فإياك يا أخي أن تصدق ، من يضيف شيئاً من العقائد الزائغة إلى الشيخ ، واحمِ سمعك وبصرك وقلبك ، وقد نصحتك والسلام . وقد رأيت في عقائد الشيخ محيي الدين الواسطي ما نصه : ونعتقد أن أهل الجنة والنار مخلدون في دارَيْهما ، لا يخرج أحد منهم من داره أبد الآبدين ودهر الدهرين . . قال : ومرادنا بأهل النار الذين هم أهلها من الكفار والمشركين والمنافقين والمعطلين ، لا عصاة الموحدين فإنهم يخرجون من النار بالنصوص^(١) .

ويؤيد ما ذكرنا بأن هذا القول مدسوس على الشيخ محيي الدين ما ذكره الشيخ نفسه في الباب الحادي والسبعين وثلاثمائة من الفتوحات ، عندما تغلق أبواب النار ، كيف يصير أهلها كقطع اللحم حينما تغلي بهم النار ويصير أعلاها أسفلها . وكذلك ما ذكره الإمام الباجوري الشافعي في شرحه على جوهرة التوحيد : (وما يقال بتمرن أهل النار بالعذاب ، حتى لو ألقوا في الجنة لتألموا مدسوس على القوم [الصوفية] كيف وقد قال تعالى : ﴿ فَذُوقُوا فَلَئِنْ تَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ (النبا: ٣٠)^(٢) .

فكيف يعتقد مسلم هذه العقيدة الفاسدة التي تخالف عقيدة أهل السنة والجماعة؟ وقد نص على ذلك الشيخ محمد بن يوسف الكافي ، بعد أن ذكر فريق الجنة ، وأنهم مخلدون فيها ومنعمون ، ذكر فريق أهل النار فقال : (وفريق السعير خالدون فيه أبداً ، لا ينقطع عنهم ألم العذاب ، وقال بعضهم :

(١) « اليواقيت والجواهر » للشعراني ٢٠٥/٢

(٢) حاشية العلامة شيخ الإسلام إبراهيم الباجوري ص ١٠٨

[ينقطع عنهم ، وينقلب في حقهم استلذاذاً ، بحيث لو عُرِضَتْ عليهم الجنة لأبَوْهَا ، لما هم فيه من الاستلذاذ] . ومعتقد هذا كافر بلا شك ولا ريب ، لتكذيبه الله تعالى في خبره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [البقرة: ١٦١، ١٦٢] . وفي خبره أيضاً : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦] . وغير ذلك من الآيات الدالة على استمرار عذابهم ^(١) .

ومما نسب إلى الشيخ محيي الدين رحمه الله تعالى أيضاً افتراءً عليه القول : بسقوط التكليف .

يقول العلامة الشعراني رحمه الله تعالى : (وقد ذكر الشيخ محيي الدين أنه لا يجوز لولي قط المبادرة إلى فعل معصية اطلع من طريق كشفه على تقديرها عليه ، كما لا يجوز لمن كُشف له أن يمرض في اليوم الفلاني من رمضان ، أن يبادر للفطر في ذلك اليوم ، بل يجب عليه الصبر حتى يتلبس بالمرض ، لأن الله تعالى ما شرع الفطر إلا مع التلبس بالمرض أو غيره من الأعذار ، قال : وهذا مذهبنا ومذهب المحققين من أهل الله عز وجل) ^(٢) .

ومما دُسَّ على العارف الكبير الشيخ إبراهيم الدسوقي رحمه الله تعالى قوله : (أذن لي ربي أن أتكلم وأقول أنا الله ، فقال لي : قل : أنا الله ولا تبال) وفي هذا من الشناعة والاجترأ ، ما يغني عن الإطالة ^(٣) .

ومما دُسَّ على رابعة العدوية رحمها الله تعالى ، قولها عن الكعبة : [هذا الصنم المعبود في الأرض] [وقد عمد بعض المغرضين الدساسين إلى تقصي جميع النصوص المدسوسة والمكذوبة على الصوفية ليتخذها ذريعة في حملته

(١) المسائل الكافية للشيخ محمد بن يوسف الكافي التونسي ص ١٩

(٢) مجلة العشيرة المحمدية عدد محرم ١٣٨١ هـ ، ص ٢١

(٣) المرجع السابق ١٣٨١ ص ٢٣

المغرضة ، وتهجمه الشنيع على الصوفية بأسلوب مقذع وعبارات منحطة بعيدة عن أخلاق الإسلام وصفات المؤمنين لا يدفعه إلى ذلك إلا حقد دفين وهوى نفسي ومآرب شخصية] . وهذا ابن تيمية نفسه يكذب نسبة هذا القول إليها ويبين أنه مدسوس ومكذوب عليها ، فقد قال حين سئل عن ذلك : (وأما ما ذكر عن رابعة من قولها عن البيت : إنه الصنم المعبود في الأرض ، فهو كذب على رابعة المؤمنة التقية ، ولو قال هذا من قال لكان كافراً يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل ، وهو كذب . فإن البيت لا يعبد المصلحون ؛ ولكنهم يعبدون رب البيت بالطواف به والصلاة إليه) ^(١) .

ولو ذهبنا نستقصي ألوان التزييف في التاريخ الإسلامي والتصوف لما وَسَعَتْنَا هذه الرسالة ، إذ التصوف كان نصيبه من الدس والافتراء أعظم من غيره ، لأن المزيفين أدركوا أن التصوف هو روح الإسلام ، وأن الصوفية هم قوته النافذة الضخمة وشعلته الوضاءة المشرقة ، فأرادوا أن يطفئوا هذا النور . قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (الصف: ٨) .

وإننا لا ننسى أن الذي ساعد على الدس والتضليل والافتراء عدم الطباعة الفنية والمراقبة الشديدة في الماضي ، كما هي عليه اليوم في عصرنا الحاضر من الطبع المنظم ، ومن العقوبات القانونية لمن يتجرأ على طبع شيء من الكتب بغير إذن مؤلفها ، بخلاف عصر النسخ للكتب الخطية ، فقد كان الداسسون والكذابون يروجون كتباً فيها ما فيها من الدجل والكذب ما الله به عليم ، ويدخلون على كتب العلماء وخصوصاً الصوفية الدسائس والأباطيل .

ولكن الله تعالى - وله الحمد - قيضَ لهذا الدين رجالاً سهرُوا على تنقية الكتب الإسلامية ، وبينوا المدسوس فيها من الصحيح .

(١) «مجموعة الرسائل والمسائل» لابن تيمية ٨٠/١ ، ٨١

ونحن بهذا الكتاب المتواضع نساهم في تنقية التصوف الإسلامي مما علق به من دسائس وأمور دخيلة عليه ، لنعيد له صفاء وبريقه ولينتفع الناس من طاقاته الروحية ونفحته الإيمانية في هذا العصر الذي خيمت عليه ظلمات المادية وآثام الإباحية وتيارات الإلحاد والوجودية . .

تأويل كلام السادة الصوفية

إن ما نراه في كتب الصوفية من الأمور التي يخالف ظاهرها نصوص الشريعة وأحكامها ، هي :

- إما أن تكون مدسوسة عليهم من قبل الزنادقة والحسدة وأعداء الإسلام كما بينا .

- وإما أن يكون كلاماً قابلاً للتأويل ، تحدثوا به من باب الإشارة أو الكناية أو المجاز ، كما نرى ذلك في كثير من الكلام العربي ، ونجده بارزاً في كتاب الله تعالى في مواطن عديدة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعَجَلَ ﴾ (البقرة: ٩٣). أي حب العجل . وقوله تعالى : ﴿ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ ﴾ (يوسف: ٨٢). أي أهل القرية . وقوله عز وجل : ﴿ أَوْمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ (الأنعام: ١٢٢) . أي كان ميت القلب ، فأحياه الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ لِنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (إبراهيم: ١) . أي من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . كما نلاحظ في بعض الآيات القرآنية الكريمة تعارضاً في الظاهر ، ولكننا لو تعمقنا في فهمها ، ودققنا في مدلولها ومتعلقها ، لوجدناها قابلة للتأويل ، وبذلك لا نستطيع أن نقول : إن في القرآن تعارضاً أو تصادماً .

فمثلاً ؛ يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ (القصص: ٥٦) . ويقول في موطن آخر : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى: ٥٢) .

فقد يرى مَنْ ليس عنده علم في التفسير أن بين النصين تعارضاً ؛ لأن الأول ينفي عن الرسول ﷺ الهداية ، والثاني يشبّه له الهداية . ولكنه لو سأل أهل

الذكر لأخبروه أن الهداية في الآية الأولى بمعنى خلق الهداية ، وأن معناها في الآية الثانية الدلالة والإرشاد . فلا تعارض بين النصين عند أهل الفهم .

وكذلك نجد أن بعض الأحاديث النبوية الشريفة لا يصح حملها على ظاهرها ، بل لابد من تأويلها على معانٍ تلائم باقي نصوص الشرع ، وتطابق صريح القرآن الكريم ، وفي هذا المعنى يقول الإمام الشعراني رحمه الله تعالى : (وقد أجمع أهل الحق على وجوب تأويل أحاديث الصفات ، كحديث : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر ؛ فيقول : من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيَه؟ من يستغفرني فأغفرَ له؟ »^(١) . وقد بلغ بأحد الضالين أن يقول ، وكان على منبر ، فنزل درجة منه وقال للناس : ينزل ربكم عن كرسيه إلى السماء ؛ كنزولي عن منبري هذا ، وهذا جهل ليس فوقه جهل)^(٢) .

ومن جملة التأويل في الحديث ، تأويل حديث « إن الله خلق آدم على صورته »^(٣) . قال العلامة ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى مؤولاً ذلك : (ويصح أن يكون الضمير لله تعالى كما هو ظاهر السياق ، وحينئذٍ يتعين أن المراد بالصورة الصفة ، أي أن الله تعالى خلق آدم على أوصافه . من العلم والقدرة وغيرهما ، ويؤيد هذا الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها : « كان ﷺ خلقه القرآن » [هذا الحديث فقرة من حديث طويل ولفظه : « قال سعد بن هشام : يا أم المؤمنين أنبئني عن خلق رسول الله ﷺ قالت : أَلَسْتُ تقرأ القرآن؟ قلت : بلى ، قالت : فإن خلقَ نبي الله ﷺ كان القرآن »^(٤) ، وحديث : « تخلقوا بأخلاق الله تعالى » .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب أبواب التهجد عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء

(٢) « التصوف الإسلامي والإمام الشعراني » طه عبد الباقي سرور ص ١٠

(٣) رواه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة عن أبي هريرة رضي الله عنه وأول الحديث : « إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه . . »

(٤) رواه مسلم في صحيحه في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب جامع صلاة الليل

فالمطلوب من الكامل أن يطهر أخلاقه ، وأوصافه من كل نقص ، ليحصل له نوعٌ تأسُّ بأخلاق ربه ، أي صفاته ، وإلا فشتان ما بين أوصاف القديم والحادث . وبهذا التقرير يُعلَم أن هذا الحديث غاية المدح لآدم عليه السلام ، حيث أوجد الله فيه صفاتٍ كصفاته تعالى بالمعنى الذي قرره . . إلى أن قال : والحاصل أن الحديث إن أعيدَ الضمير فيه لله تعالى ، وجب تأويله على ما هو المعروف من مذهب الخلف الذي هو أحكم وأعلم ، خلافاً لفرقة ضلوا عن الحق ، وارتكبوا عظائم من الجهة والتجسيم اللذين هما كفر عند كثير من العلماء ، أعاذنا الله من ذلك بمنه وكرمه^(١) .

قال العلامة المناوي في شرحه على الجامع الصغير ، عند قوله ﷺ : « إن الله يقول يوم القيامة ، يا ابن آدم مرضت فلم تعدني . قال : يا رب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمتَ أنَّ عبيدي فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمتَ أنك لو عدتَه لوجدتني عنده » ؟^(٢) . . إلخ الحديث : (سئل بعض العارفين عن تنزلاتِ الحق في إضافة الجوع والظمأ لنفسه ؛ هل الأولى إبقاؤها على ما وردت ، أو تأويلها كما أولها الحق لعبده حين قال : كيف أطعمك . . إلخ ؟ فقال : الواجب تأويلها للعوام لئلا يقعوا في جانب الحق بارتكاب محذور وانتهاك حرمة ، وأما العارف فعليه الإيمان بها على حد ما يعلمه الله ، لا على حد نسبتها للخلق لاستحالته ، وحقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق ، فلا يجتمع قط مع خلقه في جنس ولا نوع ولا شخص ، ولا تلحقه صفةٌ تشبيه ؛ لأنها لا تكون إلا لمن يجتمع مع خلقه في حال من الأحوال . ولذا أبقاها السلف على ظاهرها لئلا يفوتهم كمال الإيمان ، لأنه ما كلفهم إلا بالإيمان به لا بما أولوه ، فقد لا يكون مراداً للحق ، فالأدب إضافتنا إليه كل ما أضافه لنفسه تعالى . . إلخ)^(٣) .

(١) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص ٢١٤

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة عن أبي هريرة رضي الله عنه

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي ٣١٣/٢

فإذا كان كلام سيد المرسلين ﷺ وقد أوتي الفصاحة والبلاغة ووضوح اللفظ وإشراق التعبير وجوامع الكلم ؛ قد احتاج في بعض الأحيان إلى التأويل ؛ بحمل معانيه على غير ما يفيد ظاهراً لفظه ، فإن كلام غيره من أمته ممن لم يبلغ شأوه في البيان والفصاحة قابل للتأويل محتمل للتفسير من باب أولى . ومن ناحية أخرى ، فإن لكل فن من الفنون أو علم من العلوم كالفقه والحديث والمنطق والنحو والهندسة والجبر والفلسفة اصطلاحات خاصة به ، لا يعلمها إلا أرباب ذلك العلم ، فهل يفهم الطبيب اصطلاح المهندس ، أو يفهم المهندس اصطلاح الطبيب حين يعبر كل منهما عن آلاته ومسميات فنه ؟

ومن قرأ كتب علم من العلوم دون أن يعرف اصطلاحاته ، أو يطلع على رموزه وإشاراته ، فإنه يؤول الكلام تأويلات شتى مغايرة لما يقصده العلماء ، ومناقضة لما يريده الكاتبون فيتية ويضل .

وللصوفية اصطلاحاتهم التي قامت بعض الشيء مقام العبارة في تصوير مدركاتهم ومواجيدهم ، حين عجزت اللغة عن ذلك . فلا بد لمن يريد الفهم عنهم من صحبتهم حتى تتضح له عباراتهم ، ويتعرف على إشاراتهم ومصطلحاتهم ؛ فيستبين له أنهم لم يخرجوا عن الكتاب والسنة ، ولم ينحرفوا عن الشريعة الغراء ، وأنهم هم الفاهمون لروحها ، الواقفون على حقيقتها ، الحارسون لثرائها .

قال بعض العارفين : (نحن قوم يحرم النظر في كتبنا على من لم يكن من أهل طريقنا)^(١) . لأن الغاية من تدوين هذه العلوم إيصالها لأهلها ، فإذا اطلع عليها من ليس من أهلها جهلها ، ثم عادها ، لأن الإنسان عدو لما جهل . ولذلك قال السيد علي بن وفا رحمه الله تعالى : (إنَّ من دَوَّنَ المعارف والأسرار

(١) اليواقيت والجواهر للشعراني ٢٢/١

لَمْ يَدُونُهَا لِلْجُمْهُورِ ، بَلْ لَوْ رَأَى مَنْ يُطَالَعُ فِيهَا مِمَّنْ لَيْسَ هُوَ بِأَهْلِهَا لَنَهَاهُ عَنْهَا^(١).

وتوضيحاً للموضوع نقول : إن كلام السادة الصوفية في تحذير من لا يفهم كلامهم ولا يعرف اصطلاحاتهم من قراءة هذه الكتب ليس من قبيل كتم العلم ، ولكن خوفاً من أن يفهم الناس من كتبهم غير ما يقصدون ، وخشية أن يؤولوا كلامهم على غير حقيقته ، فيقعوا في الإنكار والاعتراض ، شأن من يجهل علماً من العلوم . لأن المطلوب من المؤمن أن يخاطب الناس بما يناسبهم من الكلام وما يتفق مع مستواهم في العلم والفهم والاستعداد ، ولهذا أفرد البخاري في صحيحه باباً في ذلك فقال : « باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا » ، وقال علي رضي الله عنه : (حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟)^(٢). قال العلامة العيني رحمه الله تعالى في شرحه لهذا الحديث : (ترك بعض الناس من التخصيص بالعلم لقصور فهمهم ، والمراد كلموهم على قدر عقولهم ، وفي كتاب العلم لآدم بن إياس عن عبد الله بن داود عن معروف في آخره : « ودعوا ما ينكرون » . أي ما يشتبه عليهم فهمه ، وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة . ومثله قول ابن مسعود رضي الله عنه ، ذكره مسلم في مقدمة كتابه بسند صحيح قال : « ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » . لأن الشخص إذا سمع ما لا يفهمه ، وما لا يتصور إمكانه يعتقد استحالة جهلاً ، فلا يصدق وجوده ، فإذا أُسند إلى الله ورسوله يلزم تكذيبهما)^(٣).

وقال الشيخ أحمد زروق رحمه الله تعالى في قواعده : (في كل علم ما يخص وما يعم ، فليس التصوف بأولى من غيره في عمومه وخصوصه ، بل يلزم بذل أحكام الله المتعلقة بالمعاملات من كلِّ عمومًا ، وما وراء ذلك على

(١) اليواقيت والجواهر للشعراني ٢٢/١

(٢) « صحيح البخاري » كتاب العلم

(٣) « عمدة القاري شرح صحيح البخاري » للإمام العيني ٢٠٤/٢ ، ٢٠٥

حسب قابله لا قدر قائله ، لحديث : « حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يُكذَّبَ الله ورسوله؟ »^(١). وقيل للجنيد رحمه الله تعالى : يسألك الرجال عن المسألة الواحدة فتجيب هذا بخلاف ما تجيب هذا ؟ فقال : الجواب على قدر السائل . قال عليه السلام : « أُمِرْنَا أن نكلم الناس على قدر عقولهم »^(٢).

ولهذا ذكر الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى في الباب الرابع والخمسين من الفتوحات ما نصه : (اعلم أن أهل الله لم يضعوا الإشارات التي اصطلاحوا عليها فيما بينهم لأنفسهم ، فإنهم يعلمون الحق الصريح في ذلك ، وإنما وضعوها منعاً للدخيل بينهم ، حتى لا يعرف ما هم فيه ، شفقةً عليه أن يسمع شيئاً لم يصل إليه فينكره على أهل الله ، فيعاقب بحرمانه ، فلا يناله بعد ذلك أبداً ، قال : ومن أعجب الأشياء في هذه الطريق ، بل لا يوجد إلا فيها ، أنه ما من طائفة تحمل علماً من المنطقيين والنحاة وأهل الهندسة والحساب والمتكلمين والفلاسفة ؛ إلا ولهم اصطلاح لا يعلمه الدخيل فيهم إلا بتوقيف منهم ، لا بد من ذلك . إلا أهل هذه الطريقة خاصة ، فإن المريد الصادق إذا دخل طريقهم ، وما عنده خبر بما اصطلاحوا عليه ، وجلس معهم ، وسمع منهم ما يتكلمون به من الإشارات ، فهم جميع ما تكلموا به ، حتى كأنه الواضع لذلك الاصطلاح ، ويشاركونهم في الخوض في ذلك العلم . ولا يستغرب هو ذلك من نفسه ، بل يجد علم ذلك ضرورياً لا يقدر على دفعه ، فكأنه ما زال يعلمه ، ولا يدري كيف حصل له ذلك . هذا شأن المريد الصادق ، وأما الكاذب فلا يعرف ما يسمع ، ولا يدري ما يقرأ ، ولم ينزل علماء الظاهر في كل عصر يتوقون في فهم كلام القوم . وناهيك بالإمام أحمد بن سريج ، حضر

(١) رواه البخاري تعليقاً في كتاب العلم باب من خص قومًا دون آخرين عن علي رضي الله عنه

(٢) رواه الديلمي بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قواعد التصوف للشيخ زروق ص ٧

يومًا مجلس الجنيد ، فقيل له : ما فهمتَ من كلامه؟ فقال : لا أدري ما يقول ، ولكن أجد لكلامه صولة في القلب ظاهرة . تدل على عمل في الباطن وإخلاص في الضمير ، وليس كلامه كلام مبطل . ثم إن القوم لا يتكلمون بالإشارة إلا عند حضور مَنْ ليس منهم ، أو في تأليفهم لا غير .. ثم قال : ولا يخفى أن أصل الإنكار من الأعداء المبطلين إنما ينشأ من الحسد ، ولو أن أولئك المنكرين تركوا الحسد ، وسلكوا طريق أهل الله ، لم يظهر منهم إنكار ولا حسد ، وازدادوا علمًا إلى علمهم . ولكن هكذا كان الأمر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(١).

وقال العلامة ابن عابدين رحمه الله تعالى في حاشيته شارحًا كلام صاحب الدر المختار ، حين سئل عن فصوص الحكم للشيخ محيي الدين بن عربي : (يجب الاحتياط ؛ لأنه إن ثبت افتراؤها فالأمر ظاهر ، وإلا فلا يفهم كل واحد مراده فيها ، فيُخشى على الناظر فيها من الإنكار عليه ، أو فهم خلاف المراد . وللحافظ السيوطي رسالة سماها : [تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي] ، ذكر فيها أن الناس افترقوا فيه فرقتين : الفرقة المصيبة تعتقد ولايته ، والأخرى بخلافها . ثم قال : والقول الفصل عندي فيه طريقة لا يرضاها الفرقتان ؛ وهي اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه ، وقد نُقل عنه أنه قال : [نحن قومٌ يحرم النظر في كتبنا] ، وذلك أن الصوفية تواطؤوا على ألفاظ ، اصطَلَحُوا عليها ، وأرادوا بها معاني غير المعاني المتعارفة منها بين الفقهاء ، فمن حملها على معانيها المتعارفة كفر ، نص على ذلك الغزالي في بعض كتبه وقال : إنه شبيه بالمتشابه في القرآن والسنة ، كالوجه واليد والعين والاستواء . وإذا ثبت أصل الكتاب عنه [عن الشيخ محيي الدين] فلا بدّ من ثبوت كل كلمة لاحتمال أن يُدس فيه ما ليس منه ، من قبل عدو أو ملحد أو زنديق ، وثبوت أنه قصد بهذه الكلمة

(١) اليواقيت والجواهر للشعراني ص ١٩

المعنى المتعارف ، وهذا لا سبيل إليه ، ومن ادّعاه كفر لأنه من أمور القلب التي لا يطلع عليها إلا الله تعالى . وقد سأل بعضُ أكابر العلماء بعضَ الصوفية : ما حملكم على أنكم اصطَلَحتم على هذه الألفاظ التي يُستشنع ظاهرها؟ فقال : غيرَ على طريقنا هذا أن يدَّعيه من لا يُحسنه ويدخل فيه من ليس أهله^(١).

وسئل العلامة ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى : ما حكم مطالعة كتب ابن عربي وابن الفارض؟ فأجاب بقوله : (حكمها أنها جائزة مطالعة كتبهما ، بل مستحبة ، فكم اشتملت تلك الكتب على فائدة لا توجد في غيرها ، وعائدة لا تنقطع هواطل خيرها ، وعجبية من عجائب الأسرار الإلهية التي لا ينتهي مددُ خيرها ، وكم تَرجمت عن مقامٍ عجز عن الترجمة عنه من سواها ، ورمزت برموز لا يفهمها إلا العارفون ، ولا يحوم حول حومة حماها إلا الربانيون ، الذين هم بين مواطن الشريعة الغراء وأحكام ظواهرها على أكمل ما ينبغي جامعون ، ولذلك كانوا بفضل مؤلفيها معترفين . . إلى أن قال : هذا وإنه قد طالع هذه الكتب أقوام عوام جهلة طغام ، فأدمنوا مطالعتها ، مع دقة معانيها ورقة إشاراتها وغموض مبانيها ، وبنائها على اصطلاح القوم السالمين عن المحذور واللوم ، وتوقف فهمها بكمالها على إتقان العلوم الظاهرة ، والتحلي بحقائق الأحوال والأخلاق الباهرة ، فلذلك ضَعُفَتْ أفهامهم ، وزَلَّتْ أقدامهم ، وفهموا منها خلاف المراد ، واعتقدوه صواباً فباؤوا بخسار يوم التناد ، وألحدوا في الاعتقاد ، وهوت بهم أفهامهم القاصرة إلى هفوة الحلول والاتحاد ، حتى لقد سمعتُ شيئاً من هذه المفاصد القبيحة ، والمكفرات الصريحة ، من بعض من أدمن مطالعة تلك الكتب ، مع جهله بأساليبها وعظم ما لها من

(١) حاشية ابن عابدين ٣٠٣/٣

الخطب . وهذا هو الذي أوجب لكثير من الأئمة الحط عليها ، والمبادرة بالإنكار إليها ، ولهم في ذلك نوع عذر ، لأن قصدهم فطم أولئك الجهلة عن تلك السموم القاتلة لهم ، لا الإنكار على مؤلفيها من حيث ذاتهم وحالهم^(١) .

وقال الشعراني رحمه الله تعالى : (وبالجملة فلا تحل قراءة كتب التوحيد الخاص ، وكتب العارفين إلا لعالم كامل ، أو من سلك طريق القوم . وأما من لم يكن واحداً من هذين الرجلين ، فلا ينبغي له مطالعة شيء من ذلك ، خوفاً عليه من إدخال الشبهة التي لا يكاد الفطن أن يخرج منها ، فضلاً عن غير الفطن ، ولكن من شأن النفس كثرة الفضول ، ومحبة الخوض فيما لا يعينها)^(٢) .

وقال الشيخ عبد الكريم الجيلي رحمه الله تعالى في كتابه الإنسان الكامل : (ثم ألتبس من الناظر في هذا الكتاب ، بعد أن أعلمه أنني ما وضعت شيئاً في هذا الكتاب إلا وهو مؤيد بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأنه إذا لاح له شيء من كلامه بخلاف الكتاب والسنة ، فليعلم أن ذلك من حيث مفهومه ، لا من حيث مرادي الذي وضعت الكلام لأجله ، فليتوقف عن العمل به مع التسليم ، إلى أن يفتح الله عليه بمعرفته ، ويحصل له شاهد ذلك من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .. إلى أن قال : واعلم أن كل علم لا يؤيده الكتاب والسنة فهو ضلالة ، لا لأجل ما لا تجد أنت له ما يؤيده ، فقد يكون العلم في نفسه مؤيداً بالكتاب والسنة ، ولكن قلة استعدادك منعك من فهمه ، فلم تستطع أن تتناوله بيدك من محله ، فتظن أنه غير مؤيد بالكتاب والسنة ، والطريق في هذا التسليم)^(٣) .

(١) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي المكي ص ٢١٦

(٢) التصوف الإسلامي والإمام الشعراني لطفه عبد الباقي سرور ص ١٠٤ ، ١٠٥

(٣) الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي ص ٥ . ويحذر القارئ من مطالعة هذا الكتاب لأن فيه كلمات مخالفة لعقيدة أهل السنة ، ولا تقبل التأويل بحال مع أنه قد ألف كتابه مؤيداً بالكتاب والسنة ، كما نص عليه مؤلفه في مقدمة كتابه . ونحن متأكدون أن الكثير مما فيه مفسوس عليه . . .

يتبين لنا من هذه النصوص التي نقلناها عن الفقهاء الأعلام والسادة الصوفية أمور أهمها :

أ- أنه لا يصح لغير السالك في طريق الصوفية ، أن يطالع كتبهم ، خشية أن يفهمها على غير حقيقتها ، وخلاف ما يريده مؤلفوها ؛ لأنه بعيد عن فهم اصطلاحاتهم ، ومعرفة إشاراتهم .

غير أن كتب الصوفية إجمالاً تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١- القسم الأول : يبحث عن تصحيح العبادات ، وحسن إقامتها بصورتها وروحها ، من الخشوع والحضور فيها مع الله تعالى ، مع مراعاة آدابها الظاهرة كذلك .

٢- القسم الثاني : يبحث في مجاهدة النفس وتزكيتها ، والقلب وأحواله ؛ من تخليته عن صفاته الناقصة كالشكوك والوساوس والرياء والحقد والغل والسمعة والجاه والحسد وغيرها من الصفات المذمومة . وتحليته بالصفات الكاملة كالطوبة والتوكل والرضا والتسليم والمحبة والإخلاص ، والصدق والخشوع والمراقبة وغيرها من الصفات الحسنة .

وهذان القسمان مذكوران في كتاب الإحياء للإمام الغزالي ، وقوت القلوب لأبي طالب المكي ، وأمثالهما . وتسمى هذه العلوم علومَ المعاملة .

٣- القسم الثالث : يبحث عن المعارف الربانية والعلوم الوهية والأذواق الوجدانية والحقائق الكشفية . ومعظم كتب الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى من هذا القسم ؛ كالفتوحات المكية والفصوص . وكذلك كتاب الإنسان الكامل للشيخ عبد الكريم الجيلي رحمه الله تعالى . وعلى أمثال هذه الكتب ينصبُّ التحذير من قراءتها لغير السالكين العارفين من الصوفية . وتسمى هذه العلوم علومَ المكاشفة .

ب - أن التصوف لا يُنال بقراءة الكتب ، ولا بمعرفة الاصطلاحات بل لابد من السلوك مع رجاله ومجالسة أهله . قال الشيخ الشعراني رحمه الله تعالى :

(سمعت سيدي علياً الخواص رضي الله عنه يقول : إياك أن تعتقد يا أخي إذا طالعت كتب القوم ، وعرفت مصطلحهم في ألفاظهم أنك صرت صوفياً ، إنما التصوف التخلق بأخلاقهم ، ومعرفة طرق استنباطهم لجميع الآداب والأخلاق التي تحلوا بها من الكتاب والسنة) ^(١).

ج - أن السادة الصوفية إنما وضعوا هذه الرموز والإشارات كي لا يأخذ علمهم إلا مَنْ سار في طريقهم . وقد بينا أن التصوف لا ينال بقراءة الأوراق ، بل بصحبة أهل الأذواق .

د - أن النصوص التي فيها الكفر والزيغ والمُرُوق من الدين مدسوسة على القوم حتماً ، لما رأيت من تمسكهم بالكتاب والسنة مما مر معك مِنْ نقول .

هـ - أن ما ثبت عنهم بالتأكيد ، ويمكن تأويله وحمله على وجه صحيح من عقيدة أهل الحق ؛ أهل السنة والجماعة ، وجب تأويله عليها ، لأنها هي عقيدتهم التي يعتقدونها ويصرحون بها ، ويثبتونها دائماً في مقدمات كتبهم كما هي سنتهم ، وانظر إن شئت مقدمة الرسالة الفشيرية ، والفتوحات المكية ، والتعرف لمذهب أهل التصوف ، وإحياء علوم الدين وغيرها من الكتب .

و - أن ما نسب إليهم مما لا يمكن تأويله على وجه صحيح ، إن صح عنهم فهو مردود على صاحبه ، لا نسلمه له ولا نعتقه ، بل نقول بكفر مُعْتَقِدِهِ ، ولكننا لا نكفر شخصاً معيناً ، لأننا لا ندري خاتمته ، ولأننا مسؤولون أولاً وآخرًا عن عقيدة أهل الحق ، أهل السنة والجماعة ، لا عن عقيدة أي إنسان آخر .

وإليك أيها القارئ الكريم بعض الأمثلة عن أمور وعبارات أنكروها الجاهلون ، فتحاملوا على الصوفية ووصموهم بالخروج عن الشريعة ، ولكنك

(١) لطائف المنن والأخلاق للشعراني ١٤٩/٢

حين تفهم مرادهم ، وتطلع على قصدهم ، يتبين لك أن إنكار المنكرين كان إما عن جهل وتسرع ، أو عن حسد وتحامل .

١- يقول الإمام الشعراني رحمه الله تعالى : (مما نُقِلَ عن القوم قولهم : [دخلنا حضرة الله ، وخرجنا عن حضرة الله] . ليس مرادهم بحضرة الله عز وجل مكاناً معيناً ، فإن ذلك ربما يفهم منه التحيُّزُ للحق ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وإنما مرادهم بالحضرة حيث أطلقوا شهود أحدهم أنه بين يدي ربه عز وجل ، فما دام يشهد أنه بين يدي ربه عز وجل فهو في حضرته ، فإذا حُجِبَ خرج عن حضرته) (١).

٢- وقال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى : (كنت ذات يوم مع بعض إخواني فأنشدت قائلاً :

يَا مَنْ يَرَانِي وَلَا أَرَاهُ كَمْ ذَا أَرَاهُ وَلَا يَرَانِي .

فقال ذلك الأخ الذي كان معي لما سمع هذا البيت : كيف تقول إنه لا يراك ، وأنت تعلم أنه يراك ؟ قال : فقلت مرتجلاً :

يَا مَنْ يَرَانِي مَذْنَبًا وَلَا أَرَاهُ آخِرًا ذَا .

كَمْ ذَا أَرَاهُ مِنْعَمًا وَلَا يَرَانِي لِأَثَرٍ ذَا . (٢)

٣- وقال الشعراني رحمه الله تعالى : (ومما نقل عن الغزالي أنه قال : [ليس في الإمكان أبدع مما كان] . ولعل مراده رضي الله تعالى عنه أن جميع الممكنات أبرزها الله على صورة ما كانت في علمه تعالى القديم ، وعلمه القديم لا يقبل الزيادة ، وفي القرآن العظيم : ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: ٥٠) . فلو صح أن في الإمكان أبدع مما كان ، ولم يسبق به علم الله تعالى للزم عليه تقدم جهل ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وهذا

(١) لطائف المنن والأخلاق للشعراني ١٢٧/١

(٢) كتاب النصر النبوية للشيخ مصطفى المدني على هامش الرائية ص ٨٢

هو معنى قول الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى في تأويل ذلك : إن كلام حجة الإسلام في غاية التحقيق ، لأنه ما ثمَّ إلا رتبتان : قَدَمٌ وحدوث ؛ فالحق تعالى له رتبة القَدَم ، والحادِث له رتبة الحدوث ، فلو خلق الله تعالى ما خلق إلى ما لا يتناهى عقلاً ، فلا يرقى عن رتبة الحدوث إلى رتبة القدم أبداً»^(١).

٤- وقال محمد أبو المواهب الشاذلي رحمه الله تعالى مؤولاً كلام أبي يزيد رحمه الله تعالى : [خضنا بحرًا وقفت الأنبياء بساحله] . (قلنا : خاض العارفون بحر التوحيد أولاً بالدليل ؛ وبعد ذلك وصلوا إلى مرتبة الشهود والعيان ، والأنبياء عليهم السلام وقفوا بأول وهلة على ساحل العيان ، ثم وصلوا إلى ما لا يعبر عنه بالعرفان . فكانت بدايتهم عليهم السلام نهاية العارفين)^(٢).

٥- ومما نقل عن أبي الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى قوله : [يصل الولي إلى رتبة يزول عنه فيها كلفة التكليف] . فأجاب أبو المواهب بقوله : (قلنا : يكون الولي أولاً يجد كلفة التعب ، فإذا وصل ، وجد بالتكليف الراحة والطرب ، من باب قوله ﷺ : « أرحنا بها يا بلال »^(٣) . ذلك مقصد الرجال)^(٤).

٦- ومن الكلمات التي لها تأويل شرعي صحيح كلمة [مدد] التي يُردِّدها بعض الصوفية ، فينادي بها أحدهم رسول الله ﷺ أو يخاطب بها شيخه . وحجة المعترض عليهم أن هذه الكلمة هي سؤال لغير الله واستعانة بسواه ولا يجوز السؤال إلا له ولا الاستعانة إلا به ؛ حيث قال الرسول ﷺ : « إذا

(١) «لطائف المنن والأخلاق» للشعراني ١٢٦/١

(٢) قوانين حكم الإشراف إلى كافة الصوفية في جميع الآفاق ، قانون الولاية الخاصة ص ٥٨

(٣) يا بلال أرحنا بالصلاة . رواه الإمام أحمد في مسنده . ورواه أبو داود في كتاب الأدب : باب في صلاة العتمة يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها عن سالم بن أبي الجعد

(٤) «قوانين حكم الإشراف» ص ٥٩

سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله»^(١) ، ثم إن الله تعالى بين في كتابه العزيز أنه هو مصدر الإمداد حين قال : ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ (الإسراء: ٢٠).

وقد جهل هؤلاء المعترضون أن السادة الصوفية هم أهل التوحيد الخالص ، الذين يأخذون بيد مريدتهم ليزيقيهم حلاوة الإيمان ، وصفاء اليقين ؛ ويخلصوهم من شوائب الشرك في جميع صوره وأنواعه .

ولتوضيح المراد من كلمة [مدد] نقول : لا بد للمؤمن في جميع أحواله أن تكون له نظرتان :

- نظرة توحيدية لله تعالى ، بأنه وحده مسبب الأسباب ، والفاعل المطلق في هذا الكون ، المنفرد بالإيجاد والإمداد ، ولا يجوز للعبد أن يشرك معه أحداً من خلقه ، مهما علا قدره أو سمت رتبته من نبي أو ولي .

- ونظرة للأسباب التي أثبتها الله تعالى بحكمته ، حيث جعل لكل شيء سبباً .
فالمؤمن يتخذ الأسباب ولكنه لا يعتمد عليها ولا يعتقد بتأثيرها الاستقلالي ، فإذا نظر العبد إلى السبب واعتقد بتأثيره المستقل عن الله تعالى فقد أشرك ، لأنه جعل الإله الواحد آلهة متعددين ، وإذا نظر للمسبب وأهمل اتخاذ الأسباب ، فقد خالف سنة الله الذي جعل لكل شيء سبباً . والكمال هو النظر بالعينين معاً ، فنشهد المسبب ولا نهمل السبب . ولتوضيح هذه الفكرة نسوق بعض الأمثلة عليها :

- إن الله تعالى وحده هو خالق البشر؛ ومع ذلك فقد جعل لخلقهم سبباً عادياً ، وهو التقاء الزوجين ، وتكوُّن الجنين في رحم الأم ، وخروجه منه في أحسن تقويم .

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . وقال : حديث حسن صحيح

- وكذلك فإن الله تعالى هو وحده المميت ؛ ولكنه جعل للإماتة سبباً هو ملك الموت ، فإذا لاحظنا المسبب قلنا : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ ﴾ (الزمر: ٤٢).

وإذا قلنا : إن فلاناً قد توفاه ملك الموت ، لا نكون قد أشركنا مع الله إلهاً آخر ؛ لأننا لاحظنا السبب ، كما بينه الله تعالى في قوله : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّنَا اللَّهُ ﴾ (السجدة: ١١) .

- وكذلك فإن الله تعالى هو الرزاق ، ولكنه جعل للرزق أسباباً عادية كالتجارة والزراعة . . فإذا لاحظنا المسبب في معرض التوحيد ، أدركنا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (الذاريات: ٥٨) . وإذا لاحظنا السبب وقلنا : إن فلاناً يرزق من كسبه ، لا نكون بذلك قد أشركنا ، فرسول الله ﷺ يقول : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده »^(١) . وقد جمع الرسول ﷺ بين النظرتين توضيحاً للأمر وبياناً للكمال في قوله : « وإنما أنا قاسم والله يعطي »^(٢) .

- وكذلك الأمر بالنسبة للإنعام ، ففي معرض التوحيد قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (النحل: ٥٣) . لأنه المنعم الحقيقي وحده . وفي معرض الجمع بين ملاحظة المسبب والسبب قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب: ٣٧) . فليس الرسول ﷺ شريكاً لله في عطائه ، وإنما سبقت النعم لزيد بن حارثة رضي الله عنه بسببه ﷺ ، فقد أسلم على يديه ، وأعتق بفضلته ، وتزوج باختياره . .

- وكذلك بالنسبة للاستعانة ، إذا نظرنا للمسبب قلنا : « إذا استعنت فاستعن بالله » . وإذا نظرنا للسبب قلنا : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ (المائدة: ٢) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب البيوع ، باب كسب الرجل وعمله بيده ، عن المقدم رضي الله عنه

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيراً ، عن معاوية رضي الله عنه

« والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »^(١). فإذا قال المؤمن لأخيه :
أَعْنِي عَلَى حَمْلِ هَذَا الْمَتَاعِ ؛ لَا يَكُونُ مُشْرِكًا مَعَ اللَّهِ تَعَالَى أَحَدًا أَوْ مُسْتَعِينًا
بِغَيْرِ اللَّهِ ، لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْظُرُ بَعَيْنَيْهِ ، فَيَرَى الْمُسَبَّبَ وَالسَّبَبَ ، وَكُلَّ مَنْ يَتَهَمُهُ
بِالشَّرْكِ فَهُوَ ضَالٌّ مُضِلٌّ .

- وهكذا الأمر بالنسبة للهداية ؛ إِذَا نَظَرْنَا لِلْمُسَبَّبِ ، رَأَيْنَا أَنَّ الْهَادِيَ هُوَ اللَّهُ
وَحْدَهُ ، لِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾
(القصص: ٥٦). وَإِذَا لَاحِظْنَا السَّبَبَ ، نَرَى قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ : ﴿ وَإِنَّكَ
لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى: ٥٢) . أَي تَكُونُ سَبَبًا فِي هِدَايَةِ مَنْ
أَرَادَ اللَّهُ هِدَايَتَهُ .

والعلماء العارفون المرشدون هم ورثة الرسول ﷺ في هداية الخلق
ودلائهم على الله تعالى . فإذا استرشد مريد بشيخه ، فَقَدْ اتَّخَذَ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ
الهداية التي أمر الله بها ، وَجَعَلَ لَهَا أُمَّةً يَدُلُّونَ عَلَيْهَا ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَايَتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة: ٢٤) . وَصَلَةُ
المريد هي صلة روحية ، لَا تَفْصِلُهَا الْمَسَافَاتُ وَلَا الْحَوَاجِزُ الْمَادِيَّةُ ، وَإِذَا
كَانَتِ الْجُدُرُ وَالْمَسَافَاتُ لَا تَفْصِلُ أَصْوَاتَ الْأَثِيرِ فَكَيْفَ تَفْصِلُ بَيْنَ الْأَرْوَاحِ
الْمُطْلَقَةِ؟! لِذَا قَالُوا : (شَيْخُكَ هُوَ الَّذِي يَنْفَعُكَ بَعْدَهُ كَمَا يَنْفَعُكَ قَرْبُهُ) وَبِمَا أَنَّ
الشَّيْخَ هُوَ سَبَبُ هِدَايَةِ الْمُرِيدِ ؛ فَإِنَّ الْمُرِيدَ إِذَا تَعَلَّقَ بِشَيْخِهِ ، وَطَلَبَ مِنْهُ الْمَدَدَ ،
لَا يَكُونُ قَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ تَعَالَى ، لِأَنَّهُ يَلَاظُ هُنَا السَّبَبَ ، كَمَا أَوْضَحْنَاهُ سَابِقًا ،
مَعَ اعْتِقَادِهِ أَنَّ الْهَادِيَ وَالْمُدِّ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَأَنَّ الشَّيْخَ لَيْسَ إِلَّا سَبَبًا ، أَقَامَهُ
اللَّهُ لِهِدَايَةِ خَلْقِهِ ، وَإِمْدَادِهِمُ بِالنَّفَحَاتِ الْقَلْبِيَّةِ ، وَالتَّوْجِيهَاتِ الشَّرْعِيَّةِ .
وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الْبَحْرُ الزَّاخِرُ الَّذِي يَسْتَمِدُّ مِنْهُ هَؤُلَاءِ الشُّيُوخُ وَعَنْهُ
يَصْدُرُونَ .

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الذِّكْرِ ، بَابُ فَضْلِ الْجَمْعِ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، عَنْ
أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

فإذا سلمنا بقيام الصلة الروحية بين المريـد وشيخه ، سلمنا بقيام المدد المترتب عليها ، لأن الله يرزق البعض بالبعض في أمر الدين والدنيا .

ولعل القارئ الكريم بعد هذا ، قد اكتفى بهذه الأمثلة من كلام القوم ، وبتلك النقول الصريحة من عباراتهم ، حتى إذا ما رأى كلاماً مشتبهاً يحتمل ويحتمل ، أحسن الظن بهم ، والتمس سبلاً لتأويل كلامهم بعد أن تبين له أن التأويل جائز في كلام الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وكلام الفقهاء والمحدثين والأصوليين والنحويين وغيرهم . ولهذا قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : (يحرم على كل عاقل أن يسيئ الظن بأحد من أولياء الله عز وجل ، ويجب عليه أن يؤول أقوالهم وأفعالهم مادام لم يلحق بدرجتهم ، ولا يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق)^(١)

وحدة الوجود والحلول والاتحاد

الحلول والاتحاد :

إن من أهم ما يتحامل به المغرضون على السادة الصوفية اتهامهم جهلاً وزوراً بأنهم يقولون بالحلول والاتحاد ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد حلَّ في جميع أجزاء الكون ؛ في البحار والجبال والصخور والأشجار والإنسان والحيوان . . إلخ ، أو بمعنى أن المخلوق عين الخالق ، فكل الموجودات المحسوسة والمشاهدة في هذا الكون هي ذات الله تعالى وعينه . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ولاشك أن هذا القول كفر صريح يخالف عقائد الأمة . وما كان للصوفية وهم المتحققون بالإسلام والإيمان والإحسان أن ينزلقوا إلى هذا الدرك من الضلال والكفر ، وما ينبغي لمؤمن منصف أن يرميهم بهذا الكفر جزأً دون

(١) البواقيت والجواهر ١١/١

تمحيص أو تثبت ، ومن غير أن يفهم مرادهم ، ويطلع على عقائدهم الحقّة التي ذكروها صريحة واضحة في أمّهات كتبهم ، كالفتوحات المكيّة ، وإحياء علوم الدين ، والرسالة القشيرية وغيرها . . ولعل بعض المغرضين المتحاملين على الصوفية يقولون : إن هذا القول بتمرّث السادة الصوفية من فكرة الحلول والاتحاد ، إنما هو تهرب من الواقع أو دفاع مغرض عن الصوفية بدافع التعصب والهوى ، فهلاًّ تأتون بدليل من كلامهم يبرئ ساحتهم من هذه التهم؟!...

فليبان الحقيقة الناصعة نورد نبذاً من كلام السادة الصوفية تثبت براءتهم مما اتُّهموا به من القول بالحلول والاتحاد ، وتحذيرهم الناس من الوقوع في هذه العقيدة الزائغة ، وتُظهر بوضوح أن ما نسب إليهم من أقوال تفيد الحلول أو الاتحاد إما مدسوسة عليهم ، أو مؤولة بما يلائم هذه النصوص الصريحة التالية الموافقة لعقيدة أهل السنة والجماعة .

يقول الشعراني رحمه الله تعالى : (ولعمري إذا كان عبّاد الأوثان لم يتجرؤوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله ؛ بل قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فكيف يُظنّ بأولياء الله تعالى أنهم يدعون الاتحاد بالحق على حدّ ما تتعقله العقول الضعيفة؟! هذا كالمحال في حقهم رضي الله تعالى عنهم ، إذ ما من وليٍ إلا وهو يعلم أن حقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق ، وأنها خارجة عن جميع معلومات الخلائق ، لأن الله بكل شيء محيط) ^(١).

والحلول والاتحاد لا يكون إلا بالأجناس ، والله تعالى ليس بجنس حتى يحلّ بالأجناس ، وكيف يحل القديم في الحادث ، والخالق في المخلوق؟! إن كان حلول عَرَض في جوهر فالله تعالى ليس عرضاً ، وإن كان حلول جوهر في جوهر فليس الله تعالى جوهرًا ، وبما أن الحلول والاتحاد بين المخلوقات محال ؛ إذ لا يمكن أن يصير رجلان رجلاً واحداً لتباينهما في الذات ؛ فالتباين

(١) اليواقيت والجواهر ٨٣/١

بين الخالق والمخلوق ، وبين الصانع والصنعة ، وبين الواجب الوجود والممكن الحادث أعظم وأولى لتباين الحقيقتين .

وما زال العلماء ، ومحققو الصوفية يبينون بطلان القول بالحلول والاتحاد ، وينبهون على فساد ، ويحذرون من ضلاله . قال الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله تعالى في عقيدته الصغرى : (تعالى الحق أن تحله الحوادث أو يحلها) ^(١).

وقال في عقيدته الوسطى : (اعلم أن الله تعالى واحد بالإجماع ، ومقام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء ، أو يحل هو في شيء ، أو يتحد في شيء) ^(٢). وقال في باب الأسرار : (لا يجوز لعارف أن يقول : أنا الله ، ولو بلغ أقصى درجات القرب ، وحاشا العارف من هذا القول حاشاه ، إنما يقول : أنا العبد الذليل في المسير والمقيل) ^(٣).

وقال في الباب التاسع والستين ومائة : (القديم لا يكون قط محلاً للحوادث ، ولا يكون حالاً في المحدث) ^(٤).

وقال في باب الأسرار : (من قال بالحلول فهو معلول ، فإن القول بالحلول مرض لا يزول ، وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد ، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول) ^(٥).

وقال في باب الأسرار أيضاً : (الحادث لا يخلو عن الحوادث ، ولو حل بالحادث القديم لصح قول أهل التجسيم ، فالقديم لا يحل ولا يكون محلاً) ^(٦). وقال في الباب التاسع والخمسين وخمسمائة بعد كلام طويل : (وهذا يدل على أن العالم ما هو عين الحق ، ولا حل فيه الحق ، إذ لو كان عين الحق ، أو حل فيه لما كان تعالى قديماً ولا بديعاً) ^(٧).

(١-٧) الفتوحات المكية للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ، كما في البواقيت والجواهر

وقال في الباب الرابع عشر وثلاثمائة : (لو صحَّ أن يرقى الإنسان عن إنسانيته ، والمَلَكُ عن ملكيته ، ويتحد بخالقه تعالى ، لصحَّ انقلاب الحقائق ، وخرج الإله عن كونه إلهًا ، وصار الحق خلقًا ، والخلق حقًا ، وما وثق أحد بعلم ، وصار المحال واجبًا ، فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبدًا) ^(١).

وكذلك جاء في شعره ما ينفي الحلول والاتحاد كقوله :

ودعْ مقالة قوم قال عالمهم بأنَّه بالإله الواحد اتَّحدا .
الاتحادُ مُحالٌ لا يقول به إلا جهولٌ به عن عقله شردًا .
وعن حقيقته وعن شريعته فاعبدُ إلهك لا تشرك به أحدًا .

وقال أيضًا في الباب الثاني والتسعين ومائتين : (من أعظم دليل على نفي الحلول والاتحاد الذي يتوهمه بعضهم ، أن تعلم عقلاً أن القمر ليس فيه من نور الشمس شيء ، وأن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها ، وإنما كان القمر محلاً لها ، فكذلك العبد ليس فيه من خالقه شيء ولا حل فيه) ^(٢).

قال صاحب كتاب نهج الرشاد في الرد على أهل الوحدة والحلول والاتحاد : (حدثني الشيخ كمال الدين المراغي قال : اجتمعت بالشيخ أبي العباس المرسي - تلميذ الشيخ الكبير أبي الحسن الشاذلي - وفأوضته في هؤلاء الاتحادية ، فوجدته شديد الإنكار عليهم ، والنهي عن طريقهم ، وقال : أتكون الصنعة هي عين الصانع؟! ^(٣)).

وأما ما ورد من كلام السادة الصوفية في كتبهم مما يفيد ظاهره الحلول والاتحاد ، فهو إما مدسوس عليهم ، بدليل ما سبق من صريح كلامهم في نفي هذه العقيدة الضالة . وإما أنهم لم يقصدوا به القول بهذه الفكرة الخبيثة والنحلة

(٢-١) الفتوحات المكية للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ، كما في اليواقيت والجواهر

٨١ ، ٨٠/١

(٣) الحاوي للفتاوي في الفقه وعلوم التفسير للعلامة جلال الدين السيوطي ١٣٤/٢

الدخيلة ، ولكن المغرضين حملوا المتشابه من كلامهم على هذا الفهم الخاطئ ، ورموهم بالزندقة والكفر .

أما الراسخون في العلم والمدققون المنصفون من العلماء فقد فهموا كلامهم على معناه الصحيح الموافق لعقيدة أهل السنة والجماعة ، وأدركوا تأويله بما يناسب ما عرف عن الصوفية من إيمان وتقوى .

قال العلامة جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه الحاوي للفتاوي : (واعلم أنه وقع في عبارة بعض المحققين لفظ الاتحاد ، إشارة منهم إلى حقيقة التوحيد ، فإن الاتحاد عندهم هو المبالغة في التوحيد ، والتوحيد معرفة الواحد والأحد ، فاشتبه ذلك على من لا يفهم إشاراتهم ، فحملوه على غير محمله ؛ فغلطوا وهلكوا بذلك . . إلى أن قال : فإذا أصل الاتحاد باطل محال ، مردود شرعاً وعقلاً وعرفاً بإجماع الأنبياء ومشايخ الصوفية وسائر العلماء والمسلمين ، وليس هذا مذهب الصوفية ، وإنما قاله طائفة غلاة لقلة علمهم وسوء حظهم من الله تعالى ، فشابهوا بهذا القول النصارى الذين قالوا في عيسى عليه السلام : اتَّحَدَ نَاسُوتُهُ بِبَلاهُوتِهِ ، وأما مَنْ حَفَظَهُ اللهُ تَعَالَى بِالْعَنَانَةِ ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَعتَقِدُوا اتِّحَادًا وَلَا حُلُولًا ، وَإِنْ وَقَعَ مِنْهُمْ لَفْظُ اتِّحَادٍ فَإِنَّمَا يَريدُونَ بِهِ مَحْوَ أَنْفُسِهِمْ ، وَإِثْبَاتَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ .

قال : وقد يُذَكَّرُ الاتحاد بمعنى فناء المخالفات ، وبقاء الموافقات ، وفناء حظوظ النفس من الدنيا ، وبقاء الرغبة في الآخرة ، وفناء الأوصاف الذميمة ، وبقاء الأوصاف الحميدة ، وفناء الشك ، وبقاء اليقين ، وفناء الغفلة وبقاء الذكر ، قال : وأما قول أبي يزيد البسطامي رحمه الله تعالى : [سبحاني ، ما أعظم شأنني] فهو في معرض الحكاية عن الله ، وكذلك قول من قال : [أنا الحق] محمول على الحكاية ، وَلَا يُظَنُّ بِهَؤُلَاءِ الْعَارِفِينَ الْحُلُولِ وَالْإِتِّحَادِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مَظْنُونٍ بِعَاقِلٍ ، فَضْلًا عَنِ الْمُتَمَيِّزِينَ بِخُصُوصِ الْمَكَاشِفَاتِ وَالْيَقِينِ

والمشاهدات ، ولا يُظَنُّ بالعقلاء المتميزين على أهل زمانهم بالعلم الراجح والعمل الصالح والمجاهدة وحفظ حدود الشرع الغلطُ بالحلول والاتحاد ، كما غلط النصارى في ظنهم ذلك في حق عيسى عليه السلام . وإنما حدث ذلك في الإسلام من واقعاتٍ جهلةٍ المتصوفة ، وأما العلماء العارفون المحققون فحاشاهم من ذلك . . إلى أن قال : والحاصل أن لفظ الاتحاد مشترك ، فيطلق على المعنى المذموم الذي هو أخو الحلول ، وهو كفر ، ويطلق على مقام الفناء اصطلاحاً اصطلاح عليه الصوفية ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، إذ لا يمنع أحد من استعمال لفظ في معنى صحيح ، لا محذور فيه شرعاً ، ولو كان ذلك ممنوعاً لم يجز لأحد أن يتفوه بلفظ الاتحاد ، وأنت تقول : بيني وبين صاحبي زيد اتحاد .

وكم استعمل المحدثون والفقهاء والنحاة وغيرهم لفظ الاتحاد في معانٍ حديثة وفقهية ونحوية .

كقول المحدثين : اتحد مخرج الحديث .

وقول الفقهاء : اتحد نوع الماشية .

وقول النحاة : اتحد العامل لفظاً أو معنى .

وحيث وقع لفظ الاتحاد من محققي الصوفية ، فإنما يريدون به معنى الفناء الذي هو محو النفس ، وإثبات الأمر كله لله سبحانه ، لا ذلك المعنى المذموم الذي يقشعر له الجلد . وقد أشار إلى ذلك سيدي علي بن وفا ، فقال من قصيدة له :

يُظَنُّوا بي حُلُولاً واتحاداً وقلبي من سوى التوحيد خالي .

فتبرأ من الاتحاد بمعنى الحلول ، وقال في أبياتٍ أخرى :

وعلمك أن كلَّ الأمرِ أمري هو المعنى المسمى باتحاد .

فذكر أن المعنى الذي يريدونه بالاتحاد إذا أطلقوه، هو تسليم الأمر كله لله، وترك الإرادة معه والاختيار، والجري على مواقع أقداره من غير اعتراض، وترك نسبة شيء ما إلى غيره^(١).

ونقل الشعراني عن سيدي علي بن وفا رحمهما الله تعالى قوله : (المراد بالاتحاد حيث جاء في كلام القوم فناء العبد في مراد الحق تعالى، كما يقال : بين فلان وفلان اتحاد، إذا عمل كل منهما بمراد صاحبه، ثم أنشد :
وعلمك أن كل الأمر أمري هو المعنى المسمى باتحاد^(٢).

وقال العلامة ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى في كتابه مدارج السالكين شرح منازل السائرين : (الدرجة الثالثة من درجات الفناء : فناء خواص الأولياء وأئمة المقربين، وهو الفناء عن إرادة السوى، شائماً برق الفناء عن إرادة ما سواه، سالماً سبيل الجمع على ما يحبه ويرضاه، فانياً بمراد محبوبه منه، عن مراده هو من محبوبه، فضلاً عن إرادة غيره، قد اتحد مراده بمراد محبوبه، أعني المراد الديني الأمري، لا المراد الكوني القدري، فصار المرادان واحداً . . ثم قال : وليس في العقل اتحاد صحيح إلا هذا، والاتحاد في العلم والخبر . فيكون المرادان والمعلومان والمذكوران واحداً مع تباين الإرادتين والعلمين والخبرين، فغاية المحبة اتحاد مراد المحب بمراد المحبوب، وفناء إرادة المحب في مراد المحبوب . فهذا الاتحاد والفناء هو اتحاد خواص المحبين وفناؤهم ؛ قد فنوا بعبادة محبوبهم، عن عبادة ما سواه، وبحب وخوفه ورجائه والتوكل عليه والاستعانة به والطلب منه عن حب ما سواه . ومن تحقق بهذا الفناء لا يحب إلا في الله، ولا يبغض إلا فيه، ولا يوالي إلا فيه، ولا يعادي

(١) الحاوي للفتاوي في الفقه وعلوم التفسير والحديث والأصول والنحو والإعراب وسائر الفنون للعلامة جلال الدين السيوطي صاحب التأليف الكثيرة المتوفى سنة ٩١١ هـ

(٢) اليواقيت والجواهر للشعراني ٨٣/١

إِلا فِيهِ ، وَلَا يُعْطِي إِلاَّ اللَّهَ ، وَلَا يَمْنَعُ إِلاَّ اللَّهَ ، وَلَا يَرْجُو إِلاَّ إِيَّاهُ ، وَلَا يَسْتَعِينُ إِلاَّ بِهِ ، فَيَكُونُ دِينُهُ كُلَّهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا لِلَّهِ ، وَيَكُونُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، فَلَا يُوَادُّ مِنْ حَادِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ الْخَلْقِ إِلَيْهِ ، بَلْ عَادِيَ الَّذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ جَمِيعًا وَلَوْ كَانَ الْحَبِيبَ الْمَصَافِيَا .

وحقيقة ذلك فناؤه عن هوى نفسه ، وحظوظها بمراضى ربه تعالى وحقوقه ، والجامع لهذا كله تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله علمًا ومعرفة وعملاً وحالًا وقصدًا ، وحقيقة هذا النفي والإثبات الذي تضمنته هذه الشهادة هو الفناء والبقاء ، فيفنى عن تأله ما سواه علمًا وإقرارًا وتعبدًا ، ويبقى بتأله وحده ، فهذا الفناء وهذا البقاء هو حقيقة التوحيد ، الذي اتفق عليه المرسلون صلوات الله عليهم ، وأنزلت به الكتب ، وخلقت لأجله الخليقة ، وشرعت له الشرائع ، وقامت عليه سوق الجنة ، وأسس عليه الخلق والأمر . . إلى أن قال : وهذا الموضع مما غلط فيه كثير من أصحاب الإرادة ، والمعصوم من عصمه الله ، وبالله المستعان والتوفيق والعصمة^(١) .

وقال في موضع آخر : (وإن كان مشمرًا للفناء العالي ، وهو الفناء عن إرادة السوى ، لم يبق في قلبه مرادٌ ، يزاحم مراده الديني الشرعي النبوي القرآني ، بل يتحد المرادان ؛ فيصير عين مراد الرب تعالى هو عين مراد العبد ، وهذا حقيقة المحبة الخالصة ، وفيها يكون الاتحاد الصحيح ، وهو الاتحاد في المراد ، لا في المريد ولا في الإرادة^(٢)) .

ورغم أن ابن تيمية مخاصم للسادة الصوفية ، وشديد العداوة لهم ، فإنه يبرئ ساحتهم من تهمة القول بالاتحاد ، ويؤول كلامهم تأويلًا صحيحًا سليمًا . أما تبرئته لساحتهم ، فقد قال في فتاويه : (ليس أحد من أهل المعرفة بالله ، يعتقد حلول الرب تعالى به أو بغيره من المخلوقات ، ولا اتحاده به ، وإن

(٢٠١) مدارج السالكين شرح منازل السائرين ١/٩٠ ، ٩١ للعلامة الشهير ابن قيم الجوزية المتوفى ٧٥١ هـ

سُمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ فكثير منه مكذوب ، اختلقه الأفاكون من الاتحادية المباحية ، الذين أضلهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية^(١) .

وقال أيضاً : (كل المشايخ الذين يُقْتَدَى بهم في الدين متفقون على ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من أن الخالق سبحانه مبين للمخلوقات ، وليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، وأنه يجب إفراد القديم عن الحادث ، وتمييز الخالق عن المخلوق ، وهذا في كلامهم أكثر من أن يمكن ذكره هنا)^(٢) .

وأما تأويله لكلامهم فقد قال في مجموعة رسائله : (وأما قول الشاعر في شعره :

أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا .

فهذا إنما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوي ، كاتحاد أحد المحبين بالآخر ، الذي يحب أحدهما ما يحب الآخر ، ويبغض ما يبغضه ، ويقول مثل ما يقول ، ويفعل مثل ما يفعل ؛ وهذا تشابه وتماثل ، لا اتحاد العين بالعين ، إذا كان قد استغرق في محبوبه ، حتى فني به عن رؤية نفسه ، كقول الآخر :

غَبْتُ بِكَ عَنِّي فَظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنِّي .

فهذه الموافقة هي الاتحاد السائغ)^(٣) .

من هذه النصوص المتعددة تبين لنا أن كل ما ورد في كلام السادة الصوفية من كلمة [اتحاد] إنما يراد بها هذا الفهم السليم الذي يوافق عقيدة أهل السنة والجماعة ، ولا يصح أن نحمل كلامهم على معان تخالف ما صرحوا به من

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية قسم التصوف ٧٤/١١ ، ٧٥

(٢) المرجع السابق قسم علم السلوك ٢٢٣/١٠

(٣) مجموع رسائل ابن تيمية ص ٥٢

تبنيهم لعقيدة أهل السنة والجماعة ، وما على المنصف إلا أن يحسن الظن بالمؤمنين ، ويؤول كلامهم على معنى شرعي مستقيم .

وحدة الوجود

اختلف علماء النظر في موقفهم من العارفين المحققين القائلين بوحدة الوجود ، فمنهم من تسرع باتهامهم بالكفر والضلال ، وفهم كلامهم على غير المراد ، ومنهم من لم يتورط بالتهجم عليهم ، فتثبت في الأمر ورجع إليهم ليعرف مرادهم ؛ لأن هؤلاء العارفين مع توسعهم في هذه المسألة لم يبحثوا فيها بحثاً يزيل إشكال علماء النظر ، لأنهم تكلموا في ذلك ودونوا لأنفسهم وتلاميذهم لا لمن لم يشهد تلك الوحدة من غيرهم ، لذلك احتاج الأمر للإيضاح لتطمئن به قلوب أهل التسليم من علماء النظر .

ومن العلماء الذين حققوا في هذه المسألة ، وفهموا المراد منها السيد مصطفى كمال الشريف ، حيث قال : (الوجود واحد ، لأنه صفة ذاتية للحق سبحانه وتعالى ، وهو واجب فلا يصح تعدده ، والموجود هو الممكن ، وهو العالم فصح تعدده باعتبار حقائقه ، وقيامه إنما هو بذلك الوجود الواجب لذاته ، فإذا زال بقي الوجود كما هو ، فالموجود غير الوجود ، فلا يصح أن يقال الوجود اثنان : وجود قديم ووجود حادث ، إلا أن يراد بالوجود الثاني الموجود من إطلاق المصدر على المفعول ، فعلى هذا لا يترتب شيء من المحاذير التي ذكرها أهل النظر على وحدة الوجود القائل بها أهل التحقيق . . إلى أن قال : الحس لا يرى إلا الهياكل أي الموجود ، والروح لا تشهد إلا الوجود ، وإذا شهدت الموجود فلا تشهده إلا ثانياً ، على حد من قال : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله ، وأراد بهذه الرؤية الشهود لا رؤية البصر ، لأن الرؤية من خصائص البصر ، والشهود من خصائص البصيرة ، لذلك ورد : أشهد أن لا إله إلا الله ، ولم يرد أرى ؛ بل ولا يصح أن يقال : أرى^(١) .

(١) رسالة وحدة الوجود للعلامة مصطفى كمال الشريف ص ٢٧ ، ٢٨

وهكذا شأن العلماء المنصفين ، يغارون على الشريعة الغراء ، ويتثبتون في الأمور ، دون أن يتسرعوا بتكفير أحد من المؤمنين ، ويرجعون في فهم كل حقيقة إلى أهل الاختصاص بها .

ونظراً لأن مسألة وحدة الوجود أخذت حظاً كبيراً من اهتمام بعض العلماء ، وشغلت أذهان الكثير منهم ، أردنا أن نزيد الموضوع إيضاحاً وتبسيطاً خدمة للشريعة وتنويراً للأفهام فنقول :

إن الوجود نوعان : وجود قديم أزلي ؛ وهو واجب ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ (الحج: ٦٢) . أي الثابت الوجود ، المحقق .

ووجود جائز عرضي ممكن ، وهو وجود من عده من المحدثات .

وإن القول بوحدة الوجود ، وأن الوجود واحد هو الحق تعالى يحتمل معنيين : أحدهما حق ، والثاني كفر ، ولهذا فalcائلون بوحدة الوجود فريقان :

١- الفريق الأول : أرادوا به اتحاد الحق بالخلق ، وأنه لا شيء في هذا الوجود سوى الحق ، وأن الكل هو ، وأنه هو الكل ، وأنه عين الأشياء ، وفي كل شيء له آية تدل على أنه عينه . فقلوه هذا كفر وزندقة وأشد ضلالة من أباطيل اليهود والنصارى وعبدية الأوثان .

وقد شدد الصوفية النكير على قائله ، وأفتوا بكفره ، وحذروا الناس من مجالسته . قال العارف بالله أبو بكر محمد بناني رحمه الله تعالى : (فاحذر يا أخي كل الحذر من الجلوس مع من يقول : ما ثمَّ إلا الله ، ويسترسل مع الهوى ، فإن ذلك هو الزندقة المحضة ، إذ العارف المحقق إذا صح قدمه في الشريعة ، ورسخ في الحقيقة ، وتَفَوَّهَ بقوله : ما ثمَّ إلا الله ، لم يكن قصده من هذه العبارة إسقاط الشرائع وإهمال التكاليف ، حاش لله أن يكون هذا قصده)^(١) .

(١) مدارج السلوك إلى ملك الملوك للعارف الكبير محمد بناني المتوفى ١٢٨٤هـ

٢- الفريق الثاني : قالوا ببطلان وكفر ما ذُكرَ ؛ من أن الخالق عين المخلوق ، وإنما أرادوا بوحدة الوجود وحدة الوجود القديم الأزلي ، وهو الحق سبحانه ، فهو لاشك واحد منزّه عن التعدد ، ولم يقصدوا بكلامهم الوجود العرضي المتعدد ، وهو الكون الحادث ، نظراً لأن وجوده مجازي ، وفي أصله عَدَمِيٌّ لا يضر ولا ينفع . فالكون معدوم في نفسه ، هالك فان في كل لحظة . قال تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (القصص: ٨٨) . وإنما يُظهره الإيجاد ، ويثبتُه الإمداد . الكائنات ثابتة بإثباته ، وممحوة بأحدية ذاته ، وإنما يُمْسكه سر القيومية فيه . وهؤلاء قسمان :

١- قسم أخذ هذا الفهم بالاعتقاد والبرهان ، ثم بالذوق والعيان ، وغلب عليه الشهود ، فاستغرق في لُجج بحار التوحيد ، ففني عن نفسه فضلاً عن شهود غيره ، مع استقامته على شرع الله تعالى وهذا قوله حق .

٢- وقسم ظن أن ذلك علم لفظي ، فتوغل في تلاوة عباراته ، وتمسك بظواهر إشاراته ، وغاب في شهودها عن شهود الحق ، فربما هانت الشريعة في عينيه ، لما يلتذ به من حلاوة تلك الألفاظ ، فيقع على أم رأسه ، ويتكلم بما ظاهره أن الشريعة في جهة يختص بها أهل الغفلة ، والحقيقة في جهة أخرى يختص بها أهل العرفان ، ولعمري إن هذا لهو عين الزور والبهتان ، وما نَمَّ إلا شريعة ومقام إحسان .

وعلى كلِّ فالأولى بالصوفي في هذا الزمان أن يبتعد عن الألفاظ والتعابير التي فيها إيهام أو غموض أو اشتباه . . . لئلا يوقع الناس بسوء الظن به ، أو تأويل كلامه على غير ما يقصده ، ولأن كثيراً من الزنادقة والدخلاء على الصوفية قد تكلموا بمثل هذه العبارات الموهمة والألفاظ المتشابهة ، ليُظهروا ما يُكنُونَه في قلوبهم من عقائد فاسدة ، وليصلوا بذلك إلى إباحة المحرمات ، وليبرروا ما يقعون فيه من المنكرات والفواحش ، فاختلط الحق بالباطل ، وأخذ المؤمن الصادق بجريرة الفاسق المنحرف .

لهذا سيجَّ الصوفية بواطنهم وظواهرهم بالشرعية الغراء ، وأوصوا تلامذتهم بالتمسك بها قولاً وعملاً وحالاً ، فهي عندهم باب الدخول وسلم الوصول ، ومن حاد عنها كان من الهالكين . . . [أما ما ثبت من كلام أعلام الصوفية مما فيه غموض أو اشتباه فمرده أحد سببين :

أ- إما لأنهم التزموا اصطلاحات ورموزاً وإشارات لا يفهمها غيرهم كما أشرنا إلى ذلك في بحث التأويل .

ب - وإما لأنهم تكلموا بها في حالات الغلبة والشطح ، ولذلك لا يجوز لمن لم يذق مذاقهم ولم يبلغ مراتبهم أن يقلدهم في هذه العبارات ويتشدد بها أمام الناس] .

وختاماً نقول : إن تلك النقول عن العلماء الأعلام ، وعن الصوفية أنفسهم ، تكشف للقارئ الكريم أن الصوفية مبرؤون مما نسب إليهم من القول بالحلول والاتحاد ، ووحدة الوجود ، وأن كلامهم مؤول على وجه شرعي ، وموافق لما عليه أهل السنة والجماعة ، من العقيدة الصحيحة السليمة ، وأنهم ما نالوا هذه المواهب العرفانية إلا بالتمسك بالكتاب والسنة ، وأنهم حقيقة رجال السلف الصالح - رضي الله عنهم - الذين تمسكوا بهدي رسول الله ﷺ ، فأفلحوا وتحققوا بالاتباع الكامل له عليه الصلاة والسلام ، فنالوا الرضى من الله تعالى ، وفازوا بسعادة الدارين . ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء: ٦٩) .

بين الصوفية وأدعياء التصوف

لقد شوه التصوف رجال مغرضون تزويواً بزيه ، وانتسبوا له ، فأساءوا إليه بأقوالهم وأفعالهم وسيرتهم ، والتصوف منهم براء .

فمن أجل خدمة الحق وإظهاره علينا أن نفرق بين ادعاء التصوف المنحرفين ، وبين السادة الصوفية الصادقين العارفين ، وخصوصاً الأئمة منهم الذين كانت لهم درجات عليا في الإيمان والتقوى والورع ، وآثار كبرى في نشر الأخلاق والدين والدعوة إلى الله تعالى في سائر العصور والبلدان ، وعلينا أن نقف وقفة رجل متمسك بشرعه ودينه ونقول : هناك فرق كبير بين التصوف والصوفي ، وليس المتصوف بانحرافه وشذوذه ممثلاً للتصوف ، كما أن المسلم بأفعاله المنكرة ليس ممثلاً لإسلامه ودينه .

ومتى كان في شريعة الحق والدين أن يؤاخذ الجار بظلم الجار؟ وأن يتحمل الإسلام في جوهره النقي أخطاء المسلمين المنحرفين؟ وأن تنسب إلى هذه الفئة الطيبة النقية أخطاء المتصوفة الشاذين؟ .

وإنكار بعض العلماء على أفعال شاذة منسوبة إلى الصوفية إنما يستهدف هؤلاء الغلاة المنحرفين من ادعاء التصوف ، ولطالما حذر مرشدو الصوفية الناس منهم . قال الشيخ أحمد زروق رحمه الله تعالى في كتابه قواعد التصوف : (فعلاة المتصوفة كأهل الأهواء من الأصوليين ، وكالمطعون عليهم من المتفقهين ، يُردُّ قولهم ، ويُجتنب فعلهم ، ولا يُترك المذهب الحق الثابت بنسبتهم له وظهورهم فيه) ^(١) إلخ .

إن الخير والشر موجود في كل طائفة من الناس إلى يوم القيامة ، فليس كل الصوفية سواء ، كما أنه ليس كل العلماء والفقهاء والمدرسين والقضاة والتجار والأمراء سواء ؛ إذ فيهم الصالح وفيهم الأصلح ، وفيهم الفاسد وفيهم الأفسد ، هذا أمر ظاهر لا شبهة فيه عند الجمهور اعرف الحق تعرف أهله ، ويعرف الرجال بالحق لا الحق بالرجال .

(١) قواعد التصوف للشيخ أحمد زروق قاعدة ٣٥ ، ص ١٣

ونحن ننكر ما أنكره العلماء على هؤلاء الأدعياء من المتصوفة المنحرفين ،
الشاذين عن دين الله تعالى ، وأما المتمسكون بالكتاب والسنة ، المستقيمون
على شرع الله تعالى فهم الذين نَعْنِيهم ، ونقتفي أثرهم ، وسنعرض لك في
الفصل التالي شهادة علماء الأمة الإسلامية من سلفها إلى خلفها بهم .

منهجي في الشرح :

- ١ - اعتمدت على طبعة دار طويق^(١) لرسالة - الثلاثة الأصول وأدلتها - .
 - ٢ - تفسير الآيات القرآنية الكريمة .
 - ٣ - شرح الأحاديث النبوية الصحيحة .
 - ٤ - اعتمدت في تفسير الآيات القرآنية^(٢) على كتاب : «البحر المديد في تفسير القرآن المجيد» لابن عجيبة الحسني المالكي .
 - ٥ - اعتمدت في شرح الأحاديث النبوية الصحيحة على الكتب الآتية :
 - دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان الصديقي الشافعي .
 - فيض القدير شرح الجامع الصغير لمحمد بن عبد الرؤوف المناوي الشافعي .
 - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي القاري الحنفي .
 - جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب الدمشقي الحنبلي .
 - ٦ - عَزَوْتُ الآيات القرآنية إلى سورها .
 - ٧ - خَرَجْتُ الأحاديث النبوية من مصادرها .
- أسأل الله العظيم أن ينفع به الإسلام والمسلمين ، وأن يتقبله خالصاً لوجهه
الكريم .

(١) الرياض - المملكة العربية السعودية الطبعة الثالثة ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م .

(٢) في السياق القرآني .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب^(١) :
 اعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل :
 الأولى : العلم ، وهو معرفة الله ، ومعرفة نبيه ، ومعرفة دين الإسلام
 بالأدلة .

الثانية : العمل به .

الثالثة : الدعوة إليه .

الرابعة : الصبر على الأذى فيه .

والدليل قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرَ ۖ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۖ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۖ ﴾ (العصر: ١-٣)

التفسير :

قال ابن عجيبة^(٢) :

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ وَالْعَصْرَ ۖ ﴾ أقسم تعالى بصلاة العصر لفضلها

(١) هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (١١١٥-١٢٠٦هـ - ١٧٠٣م) : زعيم النهضة الدينية الإصلاحية الحديثة في جزيرة العرب . ولد ونشأ في العيينة (بنجد) ورحل مرتين إلى الحجاز ، فمكث في المدينة مدة قرأ بها على بعض أعلامها ، وزار الشام ، ودخل البصرة فأوذي فيها ، وعاد إلى نجد ، فسكن (حريملاء) وكان أبوه قاضياً بعد العيينة ، ثم انتقل إلى العيينة ، ناهجاً منهج السلف الصالح ، داعياً إلى التوحيد الخالص ونبذ البدع وتحطيم ما علق بالإسلام من أوهام . وله مصنفات أكثرها رسائل مطبوعة ، منها (كتاب التوحيد) ورسالة (كشف الشبهات) و(أصول الإيمان) و (معرفة العبد ربه ودينه ونبيه)، و(فضل الإسلام). انظر : خير الدين الزركلي «الأعلام» (٢٥٧/٦) .

(٢) هو أحمد بن محمد بن المهدي ، ابن عجيبة ، الحسيني الأنجري (١١٦٠-١٢٢٤هـ - ١٧٤٧-١٨٠٩م) : مفسر صوفي مشارك من أهل المغرب دفن ببلدة أنجرة (بين طنجة وتطوان) له كتب كثيرة ، منها (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد) ، و(أزهار البستان) بالخزانة الزيدانية بمكناس ، لم يتمه ، في طبقات الأعيان المالكية ، و(شرح القصيدة المنفرجة) و(شرح صلوات ابن مشيش) و(تبصرة الطائفة الزرقاوية) و(الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية) و(الفتوحات القدوسية في شرح المقدمة الآجرومية) جمع فيه بين النحو والتصوف ، و(إيقاظ الهمم في شرح الحكم). انظر : خير الدين الزركلي «الأعلام» (٢٤٥/١) .

الباهر ، إذ قيل : هي الصلاة الوسطى ، أو : بالعشي الذي هو ما بين الزوال والغروب ، كما أقسم بالضحى ، أو بعصر النبوة ، لظهور فضله على سائر الأعصار ، أو بالدهر مطلقاً ؛ لانطوائه على تعاجيب الأمور النافعة والضارة ، وجوابه : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ؛ لفي خسران في متاجرهم ومساعيهم ، وصرف أعمارهم في حظوظهم وأمانهم . ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا ، فربحوا وسعدوا ، أو : فإنهم في تجارة لن تبور ، حيث باعوا الفاني الخسيس ، وآثروا الباقي النفيس ، واستبدلوا الباقيات الصالحات بالعاديات الرائحات ، فيا لها من صفقة ما أربحها ! وهذا بيان لتكميلهم لأنفسهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ بيان لتكميلهم لغيرهم ، أي : وصى بعضهم بعضاً بالأمر الثابت ، الذي لا سبيل إلى إنكاره ، ولا زوال في الدارين لمحاسن آثاره ، وهو الخير كله ، من الإيمان بالله عز وجل ، واتباع كتبه ورسله في كل عقد وعمل ، ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ عن المعاصي التي تساق إليها النفس الأمارة ، وعلى الطاعة التي يشق عليها أداؤها ، وعلى البلية التي تتوجه إليه من جهة قهريته تعالى ، وعلى النعمة بالقيام بتمام شكرها ، وتخصيص هذا التواصي بالذكر ، مع اندراجه تحت التواصي بالحق ؛ لإبراز كمال الاعتناء به ، أو : لأن الأول عبارة عن رتبة العبادة ، التي هي فعل ما يرضي الله عز وجل ، والثاني عن العبودية التي هي الرضا بما فعل الله تعالى ، فإن المراد ليس مجرد حبس النفس عما تتوق إليه من فعل وترك ، بل هو تلقي ما يرد منه تعالى بالجميل والرضا ظاهراً وباطناً . قاله أبو السعود .

الإشارة : والعصر ، أي : عصر الذاكرين ، إن الإنسان لفي خسر ، حيث احتجب عن ربه بنفسه وبرؤية وجوده ، إلا الذين آمنوا بإيمان الخصوص ، وعملوا عمل الخصوص ، وهو خرق العوائد واكتساب الفوائد ، حتى وصلوا إلى كشف الحجاب ، فلم يروا مع الله غيره ، غابوا عن أنفسهم ، وعن وجودهم ووجود غيرهم ، في شهود محبوبهم ، فلما تكملوا اشتغلوا بتكميل غيرهم ،

كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ أي : بفعل الحق ، وهو ما يثقل على النفس ، حتى لا يثقل عليها شيء ، أو بالإقبال على الحق ، وتواصوا على مشاق السير ، ثم على عكوف الهم في حضرة الحق . وبالله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلم .^(١)

قال الشافعي رحمه الله تعالى : لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم .

وقال البخاري رحمه الله تعالى : باب العلم قبل القول والعمل ، والدليل قوله تعالى : ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ ﴾ (محمد: ١٩)^(٢)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أي : إذا علمت أن مدار السعادة ، والفوز بالنعيم في دار البقاء هو التوحيد والطاعة ، ومناط الشقاء والخسران في دار الهوان هو الإشراك والعصيان ، فاثبت على ما أنت عليه من التوحيد ، واعلم أنه لا إله في الوجود إلا الله ، فلا يستحق العبادة غيره ، ﴿ وَاسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ ﴾ وهو ما قد يصدر منه ﷺ من خلاف الأولى ، عبّر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل ، كيف لا ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين؟ فكل مقام له آداب ، فإذا أخلّ بشيء من آدابه أمر بالاستغفار ، فلمقام الرسالة آداب ، ولمقام الولاية آداب ، ولمقام الصلاح آداب ، وضعف العبودية لا يقوم بجميع حقوق الربوبية ، قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (الزمر: ٦٧)، وبالجمل ، فالقيام بالآداب مع الله - تعالى - على ما يستحقه - سبحانه - حتى يحيط العبد بجميع الآداب مع عظمة الربوبية محال عادة ، قال ﷺ مع جلالة

(١) تفسير البحر المديد ٨/ ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(٢) تمام الآية : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ (محمد: ١٩) .

منصبه : (لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ)^(١) فكل ما قَرُبَ العبد من الحضرة شُدَّ عليه في طلب الأدب ، فإذا أخذته سِنَةٌ أُمِر بالاستغفار ، ولذلك (كان ﷺ يستغفر في المجلس سبعين مرة ، أو مائة ، على ما في الأثر)^(٢).

وقال شيخ شيوخوا ، سيدي عبد الرحمن الفاسي ، بعد كلام : والحق أن استغفاره ﷺ طلب ثبات المغفرة والستر من الوقوع ، لا طلب العفو بعد الوقوع ، وقد أخبره تعالى بأنه فعل . وقد يُقال : استغفار تعبّد لا غير . قال : والذي يظهر لي أن أمره بالاستغفار مع وعد الله بأنه مغفور له إشارة إلى الوقوف مع غيب المشيئة ، لا مع الوعد ، وذلك حقيقة ، والوقوف مع الوعد شريعة . وقال الطيبي : إذا تيقنت أن الساعة آتية ، وقد جاء أشراطها ، فخذ بالأهم فالأهم ، والأولى فالأولى ، فتمسك بالتوحيد ، ونزه الله عما لا ينبغي ، ثم طهر نفسك بالاستغفار عما لا يليق بك ، من ترك الأولى ، فإذا صرت كاملاً في نفسك فكن مكماً لغيرك ، فاستغفر ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (محمد: ١٩) اهـ . أي : استغفر لذنوبهم ، بالدعاء لهم ، وترغيبهم فيما يستدعي غفران ذنوبهم ، وفي إعادة الجار تنبيهه على اختلاف متعلقه إذ ليس موجب استغفاره ﷺ كموجب استغفارهم ، فسيئاته - عليه السلام - فرضاً - حسناتهم . وفي حذف المضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه - أي : ولذنب المؤمنين - إشعار بعراقتهم في الذنوب ، وفرط افتقارهم إلى الاستغفار . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ (محمد: ١٩) أي : يعلم متقلبكم في الدنيا ، فإنها مراحل لا بد من قطعها ، ويعلم مثواكم في العقبى فإنها مواطن إقامتكم ، فلا يأمركم إلا بما هو خير لكم فيهما ، فبادروا إلى الامتثال لما أمركم به ، فإنه المهم لكم ، أو : يعلم متقلبكم :

(١) صحيح مسلم (٤٨٦) .

(٢) المصدر السابق (٢٧٠٢) .

في معاشكم ومتاجركم ، ومثواكم : حيث تستقرون في منازلكم ، أو متقلبكم : في حياتكم ، ومثواكم : في القبور ، أو : متقلبكم : في أعمالكم الحسنة أو السيئة ، ومثواكم : من الجنة أو النار ، أو : يعلم جميع أحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها ، فمثله حقيق بأن يخشى ويتقى ويستغفر .

الإشارة: قال القشيري: قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ، وكان عالماً ، ولكن أمره باستدامة العلم واستزادته ، وذلك في الثاني من حاله في ابتداء العلم ، لأن العلم أمر ، ولا يجوز البقاء على الأمر الواحد ، فكل لحظة يأتي فيها علم . ويقال : كان له علم اليقين ، فأمر بعين اليقين ، أو : كان له عين اليقين ، فأمر بحق اليقين . ويقال : قال ﷺ : (أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له)^(١) فنزلت الآية ، أي : أمر بالتواضع . وهنا سؤال : كيف قال : « فأعلم » ولم يقل ﷺ بعد : علمت ، كما قال إبراهيم حين قال له : ﴿ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ ﴾ (البقرة: ١٣١) ويُجاب : بأن الله تعالى أخبر عنه بقوله : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ ﴾ (البقرة: ٢٨٥) والإيمان هو العلم ، فإخبار الحق - تعالى - عنه أتم من إخباره عن نفسه بقوله : علمته . ويقال : إبراهيم عليه السلام لما قال : (أَسْلَمْتُ) ابتلي ، ونبينا ﷺ لم يقل علمت ، فعوفي ، ويقال : فرق بين موسى ، لما احتاج إلى زيادة العلم أُحيل على الخضر ، ونبينا ﷺ قال له : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه: ١١٤)

(١) في مسند الإمام أحمد (٢٥٢٦٧) : حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا أبو نوح أنا مالك ابن أنس عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر عن أبي يونس عن عائشة قالت : سأل رجل رسول الله ﷺ وهو قائم على الباب وأنا أسمع قال : أصبح جنباً وأنا أريد الصوم ، قال النبي ﷺ : إني أصبح جنباً ، وأنا أريد الصوم ، قال الرجل : إني لست كمثلك أنت غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فغضب النبي ﷺ فقال : « إني أرجو أن أكون أخشاكم للرب عز وجل وأعلمكم بما اتقى » . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح .

فكم بين مَنْ أُحِيلَ في استزادة العلم على عبد ، وبين مَنْ أمر باستزادة العلم من الحق . ويقال : إنما أمره بقوله : (فَاعْلَمْ) بالانقطاع إليه من الحظوظ من الخلق ، ثم بالانقطاع منه إليه ، وإذا قال العبد هذه الكلمة على العادة ، والغفلة عن الحقيقة ، وهي نصف البيان فليس لهذا القول كبير قيمة ، وهذا إذا تعجب من شيء فذكر هذه الكلمة ، فليس له قدرٌ ، وإذا قاله مخلصاً ذاكرةً لمعناها ، متحققاً بحقيقتها ، فإن قاله بنفسه فهو في وطن التفرقة ، وعندهم هذا من الشُّركِ الخفي ، وإن قاله بالحق فهو إخلاص ، والعبد أولاً يعلم ربه بدليل وحُجة ، فعلمه بنفسه ضروري ، وهو أصل الأصول ، وعليه ينبني كل علم استدلالي ، ثم تزداد قوة علمه بزيادة البيان ، وزيادة الحجج ، ويتناقض علمه بنفسه لغلبة ذكر الله بقلبه عليه ، فإذا انتهى لحال المشاهدة ، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه ، صار علمه في تلك الحالة ضرورياً ، ويقل إحساسه بنفسه ، حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلال ، وكأنه غافلٌ عن نفسه ، أو ناسٍ لنفسه ، ويقال : الذي في البحر غلب عليه ما يأخذه من الرؤية عن ذكر نفسه ، فإذا ركب البحر فرّ من هذه الحالة ، فإذا غرق في البحر فلا إحساس له بشيء سوى ما هو مستغرق فيه مستهلك اهـ . قلت : لا مدخل للحجج هنا ، وإنما هو أذواق وكشوفات ، فالصواب أن يقول : ثم تزداد قوة علمه ، بزيادة الكشف والذوق ، حتى يغيب عن وجوده ، بشهود معبوده ، فيتناقض علمه ، فيصير علمه بالله ضرورياً ، وعلمه بعدم وجوده ضرورياً ، والله تعالى أعلم . وقوله تعالى : ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ﴾ قال الورتجبي عن الجنيد: أي : أعلم حقيقة أنك بنا ولنا وبنا ، علمتنا ، وإياك أن ترى نفسك في ذلك ، فإن خطر بك خاطر غير ، فاستغفر من خاطرك ، فلا ذنب ولا خطب أعظم ممن رجع عنا إلى سوانا ، ولو في خطرة ونفس . ثم قال عن الأستاذ القشيري : إذا

علمت أنك علمته فاستغفر لذنبك من هذا فإن الحق على جلال قدره أن يعلمه غيره اهـ . قلت : وحاصله : أن استغفاره ﷺ ما عسى أن يخطر بباله رؤية وجوده ، كما قال الشاعر :

وَجُودُكَ ذَنْبٌ لَا يُقَاسُ بِهِ ذَنْبٌ .

فلا وجود للغير معه أصلاً ، فهو الذي عرف نفسه بنفسه ، ووحد نفسه بنفسه ، وقُدس نفسه بنفسه ، وعظم نفسه بنفسه ، كما قال الهروي رضي الله عنه حين سُئل عن التوحيد الخاص :

مَا وَحَّدَ الْوَاحِدَ مِنْ وَاحِدٍ إِذْ كُلٌّ مِنْ وَحْدِهِ جَاهِدٌ .

توحيد من ينطق عن نعته عارضةً أبطلها الواحد .

توحيده إيّاه توحيدُهُ ونعتُ من ينعتُهُ لاحد .^(١)

فبدأ بالعلم قبل القول والعمل . اعلم رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة ، تعلم ثلاث هذه المسائل ، والعمل بهن : الأولى : أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا ، بل أرسل إلينا رسولًا ، فمن أطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار . والدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ (المزمل: ١٥، ١٦)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ رَسُولًا ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿ شَهِدًا عَلَيْكُمْ ﴾ ؛ يشهد يوم القيامة بما صدر منكم من الكفر والعصيان ، ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ وهو موسى عليه السلام ، ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ﴾

(١) تفسير البحر المديد ١١٨/٧ - ١٢١ .

الذي أرسلنا إليه ، أي : عصى ذلك الرسول ؛ لأنّ النكرة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأولى . ومحل الكاف النصب على أنها صفة لمصدر محذوف ، أي : أرسلنا إليكم رسولاً فعصيتموه ، كما يعرب عنه قوله تعالى : ﴿ شَهِدًا ﴾ إرسالاً كائنًا كإرسال موسى لفرعون ، فعصاه ، ﴿ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ ؛ شديداً غليظاً . وإنما خص موسى وفرعون ؛ لأنّ خبرهما كان منتشرًا بين أهل مكة ؛ لأنهم كانوا جيران اليهود ^(١) .

الثانية : أن الله لا يرضى أن يُشرك معه أحد في عبادته لا ملك مقرب ولا نبي مرسل . والدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (الجن: ١٨) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ ﴾ أي : ومن جملة ما أُوحي إليّ : أنّ المساجد ، أي : البيوت المبنية للصلاة فيها هي لله ، وقيل : معناه : ولأنّ المساجد لله ﴿ فَلَا تَدْعُوا ﴾ ، على أنّ اللام متعلّقة بـ « تدعوا » ، أي : فلا تدعوا ﴿ مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ في المساجد ؛ لأنها خالصة لله ولعبادته ، فلا تعبدوا فيها غيره تعالى ، ولا تفعلوا فيها إلا ما هو عبادة . وقيل : المراد : المسجد الحرام ، والجمع ؛ لأن كل ناحية منه مسجد له قبلة مخصوصة ، أو لأنه قبلة المساجد ، وقيل : الأرض كلها ؛ لأنها جعلت للنبي ﷺ مسجداً وطهوراً ^(٢) ، وقيل : أعضاء السجود السبعة التي يسجد عليها العبد ، وهي : القدمان ، والركبتان ، واليدين ، والوجه ^(٣) ، يقول : هذه الأعضاء أنعم الله بها عليك ، فلا تسجد عليها

(١) تفسير البحر المديد ١٦٧/٨ .

(٢) صحيح البخاري (٣٢٨) (٤٢٧) وفيه : فأما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ... ، صحيح مسلم (٥٢١) (٥٢٣) .

(٣) صحيح البخاري (٧٧٦) ، صحيح مسلم (٤٩٢) .

لغيره ، فتجحد نَعَمه ، ولا تذللها لغير خالقها . فإن جعلت المساجد المواضع ، فواحدها مسجد بكسر الجيم ، وإن جعلت الأعضاء ، فبفتح الجيم^(١) .

الثالثه : أن من أطاع الرسول ووحّد الله لا يجوز له موالاة من حاد الله

ورسوله ، ولو كان أقرب قريب . والدليل

قوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (المجادلة: ٢٢)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ لَا تَجِدُ ﴾ أيها الرسول ، أو : كل من يسمع ﴿ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ﴾ أي : خالفه ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ أي : عاده ، أي : لا تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين ، أي : لا ينبغي أن يكون ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال ، مبالغة في الزجر عن موالاة أعداء الله ، والاحتراز عن مخالطتهم ومعاشرتهم ، وزاد ذلك الأمر تأكيداً وتشديداً بقوله : ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ أي : لو كان من حادّ الله ورسوله من أقرب الناس إليه ، فإن قضية الإيمان بالله تعالى أن يهجر كلّ من حادّ عنه بالمرة ، وهذه حال أهل الصدق في الإيمان ، ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يُقاتلون آباءهم وأبنائهم وإخوانهم ، فقد قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه ، وأتى برأسه للنبي ﷺ ،

(١) تفسير البحر المديد ١٥٩/٨ .

طاعةً لله ورسوله ، وقال سعدُ بن أبي وقاص : كنتُ جاهداً على قتل أخي عتبة ، يوم بدر . وفيهم نزلت الآية . والجمع باعتبار معنى « مَنْ » كما أنَّ الأفراد فيما قبله باعتبار لفظها . ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ، وما فيه من معنى البعد لرفع درجتهم في الفضل ، وهو مبتدأ خبره : ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ أي : أثبتته فيها ، وفيه دلالة على خروج الأعمال من مفهوم الإيمان ، فإنَّ جزء الثابت في القلب ثابت فيه ، ولا شيء من أعمال الجوارح يثبت فيه . ﴿ وَأَيَّدَهُم ﴾ أي : قوّاهم ﴿ بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ أي : من عنده تعالى ، وهو نور اليقين ، أو : القرآن ، أو : النصر على العدو ، ويجوز أن يكون الضمير للإيمان ، أي : بروح من الإيمان ، على أنه في نفسه روح لحياة القلوب به . وعن الثوري : أنهم كانوا يَرَوْنَ أنها نزلت فيمن يصحب السلطان ، أي : ويُدَاهِنه ولا ينصحه . وقال سهل : مَنْ صحَّح إيمانه ، وأخلص توحيده ، لا يأنس بمبتدع ، ولا يُجالسه ، ويظهر له من نفسه العداوة ، ومَنْ داهن مبتدعاً سلبه الله حلاوة السنن ، ومَنْ أجابه لطلب عزِّ الدنيا ، أو عَرَضَها ، أذله الله بذلك العزِّ ، وأفقره بذلك الغنى ، ومَنْ ضحك إلى مبتدع نزع الله نورَ الإيمان من قلبه ، ومَنْ لم يصدّق فليجرب . اهـ من النسفي . ثم بيّن ما يتحفهم به في الآخرة ، بعد بيان ما أكرمهم به في الدنيا ، بقوله : ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أبد الأبدين ، ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ لتوحيدهم الخالص وطاعتهم ، ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ لثوابه الجسيم في الآخرة ، وبما قضى بهم في الدنيا ، وهو بيان لابتهاجهم بما أوتوه عاجلاً وآجلاً . ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ﴾ أنصار حقّه ، ورعاة خلقه ، وهو بيان لاختصاصهم به - عزّ وجل - وفي مقابلة اختصاص حزب الشيطان به . وقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ بيان لاختصاصهم بالفوز بسعادة النشأتين ، أي : هم الباقيون في النعيم المقيم ، الفائزون بكل محبوب ، الآمنون من كل مرهوب .

الإشارة : لا تجد قوماً يريدون تحقيق الإيمان وخلوص العرفان يوادون أهل الغفلة والعصيان ، ولو كانوا من أقرب الناس إليهم ، فالأخ الحقيقي والصاحب الخالص هو الذي يوافقك في النسبة ، ويرافقك على الطاعة ، ويُغيّبك عن مواطن الغفلة ، وأما مَنْ يجرك إلى الغفلة فلا نسبة بينك وبينه ، ولو كان أباً أو أمّاً أو أخاً شقيقاً . وقد تقدّم الكلام على المسألة في قوله تعالى : ﴿ **الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ** ﴾ (الزخرف: ٦٧) . قال القشيري : مَنْ جَنَحَ إِلَى منحرفٍ في دينه ، أو داهَنَ مبتدعاً في عقده ، نَزَعَ اللَّهُ نورَ التوحيد من قلبه ، فهو في حياته جان على عقيدته ، سيدوق قريباً وبأل أمره ، وإن الأولياء كتب الله الإيمانَ في قلوبهم وأثبتته . ويقال : جعل قلوبهم مُطْرَزةً باسمه ، وأعزَزَ بحُلة أسرار قوم ، طرازهم اسم « الله » عزَّ وجل !! . اهـ . وقال الورتجبي : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله . . .) إلخ ، أي : آثروا الله على مَنْ دونه ، وذلك بأنَّ الله غرس أشجار التوحيد والمعرفة في قلوبهم ، وتجلّى لأرواحهم بنفسه ، فصار معنى حقيقة التجلي منقوشاً في نفس أرواحهم وعقولهم . اهـ . وقوله تعالى : (وأيّدْهم بروح منه) قال في الحاشية الفاسية : هو مقام الشهود والتجلي العياني ، وهو حقيقة السر عند القوم ، وهو علم يمتد ظله في الأرواح المواجهة على حسب قابليتها واستعدادها ، كما خصصتها المشيئة الإلهية ، وهو التعليم الإلهامي للأولياء ، والتنزل الوحي للأنبياء عليهم السلام . وعن ذلك الإمداد عبر بالنفخ والإلقاء ، وباعتبار حياة الروح به وقوتها سُمي رُوحاً ، وإضافته إلى الله تعالى لأنه مقتبس من نور أوصافه ، ومثالٌ انفعالي عن علمه ، وآثارٌ عن قدرته وكلامه ، وبالجملّة فالعلم الحقيقي الذاتي لله ، وكذا سائر صفاته ، والعلم العرضي المثالي الانفعالي لمن خصَّ سبحانه من عباده ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، ﴿ **أَوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ وكما أن الصور المنطبعة في المرأة الصقيلة آثار ناشئة منها ، وحادثة من مواجهة الصور الحسية ، كذلك العلوم الممتدة في الأرواح المواجهة ، ظلال وآثار عارضة ، منفعة حادثة من حضرة الوجود الحقيقي ، والعلم الذاتي ،

وهذا واضح لا شك فيه . والله الموفق . وقال الورتجبي : وأيدهم بتجلي ذاته لأرواحهم ، وما وفقهم في الصفات ، بل أغرقهم في بحر الذات . اهـ . وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ﴾ قال سهل : الحزب : الشيعة ، وهم الأبدال : وأرفع منهم الصديقون . وقال بعضهم : حزب الله ، إذا نطقوا بهروا ، وإن سكتوا ظهوروا ، وإن غابوا حضروا ، وإن ناموا سهروا . اهـ . وقال ابن عطاء : إن الله عبداً اتصألهم به دائم ، وأعينهم به قريرة أبداً ، لا حياة لهم إلا به ؛ لاتصال قلوبهم به ، والنظر إليه بصفاء اليقين ، فحياتهم بحياته موصولة ، لا موت لهم أبداً ، ولا صبر لهم عنه ، لأنه قد سبى أرواحهم به ، فعلقها عنده ، فثم مأواها ، قد غشي قلوبهم من النور ما أضاءت به ، فأشرقت ، ونما زيادتها على الجوارح ، وصاروا في حِرز حماية ، أولئك حزب الله . وقال أبو عثمان : حزب الله من يغضب في الله ، ولا يأخذه فيه لومة لائم . جعلنا الله ممن تحقق بجميع هذه الأوصاف بمنه وكرمه . آمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .^(١)

اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفة ملة إبراهيم ، أن تعبد الله مخلصاً له الدين ، وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦) أي : إلا لأنأمرهم بالعبادة والخضوع لربوبيتي ، لا لنستعين بهم على شأن من شؤوني ، كما هي عادة السادات في كسب العبيد ، ليستعينوا بهم على أمر الرزق والمعاش ، ويدل على هذا التأويل : قوله تعالى : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾ (الذاريات: ٥٧) ، قال ابن المنير : إلا لأنأمرهم بعبادتي ، لا لطلب

(١) تفسير البحر المديد ٧/٣٥٠-٣٥٢ .

رزق لأنفسهم ، ولا إطعام لي ، كما هو حال السادات من الخلق مع عبيدهم ، بل الله هو الذي يرزق ، وإنما على عباده العبادة له لأنهم مكلفون ، ابتلاءً وامتحاناً ، أما الإرادة فكما تعلقت بالعبادة تعلقت بما يخالفها ، لقوله ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ (الأعراف: ١٧٩) . اهـ . وقيل المعنى : ما خلقهم إلا مستعدين للعبادة ، متمكنين منها أتم استعداد ، وأكمل تمكن ، فمنهم مَن أطاع ، ومنهم مَن كفر ، وهو كقولهم : البقر مخلوقة للحرث ، أي : قابلة لذلك ، وقد يكون فيها مَن لا يحرث . والحاصل : أنه لا يلزم من كون الشيء مُعداً لشيء أن يقع منه جميع ذلك . أو : ما خلقتهم إلا ليتذللوا لي ، ولقدرتي ، وإن لم يكن ذلك على قواعد شرع ، وهذا عام في الكل ، طوعاً أو كرهاً ، إذ كل ما خلق مُنقاد لقدرته وقهريته ، عابد له بهذا المعنى . وفي البخاري : وما خلقت أهل السعادة من الفريقين إلا ليوحدون . وقال بعضهم : خلقهم ليفعلوا ، ففعل بعضٌ وترك بعضٌ . وليس فيه حجة لأهل القدر . اهـ . والمراد بأهل القدر : المعتزلة ، القائلون بأن الله تعالى لم يرد الكفر والمعاصي ، وهو باطل ، وسيأتي في الإشارة بقية تحقيق إن شاء الله .

الإشارة : اعلم أن الحق - جل جلاله - إنما بعث الرسل بإظهار الشرائع ، ليحوشوا العباد إلى الله ، ويدعوهم إليه كافة ، ويأمرهم بالتبذل والانقطاع ، من غير التفات لمن سبق له السعادة والشقاء ؛ لأن ذلك من سر القدر ، وغيب المشيئة لا يجوز كشفه في حالة الدعوة ، فقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦) هذا ما يمكن الأمر به في ظاهر الأمر ، ويُؤمر بإظهاره في حالة الدعوة ، وكون الحق تبارك وتعالى أراد من قوم الكفر والمعاصي من غيب المشيئة ، وسر القدر لا يقدح في عموم الدعوة التي تعلقت بالظواهر ؛ لأنه من قبيل الحقيقة ، وما جاءت الرسل إلا بالشرعية ، فالدعاة إلى الله يُعممون الدعوة ، ويُحرِّضون على التبذل والانقطاع إلى الله ، وينظرون

إلى ما يبرز من غيب المشيئة . وقال الورتجبي : عن جعفر الصادق
﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦) أي : ليعرفوني . اهـ .
ومداره قوله ﷺ فيما يحكيه عن رب العزة : (كنت كنزاً مخفياً لم أعرف ،
فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق لأعرف) ^(١) أي : ما أظهرت الخلق إلا
لأعرف بهم ، فتجليت بهم في قوالب العبودية ، لتظهر ربوبيتي في قوالب
العبودية ، فتظهر قدرتي وحكمتي ، فسبحان الحكيم العليم . قال أبو السعود :
ولعل السر في التعبير عن المعرفة بالعبادة للتنبية على أن المعتبر هي المعرفة
الحاصلة بعبادته تعالى ، لا ما يحصل بغيرها ، كمعرفة الفلاسفة . هـ . قلت :
وكل معرفة وحقيقة لا تصحبها شريعة لا عبرة بها ، بل هي زندقة أو دعوى .
وبالله التوفيق ^(٢) .

ومعنى (يَعْبُدُونَ) يوحدون ، وأعظم ما أمر الله به : التوحيد وهو إفراد
الله بالعبادة ^(٣) وأعظم ما نهى عنه : الشرك ، وهو دعوة غيره ^(٤) معه .
والدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ (النساء: ٣٦) ^(٥) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي : وحدوه وأطيعوه
﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ جلياً أو خفياً في اعتقادكم أو في عبادتكم ، فمن

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٦٠٢٣) : لا أصل له اتفاقاً .

(٢) تفسير البحر المديد ٢١٦/٧ ، ٢١٧ .

(٣) وإفراده في الملك ، وفي الخلق والتدبير ، وفي التشريع ، وفي أسمائه وصفاته .

(٤) رباً وإلهاً .

(٥) تمام الآية : ﴿ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنَّا وَبِذَى الْقُرَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ
كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ (النساء: ٣٦)

قصد الحج والتجارة ، فقد أشرك مع الله في عبادته ، وأحسنوا بالوالدين إحساناً حسناً ، وهو برهما والقيام بحقهما ، ﴿ وَيَذَى الْقُرْبَى ﴾ ، أي : القرابة في النسب ، أو الدين ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ لضعف حالهم ، ﴿ وَالْمَسْكِينِ ﴾ لقلة ما بيدهم ، وقد شكى بعض الناس قساوة قلبه ، فقال له عليه الصلاة والسلام : (إن أردت أن يلين قلبك ، فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم ، وأطعمه) . ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ (النساء : ٣٦) الذي قُرب جواره أو نسبه ، ﴿ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴾ الذي بُعد مكانه أو نسبه ، وحدد بعضهم الجوار بأربعين داراً من كل ناحية . وقال ابن عباس : الجار ذي القربى : الجار الذي بينك وبينه قرابة ، والجار الجنب : الجار من قوم آخرين . اهـ . قيل يا رسول الله : ما حق الجار على الجار قال : (إن دعاك أجبته ، وإن أصابته فاقه عُدت عليه ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن مرض عُدته ، وإن أصابته مصيبة عزيتة ، وإن توفي شهدته جنازته ، ولا تستعمل عليه بالبنيان لتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذنه بقُتار قدرك - أي : بخارها - إلا أن تغفر له منها ، وإن ابتعت فاكهة فأهد له منها ، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا يخرج ولدك منها بشيء فيغيظ ولده) ثم قال : (الجيران ثلاثة : فجارٌ له ثلاثة حقوق : حق الجوار ، وحق القرابة ، وحق الإسلام ، وجار له حقان : حق الجوار ، وحق الإسلام ، وجارٌ له حق واحد : وهو المشرك من أهل الكتاب) ^(١) . ﴿ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ ﴾ ، وهو الرفيق في أمر حسن ، كتعلم وتصرف وصناعة وسفر ، فإنه صاحب بجنبك ، وعن علي - كرم الله وجهه - (أنها الزوجة) ، فيتأكد في حقها الإحسان وزيادة على المعاشرة بالمعروف ، قال بعضهم : أول قدم في الولاية كف الأذى وحمل الجفا ، ومعيّار ذلك حسن معاشرة الأهل والولد ، وقال - عليه الصلاة والسلام - : (خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائي) ^(٢) ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ ،

(١) مسند الشاميين للطبراني (٢٢٣٠) قال محققه : حمدي عبد المجيد السلفي : رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق وسويد بن عبد العزيز وعثمان بن عطاء ضعيفان .

(٢) سنن ابن ماجه (١٦٠٩) قال الألباني : صحيح .

وهو الضيف أو المسافر لغيرته ، ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ، من الإماء والعبيد ، وكان آخرُ كلام النبي - عليه الصلاة والسلام - : (الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم) ^(١) . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ أي : متكبراً ، يأنف عن أقاربه وجيرانه وأصحابه ولا يلتفت إليهم ، ﴿ فَخُورًا ﴾ يتفاخر عليهم بماله وجاهه ، وما خوله الله من نعمه ، فهو جدير أن تسلب منه .

الإشارة : واعبدوا الله ، أي : بالقيام بوظائف العبودية ، ومشاهدة عظمة الربوبية ، وقال بعض الحكماء : العبودية : ترك الاختيار ، وملازمة الذل والافتقار . وقيل : العبودية أربعة أشياء : الوفاء بالعهود ، والحفظ للحدود ، والرضا بالموجود ، والصبر على المفقود ، وعنوان ذلك صفاء التوحيد ، ولذلك قال : ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ أي : لا تروا معه غيره ، كما قال القائل :
مُذْ عَرَفْتُ الْإِلَهَ لَمْ أَرْ غَيْرًا وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مُنْوَغٌ .

وقال آخر : (لو كلفت أن أرى غيره ، لم أستطع ، فإنه لا غير معه حتى أشهده) . فإذا حصلت العبودية في الظاهر ، وتحقق التوحيد في الباطن ، ظهرت عليه مكارم الأخلاق فيحسن إلى الأقارب والأجانب ، ويجود عليهم بالחס والمعنى ، لأن الفتوة من شأن أهل التوحيد ، ومن شيم أهل التجريد ، كما هو معلوم من حالهم ، نفعنا الله بذكرهم ، وخرطنا في سلكهم . آمين . قال الورتجبي : (الوالدين) : مشايخ المعرفة . ثم نقل عن الجنيد ، أنه قال : أمرني أبي أمراً ، وأمرني السرى أمراً . فقدمت أمر السري على أمر أبي ، وكل ما وجدت فهو من بركاته . اهـ . وذوو القربى هم الأخوة في الشيخ ، ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ : من قصدهم من المتفكرة الجاهلة ، ﴿ وَالْمَسْكِينِ ﴾ : ضعفاء اليقين من العامة ، أمر الله تعالى أهل الخصوصية بالإحسان إليهم والبرور بهم ، وهو أن يقرهم في طريقهم ، ويحوشهم إلى ربهم . ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ وهو جارك في السكنى وأخوك في النسبة ، فيستحق عليك زيادة الإحسان . ﴿ وَالْجَارِ

(١) سنن أبي داود (٥١٥٦) قال الألباني : صحيح .

الْجُنُبِ ﴿ : من جاورك من العوام فتتصححه وترشده ، ﴿ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ ﴾ : من رافقك في أمر من العوام ، كسفر وغيره ، ﴿ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ : من نزل بأهل الخصوصية من الأضياف ، فلهم حق الضيافة عليهم حساً ومعنى ، ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ : مالكم تصرف عليهم من الأهل والبنين والإماء والعبيد ، فتقربونهم إلى حضرة الملك المجيد ، ثم أمرهم بالتواضع والإقبال على الخاص والعام . فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ . والله تعالى أعلم ^(١) .

فإذا قيل لك : ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها؟ فقل : معرفة العبد ربه ، ودينه ، ونبيه محمد ﷺ . فإذا قيل لك : من ربك؟ فقل : ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه ، وهو معبودي ليس لي معبود سواه . والدليل قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة: ٢)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله معلماً لعباده كيف يُشْتَوْنَ عليه ويعظمونه ثم يسألونه : يا عبادي قولوا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : الثناء الجميل إنما يستحقه العظيم الجليل ، فلا يستحق الحمد سواه ، إذ لا منعم على الحقيقة إلا الله ، ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (النحل: ٥٣) . أو جميع المحامد كلها لله ، أو الحمد المعهود في الأذهان هو حمد الله تعالى نفسه في أزله ، قبل أن يوجد خلقه ، فلما أوجد خلقه قال لهم : الحمد لله ، أي : احمدونني بذلك الحمد المعهود في الأزل ، وإنما استحق الحمد وحده لأنه ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وكأن سائلاً سأل : لم اختصت بالحمد؟ فقال : لأنني رب العالمين ، أنا أوجدتهم برحمتي ، وأمددتهم بنعمتي ، فلا منعم غيري ، فاستحققت الحمد وحدي ، مني كان الإيجاد وعلى توالى الإمداد ، فأنا رب العباد ، فالعوالم كلها - على تعدد أجناسها واختلاف أنواعها - في قبضتي وتحت تربيتي ورعايتي ...

(١) تفسير البحر المديد ٤٥/٢ ، ٤٤ .

الإشارة : لما تجلّى الحق سبحانه من عالم الجبروت إلى عالم الملكوت ،
أو تقول : من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، حمد نفسه بنفسه ، ومجد نفسه
بنفسه ، ووحد نفسه بنفسه ، ولله درّ الهروي ، حيث قال :

ما وحد الواحد من واحدٍ إذ كلّ من وحدهُ جاحد .
توحيدٌ من ينطقُ عن نعتِهِ عارِيَةً أبطلها الواحد .
توحيدهُ إيّاه توحيدُهُ و نعتُ من ينعتُهُ لاحد .

فقال في توحيد نفسه بنفسه مترجماً عن نفسه بنفسه : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴾ ، فكأنه يقول في عنوان كتابه وسر خطابه : أنا الحامد والمحمود ،
وأنا القائم بكل موجود ، أنا رب الأرباب ، وأنا مسبب الأسباب لمن فهم
الخطاب ، أنا رب العالمين ، أنا قيوم السموات والأرضين ، بل أنا المتوحد في
وجودي ، والمتجلّي لعبادي بكرمي وجودي ، فالعوالم كلها ثابتة بإثباتي ،
ممحوة بأحدية ذاتي . قال رجل بين يدي الجنيد : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ولم يقل :
﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، فقال له الجنيد : كمّلها يا أخي ، فقال الرجل : وأيّ
قدّر للعالمين حتى تُذكر معه؟! فقال الجنيد : قلّها يا أخي فإن الحادث إذا قرن
بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم . يقول سبحانه : يا من هو مني قريب ،
تدبر سرّي فإنه غريب ، أنا المحبُّ ، وأنا الحبيب ، وأنا القريب ، وأنا المجيب ،
أنا الرحيم الرحمن ، وأنا الملك الديان ، أنا الرحمن بنعمة الإيجاد ، والرحيم
بتوالي الإمداد ، منّي كان الإيجاد ، وعليّ دوام الإمداد ، وأنا رب العباد ، أنا
الملك الديان ، وأنا المجازي بالإحسان على الإحسان ، أنا الملك على الإطلاق ،
لولا جهالة أهل العناد والشقاق ، الأمر لنا على الدوام ، لمن فهم عنا من الأنام .
قال في الرسائل الكبرى^(١) : لا عبرة بظواهر الأشياء ، وإنما العبرة بالسر

(١) قال محققه عمر أحمد الراوي : الرسائل الكبرى : لمحمد بن إبراهيم بن عباد النفري
الرندي الشاذلي المتوفى سنة ٧٩٢ هـ ، شارح «الحكم العطائية» (انظر كشف الظنون
٦٧٥/١) .

المكتون ، وليس ذلك إلا بظهور الحق وارتفاع غطاءه وزوال أستاره وخفائه ، فإذا تحقق ذلك التجلي والظهور ، واستولى على الأشياء الفناء والدُّثُور ، وانقضت الظلمات بإشراق النور ، فهناك يبدو عين اليقين ويحق الحق المبين ، وعند ذلك تبطل دعوى المدعين ، كما يفهم العامة بطلان ذلك في يوم الدين ، حين يكون الملك لله رب العالمين ، وليت شعري أي وقت كان الملك لسواه حتى يقع التقييد بقوله : ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (الحج: ٥٦) ، وقوله : ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (الانفطار: ١٩) ؟! لولا الدعاوى العريضة من القلوب المريضة^(١).

وكل من سوى الله عالم ، وأنا واحد من ذلك العالم .

فإذا قيل لك : بم عرفت ربك ؟ فقل بآياته ومخلوقاته ، ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، ومن مخلوقاته السموات السبع ، والأرضون السبع ، ومن فيهن وما بينهما . والدليل قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصلت: ٣٧) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ الدالة على وحدانيته : ﴿أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ﴾ في تعاقبهما على حدّ معلوم ، وتناوبهما على قدر مقسوم ، ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ في اختصاصهما بسير مقدّر ، ونور مقرر إذ لا يصدر ذلك إلا من واحد قهار . ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما مخلوقان مثلكم ، وإن كثرت منافعهما ، ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ أي : الليل والنهار والشمس والقمر . وحكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث في الضمير ، تقول : الأقلام بريتها وبريتهن . ولعلّ ناساً من المشركين كانوا

(١) تفسير البحر المديد ٣٠/١-٣٣ .

يسجدون للشمس والقمر ، تبعاً للصّابئين من المجوس في عبادتهم الكواكب ،
 ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لها السجود لله - تعالى - فنهوا عن هذه
 الوساطة ، وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وَجَهَ الله وحده ، إن كانوا موحدين ،
 ولذلك قال : ﴿ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ فإن السجود أقصى مراتب العبادة ،
 فلا بد من تخصيصه به سبحانه . . .

الإشارة : الليل والنهار والشمس والقمر خلَقهن من أجلك ، فعارٌ عليك أن
 تخضع لما خلَق لك ، وتترك المنعم بها عليك . قال القشيري : الحق - سبحانه -
 يأمر بك بصيانة وجهك عن الشمس والقمر مع علوهما ، وأنت لأجل حظِّ
 خسيس تنقل قدمك إلى كلِّ أحدٍ ، وتذل وجهك لكل أحد . اهـ . وأما
 الخضوع لمن أمر الله بالخضوع له من الدعاة إلى الله فهو من الخضوع لله ،
 كأمر الملائكة بالسجود لآدم ، وكأمره بالخضوع للأنبياء والأولياء ، فكان مآل
 من سجد وخضع التقريب ، ومآل من استكبر وأنف الطرد والبعد ، والله تعالى
 غني عن الكل ، ولذلك قيل : (فإن استكبروا ..) الآية . . . (١)

وقوله تعالى : ﴿ إِنِّ رَبِّكُمْ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
 أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
 وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾
 (الأعراف: ٥٤)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إِنِّ رَبِّكُمْ اللهُ ﴾ الذي يستحق أن تعبدوه ، هو
 ﴿ اللهُ ﴾ وحده ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أي : أظهرهما ﴿ فِي سِتَّةِ
 أَيَّامٍ ﴾ أي : مقدار ستة أيام من أيام الدنيا إذ لم يكن ثمَّ شمس ، ولو شاء

(١) تفسير البحر المديد ٦/٣٤٧ ، ٣٤٨ .

خلقهن في لمحة ، والعدول إليه لتعليم خلقه التآني والتثبت . ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ استواء يليق به ، والعرش : جسم عظيم محيط بالأكوان . سمي به لارتفاعه ، وللتشبيه بسرير الملك ، فالأكوان في جوفه ممحوقة فقد استولى عليها ومحققها ، كذلك أسرار معاني الربوبية الأزلية قد استولت عليه ومحقته ، فيمكن أن يكون الحق تعالى عبّر بالاستواء عن هذا الاستيلاء ، وسيأتي في الإشارة تمامه إن شاء الله . وقال القشيري : ثم استوى على العرش ، أي : تَوَحَّد بجلال الكبرياء بوصف الملكوت ، وملوكنا إذا أرادوا التجلّى والظهور للحشم والرعية برزوا لهم على سرير ملكهم في إيوان مشاهدتهم . فأخبر الحق - سبحانه وتعالى - بما يقرب من فهم الخلق ، بما ألقى إليهم من هذه الكلمات ، بأنه استوى على العرش ، ومعناه : اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية ، وانفراده بنعت الجبروت وجلاء الربوبية ، وتقدّس الجبار عن الأقطار ، والمعبود عن الحدود . اهـ . ﴿ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ ﴾ أي : يغطي نور النهار بظلمة الليل ، ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ أي : يعقبه سريعاً كالطالب له ، لا يفصل بينهما شيء ، (و) خلق ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ أي : بقضائه وتصريفه ، ومن عجائب تسخيرها أن جعلها مقرونة بأمور غيبية ، دالة على ظهور شيء منها . والنهي عن النظر في النجوم أو تصديق المنجمين إنما هو لمن اعتقد التأثير لها مستقلة بنفسها ، أو تصديقهم في تفصيل ما يخبرون به لأنهم إنما يقولون ذلك عن ظن وتخمين وجهل ، فإنّ علم النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء ، ثم اندرس ذلك العلم ، فلم يبق إلا ما هو مختلط ، لا يتميز فيه الصواب من الخطأ ، فاعتقاد كون الكواكب أسباباً لآثار يخلق الله - تعالى - بها في الأرض ، وفي النبات والحيوان شيئاً ، يعني في الجملة ليس قادحاً في الدين ، بل هو الحق ، ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل : قادح في الدين ، فالكواكب ما خلقت عبثاً ، ولهذا نظر عليه الصلاة والسلام إلى

السماء ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً ﴾ (آل عمران: ١٩١) الآية^(١). انظر : الإحياء للغزالي . ثم قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ أي : الإيجاد والتصرف بالأمر والنهي ، ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : تعظم في ألوهيته ، وتعالى في ربوبيته ، وتفرد في وحدانيته . قال البيضاوي : (و تحقيق الآية - والله أعلم - أن الكفرة كانوا متخذين أرباباً ، فبين لهم أن المستحق للربوبية واحد - وهو الله تعالى لأنه الذي له الخلق والأمر ، فإنه تعالى خلق العالم على ترتيب قويم ، وتدبير حكيم فأبدع الأفلاك العلوية ، والأجرام السفلية ، ثم بعد تمام خلق عالم الملك أخذ في تدبيره كالمملك الجالس على عرشه وسريره لتدبير مملكته ، فدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، بتحريك الأفلاك وتسيير الكواكب ، وتكوين الليالي والأيام ، فله الخلق والأمر . وكذلك قال في آية السجدة بعد ذكر الخلق : ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (السجدة: ٤) ، فربّ الخلائق : من هذا صفته ، لا غيره ، انتهى بالمعنى .

الإشارة : قوله تعالى : ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ : قال الورتجبي : في كل يوم من هذه الأيام : ظهور صفة من صفاته الست : أولها : العلم ، والثاني : القدرة ، والثالث : السمع ، والرابع : البصر ، والخامس : الكلام ، والسادس : الإرادة ، كملت الأشياء بظهور أنوار الصفات الستة ، ولما أتمها صارت الحدثان كجسد آدم بلا روح ، فتجلى من صفته السابعة - وهي حياته القديمة الأزلية الباقية ، المنزهة عن همهمة الأنفاس والمشابهة والقياس - فقامت الأشياء بصفاته القائمة بذاته ، ويكون إلى الأبد لحياتها بروح حياته ، المقدسة عن الاتصال والانفصال . قلت : وهي المعبر عنها بالمعاني القائمة بالأواني . ثم قال : وفي أدق الإشارة : السموات : الأرواح ، والأرض : الأشباح ، والعرش : القلوب ، بدأ بكشف الصفات للأرواح ، وبدأ بكشف الأفعال للأشباح ، ثم بدأ بكشف الذات للقلوب

(١) سنن النسائي الكبرى (١٣٢٠) .

لأن مناظر القلوب للغيوب ، والغيوب من القلوب محل تجلى استواء القدم ، استوى قهر القدم ، بنعت الظهور للعدم ، أي : فتلاشى العدم ، ثم استوى تجلي الصفات على الأفعال ، واستوى تجلي الذات على الصفات ، فاستوى بنفسه لنفسه ، المنزه عن المباشرة بالحدثان والاتصال والانفصال عن الأكوان . قلت : أي : إذ لا حدثان ولا أكوان لأنها لما قرنت بالقدم تلاشت ، وما بقي إلا نعت القدم . ثم قال : خصّ السموات والأرض بتجلي الصفات ، وخص العرش بتجلي الذات . قلت : لأن المعاني المستولية على العرش باقية على أصلها ، وهي أسرار الذات لم تتردّ برداء الكبرياء ، وهو حجاب الحس الظاهر ، بخلاف المعاني القائمة بالأواني ، وهي أنوار الصفات ، تجلت مرتدية بحجاب القهرية ، فقبل لها : تجلي الصفات . ثم قال : السموات والأرض جسد العالم ، والعرش قلب العالم ، والكرسي دماغ العالم ، خص الجميع بالأفعال والصفات ، وخص العرش بظهور الذات لأنه قلب الكل ، وهو غيب الرحمن وعلمه وحكمته ، رأيته في المكاشفة أنواراً شعشعانياً ، بلا جسم ولا مكان ولا صورة ، يتلألاً ، فسألت عن ذلك ، فقبل لى : هذا عالمٌ يسمى عرشاً . انتهى . قلت : وأقرب من هذا كله : أن العرش قد استولى على ما في جوفه من العوالم ، حتى صارت في وسطه كل شيء ، ومعاني أسرار الربوبية ، وهي العظمة الأصلية - قد استولت عليه ، وأحاطت به ، ومحت وجوده ، فعبر الحق - جل جلاله - عن استيلاء هذه العظمة - التي هي أسرار الربوبية - على العرش بالاستواء . وإلى هذا أشار في الحكم العطائية بقوله : « يا من استوى برحمانيته على عرشه ، فصار العرش غيباً في رحمانيته ، كما صارت العوالم غيباً في عرشه ، محقت الآثار بالآثار ، ومحوت الآثار - وهي العرش وما احتوى عليه - بمحيطات أفلاك الأنوار » وهي أسرار الذات المحيطات بالآثار ، من العرش إلى الفرش ، فعبر عن المعاني المستولية على العرش بالرحمانية لأن الرحمانية صفة الذات ، والصفة لا تفارق الموصوف ، فافهم . قلت : ومن كحل عينه بإثمد توحيد الذات لا يستبعد أن يكون الحق - جل جلاله - يتجلى بتجل خاص من أسرار

ذاته وأنوار صفاته ، يستوي بتلك العظمة على العرش ، كما يتجلى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده ، إذ تجلياته لا تنحصر ، بل كل ما ظهر في عالم الشهادة فإنما هو نور من تجلي ذاته وصفاته والله در القائل :

هذا الوجود وإن تعدد ظاهراً وحياتكم ما فيه إلا أنتم .

وهذا القدر كاف لمن شم شيئاً من أسرار التوحيد ، وقد تكلم ابن جزى هنا على الخوف والرجاء ، وأطال فيهما ، ولكنه يجنح لتصوف أهل الظاهر ، وقد تقرر في محله^(١).

والرب هو : المعبود . والدليل قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ] (البقرة: ٢١، ٢٢)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

قلت : جملة الترجي حال من الواو في ﴿ اعْبُدُوا ﴾ ، أي : اعبدوا ربكم راجين أن تنخرطوا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح ، المستوجبين جوار الله تعالى ، نبه به على أن التقوى منتهى درجات السالكين وهو التبري من كل شيء سوى الله تعالى - إلى الله تعالى . و﴿ الَّذِي جَعَلَ ﴾ صفة للرب ، و﴿ فَلَا تَجْعَلُوا ﴾ معطوف على ﴿ اعْبُدُوا ﴾ على أنه نهى ، أو منصوب بأن ، جواب له ، ﴿ أُنْدَادًا ﴾ جمع ندّ ، بكسر النون . وهو الشبه والمثل ، و﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ حال من ضمير ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا ﴾ أي : فلا تجعلوا لله أنداداً والحال أنكم من أهل العلم .

(١) تفسير البحر المديد ٣٥٩/٢ - ٣٦٢ .

يقول الحق جل جلاله : يا عبادى اعبدونى بقلوبكم بالتوحيد والإيمان ، وبجوارحكم بالطاعة والإذعان ، وبأرواحكم بالشهود والعيان ، فأنا الذي أظهرتكم من العدم - أنتم ومن كان قبلكم - وأسبلت عليكم سوابغ النعم ، الأرض تقلكم والسماء تظلكم ، والجهات تكتنفكم ، وأنزلت من السماء ماء فأخرجت به أصنافاً ﴿ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٢) ، فأنتم جوهره الصديق ، تنطوى عليكم أصداف مكنوناتي ، وأنتم الذين أطلعتكم على أسرار مكنوناتى ، فكيف يمكنكم أن تتوجهوا إلى غيري ؟ وقد أغنيتكم بلطائف إحساني وبري ، أنعمت عليكم أولاً بالإيجاد ، وثانياً بتوالي الإمداد ، خصصتكم بنور العقل والفهم ، وأشرفت عليكم نبذة من أنوار القدم ، فبي عرفتموني ، وبقدرتي عبدتموني ، فما عبدني غيري ، ولا وحدني سواي فلا شريك معي ولا ظهير ، ولا أحتاج إلى معين ولا وزير .

الإشارة : توجه الخطاب إلى العارفين الكاملين في الإنسانية الذين يعبدون الله تعظيماً لحق الربوبية ، وقياماً بوظائف العبودية ، وفيهم قال صاحب العينية^(١) :

هُمُ النَّاسُ فَالزَّمْ إِنْ عَرَفْتَ جَنَابَهُمْ فَفِيهِمْ لُضْرُ الْعَالَمِينَ مِنْ أَفْعُ .
وقال قبل ذلك :
هُمُ الْقَصْدُ لِلْمَلُوفِ وَالْكَثْرُ وَالرَّجَا وَمِنْهُمْ يَنَالُ الصَّبَّ مَا هُوَ طَامِع .
بِهِمْ يَهْتَدَى لِلْعَيْنِ مَنْ ضَلَّ فِي الْعَمَى بِهِمْ يُجْذِبُ الْعَشَّاقُ ، وَالرَّبِّيعُ شَامِع .
هُمُ الْقَصْدُ وَالْمَطْلُوبُ وَالسُّؤْلُ وَالْمَنَى وَاسْمُهُمُ لِلصَّبِّ فِي الْحَبِّ شَافِع .

فعبادة العارفين : بالله ومن الله وإلى الله ، وعبادة الجاهليين : بأنفسهم ومن أنفسهم ولأنفسهم ، عبادة العارفين حمد وشكر ، وعبادة الغافلين اقتضاء حظ

(١) قال محققه : هو عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الحلبي القادري الصوفي الحنبلي من خلفاء الشيخ الجبرتي ، ولد سنة ٧٦٧هـ ، وتوفي سنة ٨٢٠ هـ . (انظر كشف الظنون ٦١٠/٥ ، ٦١١) .

وأجر ، عبادة العارفين قلبية باطنية ، وعبادة الغافلين حسية ظاهرية ، يا أيها الناس المخصوصون بالأنس والقرب دوموا على عبادة القريب ، ومشاهدة الحبيب ، فقد رفعتُ بيني وبينكم الحجب والأستار ، وأشهدتكم عجائب الألفاظ والأسرار ، أبرزتكم إلى الوجود ، وأدخلتكم من باب الكرم والجود ، ومنحتكم بفضلِي غاية الشهود ، لعلكم تتقون الإنكار والجحود ، وتعرفوني في كل شاهد ومشهود . فقد جعلت أرض نفوسكم مهاداً لعلوم الشريعة ، وسماء قلوبكم سقفاً لأسرار الحقيقة ، وأنزلت من سماء الملكوت ماء غيبياً تحيا به أرض النفوس ، وتهتز بواردات حضرة القدوس ، فتخرج من ثمرات العلوم اللدنية ، والأسرار الربانية ، والأحوال المرضية ، ما تتقوت به عائلة المستمعين ، وتنتعش به أسرار السائرين ، فلا تشهدوا معي غيري ، ولا تميلوا لغير إحساني وبري ، فقد علمتم أنني منفرد بالوجود ، ومختص بالكرم والجود ، فكيف يرجي غيري وأنا ما قطعت الإحسان؟! وكيف يلتفت إلى ما سواي وأنا بذلت عادة الامتنان؟! مني كان الإيجاد ، وعلى دوام الإمداد ، فثقوا بي كفيلاً ، واتخذوني وكيلاً ، أعطكم عطاءً جزيلاً ، وأمنحكم فخراً جليلاً^(١).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة. وأنواع العبادة التي أمر الله بها ، مثل الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، ومنه الدعاء ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والرغبة ، والرغبة ، والخشوع ، والخشية ، والإنابة ، والاستعانة ، والاستعاذة ، والاستغاثة ، والذبح ، والنذر ، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها الله تعالى .

والدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾

(الجن: ١٨)

تقدم تفسير الآية الكريمة .

(١) تفسير البحر المديد ١/٦٥ ، ٦٦ .

فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر . والدليل قوله تعالى :
﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١٧) ^(١) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ أي : عبثين ،
أو للعبث من غير حكمة في خلقكم وإظهاركم حتى أنكرتم البعث ، ﴿ وَأَنْتُمْ
إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ للحساب والجزاء ، بل خلقناكم للتكليف ، ثم للرجوع إلينا ،
فُنُشِبَ المحسن ، ونعاقب المسيئ . (فَتَعَالَى اللَّهُ) أَنْ يَخْلُقَ شيئاً عبثاً ، وهو
استعظام له تعالى ولشئونه التي يُصَرِّفُ عليها عباده من البدء والإعادة ، والإثابة
والعقاب ، بموجب الحكمة ، أي : ارتفع بذاته ، وتنزه عن مماثلة المخلوقين
في ذاته وصفاته وأفعاله ، وعن خلو أفعاله عن الحِكم والمصالح والغايات
الحميدة . ﴿ أَلَمْ لِكُ الْحَقُّ ﴾ الذي يحق له الملك على الإطلاق ، إيجاداً وإعداماً ،
وإحياء وإماتة ، عذاباً وإثابة ، وكل ما سواه مملوك له ، مقهور تحت ملكوته ،
﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، فَإِنْ كُلُّ مَا عَدَاهُ عبيده ، ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ ، فكيف
بما تحته من الموجودات ، كائناً ما كان ، ووصفه بالكرم : إِمَّا لِأَنَّهُ مِنْهُ يَنْزِلُ
الوحي الذي منه القرآن الكريم ، والخير والبركة ، أو لنسبته إلى أكرم الأكرمين .
﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ ، يعبدَه فرداً أو اشتراكاً ، من صفته ﴿ لَا بُرْهَانَ
لَهُ بِهِ ﴾ على صحة عبادته . وفيه تنبيه على أن التدين بما لا دليل عليه باطل ،

(١) قال الله عز وجل : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ۝ فَتَعَالَى
اللَّهُ أَلَمْ لِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا
بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ۝ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ
وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (المؤمنون: ١١٥-١١٨) .

فكيف بما شهدت بديهة العقول بخلافه؟ ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ ، فهو مُجاز له على قدر ما يستحقه ، ﴿إِنَّهُ﴾ أي : الأمر والشأن ﴿لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ لا فوز لهم ولا نجاة . بدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين ، وختمت بنفي فلاح الكافرين تحريضاً على الإيمان ، وعلى ما يوجب بقاءه وتنميته ، من التمسك بما جاء به التنزيل ، وبما جاء به النبي الجليل ، ليقع الفوز بالفلاح الجميل . ثم علّمتنا سؤال المغفرة والرحمة لأن شؤم المعاصي يؤدي إلى سوء الختام ، فقال : ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ، وفيه إيذان بأنهما من أهم الأمور الدينية ، حيث أمر به من قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فكيف بمن عداه؟ نسأل الله - تعالى - المغفرة الشاملة ، والرحمة الكاملة ، لنا ولإخواننا ولجميع المسلمين . . آمين . روي عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنه مرّ بمصاب مبتلى ، فقرأ في أذنه : ﴿أَفْحَسِبْتُمْ أَنْمَا﴾ إلخ السورة ، فبرئ من حينه . فقال النبي ﷺ : (ماذا قرأت في أذنه؟ فأخبره ، فقال : والذي نفسى بيده لو أن رجلاً مؤمناً قرأها على جبل لزال) ^(١) .

الإشارة : ما أظهر الله الكائنات إلا ليُعرف بها ، ويظهر فيها أسرار ذاته وأنوار صفاته ، وفي الأثر القدسي : (كنت كنزاً لم أعرف ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق ، فتعرفت لهم ، فبي عرفوني) ^(٢) وفي إيجاد المخلوقات حكم بليغة وأسرار عجيبة ، لا يحصيها إلا من خلقها ودبرها . فمن المخلوقات من خلقهم ليظهر فيهم أثر رحمته وكرمه وإحسانه ، وهم أهل الإيمان والطاعة ، ومنهم من خلقهم ليظهر فيهم حلمه وعفوه ، وهم أهل العصيان ، ومنهم من خلقهم ليظهر فيهم عدله وقهره ونقمته ، وهم أهل الكفر والطغيان . وقال الحكيم الترمذي رضي الله عنه : إن الله خلق الخلق عبداً ليعبدوه ، فيشبههم على العبادة ، ويعاقبهم على تركها ، فإن عبدوه فهم اليوم له عبيد ، أحرار كرام من

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٢١٨٩) .

(٢) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٦٠٢٣) : لا أصل له اتفاقاً .

رق الدنيا ، ملوك في دار السلام ، وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أباق ، سقاط ، لئام ، أعداء في السجون بين أطباق النيران . اهـ . وقال بعضهم : إنما أظهر الله الكون لأجل نبينا ﷺ تشريعاً له ، فهو من نوره . قال ابن عباس رضي الله عنه : (أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : يا عيسى ابن مريم آمن بمحمد ، ومُر أمتك أن يؤمنوا به ، فلولا محمد ما خلقت آدم ، ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار . . .) ^(١) الحديث . قال القشيري : حسابه على الله في آجله ، وعذابه من الله له في عاجله ، وهو ما أودع قلبه حتى رضي أن يعبد معه غيره ، لقوله : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (الزمر: ٣) ، كلام حاصل عن غير دليل عقل ، ولا شهادة خبر ونقل ، فما هو إلا إفك وبهتان ، وقول ليس يساعده برهان . اهـ . وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق - وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد ، وآله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين ^(٢) .

وفي الحديث : (الدعاء مخ العبادة) . ^(٣)

والدليل قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر: ٦٠)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي ﴾ أي : اعبدوني ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أي : أثبكم ، ويدل على هذا قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ صاغرين أذلاء ، أو : اسألوني أعطكم ، على

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢٨٠) : لا أصل له .

(٢) تفسير البحر المديد ٤٣/٥ - ٤٥ .

(٣) سنن الترمذي (٣٣٧١) وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة . قال الألباني : ضعيف .

ما أريد ، في الوقت الذي أريد . قال القشيري : والحكمة في أنه أمر بالسؤال قبل الإجابة ، وبالاستغفار قبل المغفرة ، أنه حكم في اللوح أن يعطيك ذلك الشيء الذي تسأله وإن لم تسأل ، ولكن أمر بالسؤال ، حتى إذا وجدته تظن أنك وجدته بدعائك ، فتفرح به . قلت : السؤال سبب ، والأسباب غطى بها سر قدرته تعالى . ثم قال : ويقال : إذا ثبت أن هذا الخطاب للمؤمنين فما من مؤمن يدعو الله ، ويسأله شيئاً ، إلا أعطاه إياه ، إما في الدنيا ، وإما في الآخرة . حيث يقال له : هذا ما طلبته في الدنيا ، وقد ادخرته لك إلى هذا اليوم ، حتى يتمنى العبد أنه لم يعط شيئاً في الدنيا . اهـ . قلت : فالدعاء كله إذاً مستجاب ، بوعد القرآن ، لكن منه ما يُعجل ، ومنه ما يُؤجل ، ومنه ما يصرف عنه به البلاء ، كما في الأثر^(١) ، وإذا فسر الدعاء بالسؤال كان الاستكبار عنه منزلاً منزلة الاستكبار عن العبادة للمبالغة في الحث عليه . قال ﷺ : (الدعاء هو العبادة) وقرأ الآية^(٢) ، وفي رواية : (مخ العبادة)^(٣) ، وعن ابن عباس : وحدوني أغفر لكم ، فسر الدعاء بالعبادة ، والعبادة بالتوحيد .

الإشارة : اختلف الصوفية أيّ الحالين أفضل ؟ هل الدعاء والابتهاال ، أو السكوت والرضا ؟ والمختار أن ينظر العبد ما يتجلى في قلبه ، فإن انشرح للدعاء فهو في حقه أفضل ، وإن انقبض عنه ، فالسكوت أولى ، والغالب على أهل التحقيق من العارفين ، الغنى بالله ، والاكتفاء بعلمه ، كحال الخليل عليه

(١) مسند الإمام أحمد (١١١٤٩) وفيه : حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا أبو عامر ثنا علي عن أبي المتوكل عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن تعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها . قالوا : إذاً نكثر قال : الله أكثر . » قال شعيب الأرناؤوط : إسناده جيد .

(٢) سنن الترمذي (٣٣٧٢) قال الألباني : صحيح .

(٣) تقدم تخريجه ص ٩١ .

السلام ، فإنهم إبراهيميون . قال الورتجبي : أي : ادعوني في زمن الدعاء الذي جعلته خاصاً لإجابة الدعوة ، فادعوني في تلك الأوقات ، أستجب لكم فإن وقوع الإجابة فيها حقيقة بلا شك ، ومن لم يعرف أوقات الدعاء ، فدعاؤه ترك أدب فإن الدعاء في وقت الاستغفار من قلة معرفة المقامات ، فإن السلطان إذا كان غضبان لا يُسأل منه ، وإذا كان مستبشراً فيكون زمانه زمن العطاء والكرم .

- قلت : هذا في حق الخصوص ، الفاهمين عن الله ، وأما العموم ، فما يناسبهم إلا دوام الدعاء في الرخاء والشدة ، قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ (الأنعام: ٤٣) ، ثم قال عن الوراق : ادعوني على حد الاضطرار والالتجاء ، حيث لا يكون لكم مرجع إليّ سواي ، أستجب لكم . اهـ .^(١)

ودليل الخوف قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(٢)

(آل عمران: ١٧٥)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ وهم ركب عبد قيس حيث قالوا للمسلمين : ﴿ إِنَّ النَّاسَ ﴾ يعنى أبا سفيان ومن معه ، ﴿ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ ليرجعوا ليستأصلوكم ﴿ فَأَخَشَوْهُمْ ﴾ وارجعوا إلى دياركم ﴿ فزَادَهُمْ ﴾ ذلك ﴿ إِيْمَنًا ﴾ وبقيناً وثبتيّاً في الدين ، وهذا يدل على أن الإيمان يزيد وينقص ، فيزيد بحسب التوجه إلى الله والتفرغ مما سواه ، وينقص بحسب التوجه إلى الدنيا وشغبها ، ويزيد أيضاً بالطاعة والنظر والاعتبار ، وينقص

(١) تفسير البحر المديد ٦/٣١٧ ، ٣١٨ .

(٢) قال الله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى دِيَارِهِمْ لَمْ يَأْخُذُوا بِاللَّهِ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٧٣-١٧٥) .

بالمعصية والغفلة والاعتذار . ولما قال لهم الراكب ذلك ليخوفهم ، ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ أي : كافينا الله وحده ، فلا نخاف غيره ، ﴿ وَنَعَمْ أَلَوْ كُنَّا ﴾ أي : نعم من يتوكل عليه العبد ، وهي كلمة يدفع بها ما يخاف ويكره ، وهي الكلمة التي قالها إبراهيم حين ألقى في النار . ﴿ فَأَنْقَلَبُوا ﴾ راجعين من حمراء الأسد ، متلبسين ﴿ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ وهي العافية والسلامة ، ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ وهي زيادة الإيمان وشدة الإيقان ، ﴿ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ ﴾ من جراحة وكيد عدو ، ﴿ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ﴾ ، الذي هو مناط الفوز بخير الدارين ، ﴿ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ فقد تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان ، والتوفيق إلى المبادرة إلى الجهاد مع الرسول ﷺ الذي هو موجب الرضوان . ثم حذرهم الحق تعالى ممن ثبطهم عن الحقوق بالكفار ، وهو ركب عبد القيس ، تشبيهاً لهم بالشیطان ، فقال : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ يخوف أوليائه من المشركين ، أو ﴿ تَخَوَّفَ أَوْلِيَآءَهُ ﴾ القاعدين من المنافقين ، ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾ فإن أمرهم بيدي ، ﴿ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإن الإيمان يقتضي إثارة خوف الله على خوف الناس . . .

الإشارة : أهل القوة من المريدين إذا قيل لهم : إن الناس قد جمعوا لكم ليردوكم أو يؤذوكم فاخشوهم ، زادهم ذلك إيماناً وإيقاناً ، وتحققوا أنهم على الجادة ، لسلوكهم على منهاج من قبلهم ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا ﴾ (العنكبوت: ٢) الآية ، واكتفوا بعلم الله ونظره وبرعايته ونصره ، فانقلبوا بنعمة الشهود ، وفضل الترقى في عظمة الملك الودود ، لم يمسسهم في باطنهم سوء ولا نقصان ، واستوجبوا من الله الرضى والرضوان ، وإنما ذلكم شيطان يردهم عن مقام الشهود والعيان ، فلا ينبغي لهم أن يخافوا ومطلبهم مقام الإحسان ، الذي تبذل في طلبه الأرواح والأبدان . وبالله التوفيق^(١).

(١) تفسير البحر المديد ٤٠٢/١ ، ٤٠٣ .

ودليل الرجاء قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ١١٠) ^(١)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قُلْ ﴾ لهم : ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ يتناهى كلامي ، وينقضي أجلي ، وإنما خصصت عنكم بالوحي والرسالة ﴿ يُوحَىٰ إِلَىٰ ﴾ من تلك الكلمات : ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُهُ وَاحِدٌ ﴾ لا شريك له في الخلق ، ولا في سائر أحكام الألوهية ، ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ : يتوقعه وينتظره ، أو يخافه ، فالرجاء : توقع وصول الخير في المستقبل ، فمن جعل الرجاء على بابه ، فالمعنى : يرجو حسن لقاء ربه وأن يلقاه لقاء رضى وقبول . ومن حمّله على معنى الخوف ، فالمعنى : يخاف سوء لقائه . قال القشيري : حمّله على ظاهره أولى لأن المؤمنين قاطبةً يرجون لقاء الله ، فالعارفون بالله يرجون لقاءه والنظر إليه ، والمؤمنون يرجون لقاءه وكرامته بالنعيم المقيم . اهـ . بالمعنى . والتعبير بالمضارع في ﴿ يَرْجُوا ﴾ للدلالة على أن اللائق بحال المؤمنين : الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء ، أي : فمن استمر على رجاء لقاء كرامة الله ورضوانه ﴿ فَلْيَعْمَلْ ﴾ لتحصيل تلك الطلبة العزيزة ﴿ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ ، وهو الذي توفرت شروط صحته وقبوله ، ومدارها على الإتيان ظاهراً ، والإخلاص باطناً . وقال سهل : العمل الصالح : المقيّد بالسُنّة ، وقيل : هو اعتقاد جواز الرؤية وانتظار وقتها . ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ إشراكاً جلياً ، كما فعل الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا حيث كفروا بآيات ربهم ولقائه ، أو إشراكاً خفياً ، كما يفعلُه أهل الرياء ، ومن يطلب به عوضاً أو ثناءً حسناً . قال شهر ابن حوشب : جاء رجل إلى عبادة بن الصامت ، فقال : أرأيت رجلاً يُصلّي

(١) قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ١١٠).

يبتغى وجه الله ، ويحب أن يُحمد عليه ، ويتصدق يبتغى وجه الله ويحب أن يُحمد عليه ، ويحج كذلك؟ قال عبادة : ليس له شيء ، إن الله تعالى يقول : (أنا خيرُ شريك ، فمن كان له شريك فهو له)^(١) . وروى أن جندب بن زهير قال لرسول الله ﷺ : إني لأعمل العمل لله تعالى ، فإذا اطلع عليه سرّتي ، فقال له عليه الصلاة والسلام : (لك أجران : أجر السرّ ، وأجر العلانية)^(٢) وذلك إذا قصد أن يُقتدى به ، وكان مُخلصاً في عمله . وعنه ﷺ أنه قال : (اتقوا الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر؟ قال : الرياء)^(٣) . وقال ﷺ - لما نزلت هذه الآية - : (إن أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي ، وإياكم وشرك السرائر ، فإنّ الشرك أخفى فى أمتي من ديب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء) ، فشق ذلك على القوم ، فقال النبي ﷺ : (ألا أدلكم على ما يذهب الله عنكم صغير الشرك وكبيره؟ قالوا : بلى ، قال : قولوا : (اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك من كل ما لا أعلم)^(٤) . وعنه ﷺ أنه قال : (من قرأ آخر سورة الكهف - يعنى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلى آخره - كانت له نورا من قرنه إلى قدمه ، ومن قرأها كلّها كانت له نورا من الأرض إلى السّماء)^(٥) . وعنه ﷺ : (من قرأ عند مضجعه : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إلخ ، كان له من مضجعه نورا يتلألأ إلى مكّة ، حشو ذلك النور ملائكة يصلّون حتّى يقوم ، وإن كان بمكة كان له نوراً إلى البيت المعمور) . قلت : ومما جرّب أن من قرأ هذه

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٢٧٦٤) .

(٢) سنن الترمذي (٢٣٨٤) وقال : حسن غريب . قال الألباني : ضعيف .

(٣) قال ﷺ : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا : يا رسول الله وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء . إن الله تبارك وتعالى يقول يوم يجازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء» .

مسند الإمام أحمد (٢٣٦٨١) . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن .

(٤) الأحاديث المختارة للضياء المقدسي (٦٢) قال محققه عبد الملك بن عبد الله ابن دهيش : إسناده ضعيف .

(٥) مسند الإمام أحمد (١٥٦٦٤) . قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلخ ، ونوى أن يقوم في أي ساعة شاء ، فإن الله تعالى يوقظه بقدرته . وانظر الثعلبي .

الإشارة : . . . قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ وحي إلهام ، ويلقى في روعي أنما إلهكم إله واحد ، لا ثاني له في ذاته ولا في أفعاله ، فمن كان يرجو لقاء ربه في الدنيا لقاء الشهود والعيان ، ولقاء الوصول إلى صريح العرفان فليعمل عملاً صالحاً ، الذي لا حظ فيه للنفس عاجلاً ولا آجلاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ، فلا يقصد بعبادته إلا تعظيم الربوبية ، والقيام بوظائف العبودية ، والله تعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(١).

ودليل التوكل قوله تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢)

(المائدة: ٢٣)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله حاكياً عن موسى - عليه السلام - : ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أرض بيت المقدس ، قدسها الله ، حيث جعلها قرار أنبيائه ومسكن المؤمنين . وفي مدحها أحاديث كثيرة . وقيل : الطور وما حوله ، أو دمشق وفلسطين ، أو الشام ، ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي : التي كتب الله في

(١) تفسير البحر المديد ٤/ ٢٠٤-٢٠٦ .

(٢) قال الله عز وجل : ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿٢٠٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى نَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٠٥﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غُلَبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: ٢١-٢٣) .

اللوح المحفوظ ، أنها لكم مسكنًا إن جاهدتم وأطعتم نبيكم ، ﴿ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ ۖ أَي : لا ترجعوا مدبرين هارين خوفًا من الجبابرة ، أو : لا تتردوا عن دينكم بالعصيان ، وعدم الوثوق بالله ، ﴿ فَتَنَقَّلُوا خَسِرِينَ ﴾ الدنيا والآخرة . رُوي أنهم لما سمعوا حالهم من النقباء بكوا ، وقالوا : ليتنا متنا بمصر ، تعالوا نجعل علينا رأسًا ينصرف بنا إلى مصر ، ثم ﴿ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ﴾ أقوىاء متغالبين ، لا طاقة لنا بمقاومتهم ، وهم قوم من العمالقة ، من بقية قوم عاد ، ﴿ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ تَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ بأمر سماوي ، أو يُسلط عليهم من يخرجهم من غيرنا ، ﴿ فَإِن تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾ فيها . ﴿ قَالَ رَجُلَانِ ﴾ كالب بن يوقنا ، ويوشع بن نون - ابن أخت موسى وخادمه - ﴿ مِنَ الَّذِينَ تَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ ﴾ ، أو رجلان من الجبابرة أسلما وصارا إلى موسى ، وعليه قراءة « يُخَافَان » بضم الياء ، ﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ بالإسلام والتثبت ، قالوا : ﴿ أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ﴾ أي : باب المدينة ، أي : باغتهم بالقتال ، ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ﴾ أي : ظاهرون عليهم ، فإنهم أجسام لا قلوب فيها . يحتمل أن يكون علمهما بذلك من قبل موسى ، أو من قوله تعالى : ﴿ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، أو من عادته سبحانه في نصر رسله وأوليائه ، وما عهدا من صنيعه تعالى مع موسى من قهر أعدائه . ثم قال : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ به ، ومصدقين لوعده .^(١)

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (الطلاق: ٣)^(٢)

(١) تفسير البحر المديد ١٦٣/٢ .

(٢) قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۖ ﴾

(الطلاق: ٢، ٣) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ﴾ بأن طَلَّقَ للسُّنَّةِ ، ولم يُضار بالمعتدة ، ولم يُخرجها من مسكنها ، واحتاط في الإشهاد ، وغير ذلك ، ﴿ سَجَّلَ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ مما عسى يقع في شأن الأزواج من الغموم والمضائق ، ويُفَرِّج عنه ما يعتريه من الكروب . روي عن ابن عباس أنه قال لَمَنْ طَلَّقَ ثلاثًا : إنك لم تتق الله ، فبانت منك امرأتك . والمختار : أنَّ الآية عامة ، أي : وَمَنْ يَتَّقِ الله في أقواله وأفعاله وأحواله يجعل له مخرجًا من كرب الدنيا والآخرة . وعن النبي ﷺ أنه قرأها ، فقال : مخرجًا من شبهات الدنيا ، ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم القيامة ، قال ابن جزى : وهذا - أي العموم - أرجح من خمسة أوجه ، الأول : حمل اللفظ على عمومه ، فيدخل فيه الطلاق وغيره . والثاني : روي : أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي ، وذلك أنه أُسر ولده ، وضُيق عليه رزقه ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأمره بالتقوى ، وقال له : أَكْثَرُ من : لا حول ولا قوة إلا بالله . فلم يلبث إلا يسيرًا ، وانطلق ولده ، ووسع عليه رزقه . والثالث : أنه روي عنه ﷺ أنه قال : (إني لأعلمُ آية لو أخذ الناسُ بها لكفّتهم ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ سَجَّلَ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ ^(١) فما زال يكررها ، انظر بقيته . ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أي : من وجوه لا تخطر بباله ولا بحسبه ، ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أي : يكل أمره إليه من غير تعلُّق بغير ، ولا تدبير نفس ، ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ؛ كافيهِ في جميع أموره ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ ﴾ ، بالإضافة في قراءة حفص ، أي : منفذًا أمره ، وبالتنوين والنصب عند غيره ، أي : مبلغ ما يريد ، لا يفوته مُراد ، ولا يعجزه مطلوب . ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ ؛ تقديرًا ، أو توقيتًا ، أو مقدارًا معلومًا ووقتًا محدودًا ، لا يتقدمه ولا يتأخر عنه ، وهذا حث على التوكل وترغيب فيه ، لأنَّ العبد إذا عَلِمَ أنَّ الأمور كلها بيد الله ،

(١) سنن ابن ماجه (٤٢١٠) قال الألباني : ضعيف .

من الرزق وغيره وأنّ لها وقتاً محدوداً لا يُجاوزُه ، توكل عليه ، وانجمع بكليته عليه ، ولم يبقَ له إلّا التسليم للقدّر السابق . قال ابن عطية : في الآية حض على التوكل ، أي : لا بد من نفوذ أمر الله تعالى ، توكلت أيها المرء أم لم تتوكل ، فإنّ توكلت على الله كفاك ، وتعجّلت الراحة والبركة ، وإن لم تتوكل وكَلَّك إلى جحدك وتسخطك ، وأمره نافذ في الوجهين . اهـ .

الإشارة : ومَن يتق الله التقوى الكاملة ، يجعل له من كل مُشكل وشبهة ومتشابه مَخرجاً ، فيَنحلّ له كل ما أشكل على الناس في أمر الدين والدنيا ، ويرزقه من العلوم والأسرار والمعارف ، ما لا يخطر على بال ، من حيث لا يحتسب ، من غير تعلُّم ولا مدرّسة ، وقال القشيري : إذا صدّق العبدُ في تقواه أخرجَه من أشغاله ، كالشعرة من العجين ، لا يتعلّق بها شيء ، يضرب على المتقي سرادقات عنايته ، ويُدخله في كنف الإيواء ويصرف الأشغال عن قلبه ، ويُخرجه عن تدبيره ، ويجرده عن كل شغل ، ويكفيه كل أمر ، وينقله إلى شهود قضاء تقديره . اهـ . وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في هذه التقوى : أن تكون ظاهرة وباطنة ، ظاهرة من المعاصي ، وباطنة من المساوئ والدعاوى ، أمّا مَنْ طهّر ظاهره من المعاصي ، وسدّ الأفق بالدعاوى وإضافة التدبير والاختيار لنفسه ، فلا يقوم خيره بِشَرِّه ، أي : فلا يدخل في الآية . ثم قال : إلّا مَنْ وَطَّن نفسه على الأرياح إلى أيّ وجهة تقلب ، أي : دار مع رياح الأقدار حيث دارت ، ولم يسكن إلى شيء ، وكان ممن قال الله فيه : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ (السجدة: ١٦) ، أتراه منع جنوبهم من مضاجع النوم ، وترك قلوبهم مطضجعة وساكنة لغيره ، بل رفع قلوبهم عن كل شيء ، ولا يضاجعون أسرارهم شيئاً ، فافهم هذا المعنى ، تتجافى جنوبهم عن مضاجعة الاختيار ومنازعة الأقدار ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، فالخوف قَطَعَهُم عن غيره ، وبالشوق إليه أطمعهم فيه ، ومما رزقناهم ينفقون . اهـ . مختصراً . وقوله تعالى : ﴿ وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ قال في الحاشية

الفاسية : أي : يرزقه المقدّر في الأزل من حيث لا مشقة عليه في وصوله إليه ،
 فيأكل ويلبس من غير انتظار ، ولا استشراف نفس ، ولا تعب ، فيخرج له من
 الغيب بالبديهة ما يكفيه عن السؤال ، ومَنْ عَرَفَ اللهَ عَرَفَهُ بكمال قدرته وإحاطة
 علمه بكل ذرة ، فيلقي زمام الاختيار إليه ، فيكفيه كل مؤنة في الدنيا والآخرة ،
 وهو السميع العليم ، وقد قال سهل : التقوى : التبري من الحول والقوة . اهـ .
 ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ الآية قال القشيري : فالله حاسبه ، أي :
 كافيه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ﴾ ، إذا سَبَقَ له شيءٌ من التقدير ، فلا محالة يكون ،
 وفي التوكل لا يتغير المقدور ولا يتأخر ، ولكن المتوكل تكون ثقته بقلبه ،
 غير كارهٍ لما يرد عليه ، وهذا من أجل النعم . ثم قال في موضع آخر : التوكل :
 شهود نفسك خارجاً من المنة ، جارياً عليك أحكام التقدير من غير تدبير منك
 ولا اطلاع لك على حكمه ، فسيبيل العبد : الخمود والرضا دون استعلام الأمر .
 وفي الخبر : (أعوذ بالله من علم لا ينفع) ^(١) ومن جملته : أن يكون قد وقع
 لك شغلٌ ، واستقبلك مهمٌ ، وقد اشتبه عليك وجه التدبير فيه ، وتكون مطالباً
 بالسكون ، فيطلبك العلم ، وتتمنى أن تعرف متى يصلح هذا الأمر ، وبأي
 سبب ؟ وعلى أي وجه ؟ وعلى يد مَنْ ؟ فهذا كله تخليطٌ ، وغير مُسلم شيءٌ
 من ذلك للأكابر ، وهو من العلم الذي يجب التعوذ منه ، فيجب عليك السكون
 والرضا ، فإذا جاء وقت الكشف ، فسترى صورة الحال وتعرفه ، وربما ينظر
 العبد في هذه الحالة تعريفاً في المنام ، أو ينظر في فال من الجامع - أي :
 كتاب وشبهه - أو يرجو بيان حاله ، بأن يجري على لسان مستطق في الوقت ،
 كلُّ هذا تركٌ للأدب ، والله لا يَرْضَى بذلك من أوليائه ، بل الواجبُ
 السكون . اهـ . وقال في القوت : والحسب إلى الحسيب يجعله ما شاء كيف
 شاء ، فقد قيل : ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أي : التوكل حَسْبُهُ من سائر المقامات . ثم

(١) صحيح مسلم (٢٧٢٢) .

قال معرباً باللطافة ، مسلماً للجماعة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ﴾ أي : منفذ حكمه فيمن توكل ، ومن لا يتوكل ، إلا أن من توكل عليه يكون الله - عز وجل - حاسبه ، أي : يكفيه أيضاً منهم الدنيا والآخرة ، ولا يزيد من لم يتوكل عليه جناح بعوضة في قسمه ، كما لا ينقص عليه ذرة من رزقه ، لكن يزيد من توكل عليه هدىً إلى هداه ، ويرفعه مقاماً في اليقين قدر تقواه ، ويعزّه بعزّه ، وينقص من لم يتوكل عليه من اليقين ، ويزيده من التعب والهم ، ويشتت قلبه ، ويشغل فكره ، فالمتوكل عليه يوجب له تكفير السيئات ، ويُلقي عليه رضاه ومحبه في المقامات ، أما الكفاية فقد ضمنتها تعالى لمن صدق في توكله عليه ، والوقاية قد وهبها لمن أحسن تفويضه إليه ، إلا أن الاختيار وعلم الاستتار إليه في الكفاية والوقاية ، يجعل ذلك ما يشاء كيف شاء ، وأين شاء ، من أمور الدنيا وأمور الآخرة ، من حيث يعلم العبد ، ومن حيث لا يعلم ؛ لأن العبد تجري عليه الأحكام في الدارين ، وفقير محتاج إلى الرحمة واللفظ في المكانين . اهـ^(١)

ودليل الرغبة والرغبة والخشوع قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩٠)^(٢).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَ ﴾ اذكر خبر ﴿ زَكْرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ في طلب الولد ، وقال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ وحيداً بلا ولد يرثني ، ثم رد أمره

(١) تفسير البحر المديد ٦٨/٨ - ٧٠ .

(٢) قال الله عز وجل : ﴿ وَزَكْرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۖ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٩ ، ٩٠) .

إليه مستسلمًا ، فقال : ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ ، فحسبي أنت ، وإن لم ترزقني وارثًا فلا أبالي فإنك خير وارث ، ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ دعاءه ، ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مَا يَشَاءُ ﴾ ولدا ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ أي : أصلحناها للولادة بعد عقمها ، أو أصلحناها للمعاشرة بتحسين خلقها . وكانت قبل سيئة الخلق ، ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي : ما تقدم من الأنبياء ، ﴿ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ أي : إنما استحقوا الإجابة إلى مطالبهم ، وأسعفناهم فيما أملوا لمبادرتهم أبواب الخير ، ومسارعتهم إلى تحصيلها ، مع ثباتهم واستقرارهم في أصل الخير كله ، وهو السر في إتيان : « في » ، دون « إلى » ، المشعرة بخلاف المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات ، متوجهين إليها ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٣٣) . ﴿ وَ ﴾ كانوا ﴿ يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ طمعًا وخوفًا ، وهما مصدران في موضع الحال ، أو المفعول له ، أي : راغبين في الثواب أو الإجابة ، وراهبين من العقاب أو الخيبة ، أو للرجبة والرهبة ، ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ متواضعين خائفين ، أي : إنما نالوا هذه المراتب العلية ، واستحقوا هذه الخصوصية لاتصافهم بهذه الأوصاف الحميدة . والله تعالى أعلم.

الإشارة : الغالب في وراثة الخصوصية الحقيقية أن تكون لغير ورثة النسب ، وأما الخصوصية المجازية ، التي هي مقام الصلاح أو العلم ، فقد تكون لورثة النسب ، وتكون لغيرهم . والخصوصية الحقيقية هي مقام الفناء والبقاء ، والتأهل للتربية النبوية ، ولا بأس بطلب وارث هذه الخصوصية ، لئلا ينقطع النفع بها . وقد قيل ، في قول الشيخ ابن مشيش رضى الله عنه : اسمع ندائي بما سمعت به نداء عبدك زكريا ، إنه أشار إلى طلب الوارث الروحاني . والله تعالى أعلم . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ ، فيه إشارة إلى بيان سبب حصول الخصوصية لأن بابها هو المسارعة إلى عمل الخيرات وأنواع الطاعات ، وأوكدها ثلاثة : دوام ذكر الله ، وحسن الظن بالله ، وعباد

اللّه . وفي الحديث : (حصلتان ليس فوقهما شيء من الخير : حسن الظن باللّه ، وحسن الظن بعباد اللّه) . وقوله : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ ، هذه حالة الطالبين المسترشدين المتعطشين إلى اللّه ، يدعونه رغباً في الوصول ، ورهباً من الانقطاع والرجوع ، وقد تكون للواصلين رغباً في زيادة الترقى ، ورهباً من الوقوف أو الإبعاد . وقال بعضهم : الرغبة والرهب حاصلتان لكل مؤمن ، إذ لو لم تكن رغبة لكان قنوطاً ، وهو كفر ، ولو لم تكن رهبة لكان أمناً ، والأمن كفر . واللّه تعالى أعلم .^(١)

ودليل الخشية قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ (البقرة: ١٥٠) .^(٢)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : وإنما أمرتكم بالتوجه إلى الكعبة دون الصخرة لندفع حجج الناس ، فإن اليهود ربما قالوا : المنعوت في التوراة قبلته الكعبة ، وهذا يستقبل الصخرة ، أو إن محمداً يخالف ديننا ويستقبل قبلتنا . والمشركون ربما قالوا : يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته ، فأمرتكم باستقبال القبلة دفعاً لحجج الناس ، إلا المعاندين منهم فلا ينقطع شغبهم ، فإنهم يقولون : ما تحول إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومهم ، وحباً لبلده ، أو بدا له فرجع إلى قبلة آبائه ، ويوشك أن يرجع إلى دينهم . فلا تخافوهم ولا تلتفتوا إلى مطاعنهم ، فإنها لا تضركم ، ﴿ وَاخْشَوْنِي ﴾ أكفكم شرهم ، فإن من خافني خاف منه كل شيء ، ومن لم يخشني خاف من كل شيء ، وأمرتكم أيضاً بالتوجه إلى قبلة جدكم ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا بِنِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ بإقرار عين نبيكم ، وإرادة

(١) تفسير البحر المديد ٣٧٧/٤ ، ٣٧٨ .

(٢) قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لَعَلَّكُمْ تَكُونُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تُؤْمِنُوا بِنِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٠)

اهتدائكم ، فاشكروا ما أوليتكم ، واذكروا ما به أنعمت عليكم أزدكم من فضلي وإحساني ، وأسبغ عليكم إنعامي وامتناني .

الإشارة : من حكمة المدير الحكيم أن دبر ملكه العظيم ، ووجه كل فرقة بوجهة من مصالح عباده ، أقامهم فيها وولاهم إياها . فقوم اختصهم لمحبتهم واصطفاهم لحضرته وهم العارفون ، وقوم أقامهم لخدمته وأفناهم في عبادته وهم العباد والزهاد ، وقوم أقامهم لحمل شريعته وتمهيد دينه وهم العلماء العاملون ، وقوم أقامهم لحفظ كتابه رسماً وتلاوةً وتفهماً وهم القراء والمفسرون ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)، وقوم أقامهم لتسكين الفتن ودفع المظالم والمحن وهم الحكام ومن يستعان بهم في تلك الوجهة ، وقوم أقامهم لحفظ نظام الحكمة وهم القائمون بالأسباب الشرعية على اختلاف أنواعها وتعدد فروعها ، وقوم أعدهم لظهور حلمه وعفوه فيهم وهم أهل المعاصي والذنوب ، وقوم أعدهم للانتقام وظهور اسمه القهار وهم أنواع الكفار . فكل وجهة من هؤلاء توجهت لحق شرعي أقامتها القدرة فيه ، وحكم بها القضاء والقدر ، إلا أن القسمين الأخيرين لا تقرهما الشريعة . فلو حسنت المقاصد لكان الكل عمالاً لله ، فيقال لهم : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ بتحسين المقاصد والنيات ، وبادروا إلى الطاعات قبل هجوم هادم اللذات ، أينما تكونوا يجمعكم للحساب ، وتُعابنوا جزاء ما أسلفتم من عذاب أو ثواب ، ومن حيث خرجت أيها العارف فولّ وجهتك وكليتك لمسجد الحضرة باستعمال الفكرة والنظرة ، فإنها حق وما سواها باطل ، كما قال الشاعر :

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطلٌ وكلّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ .

وحيثما كنتم أيها العارفون فولوا وجوهكم إلى قبلة تلك الحضرة ، واعبدوا ربكم بعبادة الفكرة ، فإنها صلاة القلوب ، ومفتاح ميادين الغيوب ، وفي ذلك يقول القائل :

يَا قِبْلِي فِي صَلَاتِي إِذَا وَقَفْتُ أَصَلِّي .
جَمَالِكُمْ نُصَب عَيْنِي إِلَيْهِ وَجْهْتُ كُلِّي .

فإذا تحققت بهذه الحضرة ، وتحصنتم بحصن الشهود والنظرة ، انقطع عنكم حجب خصيم النفس والجنس ، وتنزهتم في رياض القرب والأنس ، إلا الخواطر التي تحوم على القلوب ، فلا تقدح في مشاهدة الغيوب ، فلا تخافوا غيري ، ولا تتوجه همتكم إلا لإحساني وبري فلاني أتم عليكم نعمتي ، وأرشدكم إلى كمال معرفتي ، وأتحفكم بنصري ومعاونتي .^(١)

ودليل الإنابة قوله تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ (الزمر: ٥٤) ^(٢)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي : أفرطوا في الجناية عليها ، بالإسراف في المعاصي ، والغلو فيها ، ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ : لا تيأسوا من مغفرته أولاً ، وتفضل به بالرحمة ثانياً ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ، بالعفو عنها ، إلا الشرك . وفي قراءة النبي ﷺ : (يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي) ^(٣) لكنها لم تتواتر عنه . والمغفرة تصدق بعد التعذيب وقبله ، وتقبيده بالثوبة خلاف الظاهر ، كيف ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (النساء: ٤٨) ظاهر في الإطلاق مما عدا الشرك ؟ ولما يدل عليه التعليل بقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ على المبالغة ، وإفادة الحصر ، والوعد بالرحمة

(١) تفسير البحر المديد ١/١٥٥ ، ١٥٦ .

(٢) قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (الزمر: ٥٣، ٥٤) .

(٣) سنن الترمذي (٣٢٣٧) وقال : حسن غريب . قال الألباني : ضعيف الإسناد .

بعد المغفرة . وما في ﴿عِبَادِي﴾ من الدلالة على الذلة والاختصاص ،
المقتضيين للترحم . ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ﴾ يستر عظام الذنوب ﴿الرَّحِيمُ﴾
يكشف فظائع الكروب . والآية ، وإن نزلت في «وحشي» ، قاتل «حمزة» ،
أو في غيره ، لا تقتضي التخصيص بهم ، فإن أسباب النزول لا تخصص . وعن
النبي ﷺ : (ما أحبُّ أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية)^(١) . ولما نزلت في شأن
وحشي ، وأسلم ، قال المسلمون : هذه له خاصة ، أو للمسلمين عامة ؟ فقال
النبي ﷺ : (بل هي للمسلمين عامة)^(٢) . وقال قتادة : إن ناساً أصابوا ذنباً
عظماً ، فلما جاء الإسلام أشفقوا ألا يتاب عليهم ، فدعاهم الله تعالى بهذه
الآية^(٣) . وقال ابن عمر : نزلت هذه الآيات في عياش بن أبي ربيعة ، والوليد
ابن الوليد ، ونفرا كانوا قد أسلموا ثم فُتِنوا ، فكنا نقول : لا يقبل الله منهم صرفاً
ولا عدلاً ، فنزلت الآية ، وكان عمر بن الخطاب كاتباً ، فكتبها بيده ، ثم بعث
بها إلى عياش بن أبي ربيعة والوليد ، وإلى أولئك النفر ، فأسلموا ، وهاجروا .
قال علي رضي الله عنه : ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية . فما يُقنط الناس
ويشدد عليهم بعد هذه الآية إلا جهول ، أو جامد . قال زيد بن أسلم : إن رجلاً
كان في الأمم الماضية مجتهداً في العبادة ، فيشدد على نفسه ، ويقنط الناس من
رحمة الله ، فمات ، فقال : أي رب مالي عندك؟ فقال : النار . فقال : يا رب أين
عبادتي؟ فقال : إنك كنت تُقنط الناس من رحمتي في الدنيا ، فاليوم أفتطك من
رحمتي . وعن علي - كرم الله وجهه - قال : الفقيه كل الفقيه الذي لا يقنط
الناس من رحمة الله ، ولا يؤمنهم من عذاب الله ، ولا يرخص لهم في معاصي
الله . اهـ . ثم حضَّ على التوبة لتحقيق المغفرة ، فقال : ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾
أي : ارجعوا إليه بالتوبة والإخلاص . فالإنابة أخص من التوبة لأن التوبة : مطلق

(١) مسند الإمام أحمد (٢٢٤١٦) قال شعيب الأرنؤوط : إسناده ضعيف .

(٢) الدر المنثور للسيوطي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) صحيح البخاري (٤٥٣٢) .

الندم على الزلة ، والإنابة : تحقيق التوبة والنّهوض إلى الله بإخلاص التوجه .
 قال ﷺ: (من السعادة أن يطول عمر الرجل ويرزقه الله الإنابة)^(١) قال القشيري :
 وقيل الفرق بين الإنابة والتوبة : أن التائب يرجع خوفاً من العقوبة ، والمنيب
 يرجع حياءً منه تعالى . اهـ . والأمر بالتوبة لا يدل على تقييد المغفرة في الآية
 بها ، كما تقدم إذ ليس المدعى : أن الآية تدل على حصول المغفرة لكل أحد
 من غير توبة وسبق تعذيب ، حتى يغنى عن الأمر بها ، وإنما المراد : الإخبار
 بسعة غفرانه ، سواء كان مع التوبة أم لا . قال ابن عرفة : واعلم أن التوبة من
 الكفر مقطوع بها ، ومن المعاصي ، قيل : مظنونة ، وقيل : مقطوع بها ، هذا في
 الجملة ، وأما في التعيين ، كتوبة زيد بن عمرو ، فلا خلاف أنها مظنونة . اهـ .
 قلت : قد اقترن بتوبة زيد من الأخبار ما يقطع بصحتها . ثم قال : وأما العاصي
 إذا لم يتب فهو في المشيئة ، مع تغليب جانب الخوف والعقوبة ، واعتقاد أن
 العذاب أرجح ، وأما العصيان بالقتل ، ففيه خلاف بين أهل السنة ، فقيل : يخلد
 في النار ، وقيل : في المشيئة . اهـ . وقال أبو الحجاج الضرير رحمه الله :

وتوبة الكافر تحوإثمه لا خلاف فيه بين الأئمة .
 وتوبة العاصي على الإرجاء وقيل كالأول بالسواء .
 إذ لا يكون دونه في الحال وهو عندي أحسن الأقوال .
 دليله : تتابع الظواهر شاملة مسلم وكافر . اهـ .

﴿ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ أي : اخضعوا له ، وانقادوا لأمره . قال القشيري : أي :
 أخلصوا في طاعتكم ، والإسلام - الذي هو الإخلاص بعد الإنابة - : هو أن يعلم
 نجاته بفضلِه ، لا بإنابته بفضلِه يصل إلى إثابته ، لا بإنابته يصل إلى فضلِه . اهـ .
 ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ﴾ في الدنيا ، أو في الآخرة ، إن لم تتوبوا قبل

(١) المستدرک علی الصحیحین (٧٦٠٢) قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم
 يخرجاه .

نزول العقاب . قال القشيري : العذاب هنا ، قيل : الفراق ، وقيل : هو أن يفوته وقت الرجوع بسوء الإياس . اهـ . ﴿ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ : لا تمنعون منه أبداً .

الإشارة : لا يعظم عندك الذنب عظمة تصدك عن حسن الظن بالله ، فإن من استحضر عظمة ربه صغر في عينه كل شيء . وتذكر قضية الرجل الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً ، ثم سأل راهباً : هل له توبة ؟ فقال : لا ، فكمل به المائة ، ثم سأل عارفاً ، فقال له : ومن يحول بينك وبينها ؟ لكن اخرج من القرية التي كنت تعصي فيها ، واذهب إلى قوم يعبدون الله في مكان ، فذهب ، فأدركه الموت في الطريق ، فلما أحسّ بالموت انحاز بصدرة إلى القرية التي قصدها ، ثم مات ، فاختصمت فيه ملائكة العذاب وملائكة الرحمة ، فقال لهم الحق تعالى : قيسوا من القرية التي خرج منها ، إلى القرية التي قصدها ، فإلى أيهما هو أقرب هو منها ؟ فوجدوه أقرب إلى القرية التي قصدها بشبر ، فأخذته ملائكة الرحمة^(١) . إلى غير ذلك من الحكايات التي لا تحصى في هذا المعنى . وتأمل قضية الشاب الذي أتى النبي ﷺ يبكي ، فقال : ما يبكيك ؟ قال : ذنوبي . فقال له عليه السلام : إن الله يغفر ذنوبك ، ولو كانت مثل السماوات السبع ، والأرضين السبع ، والجبال الرواسي ، فقال : يا رسول الله ، ذنب من ذنوبي أعظم من السماوات السبع والأرضين السبع ، فقال له : ذنوبك أعظم أو العرش ؟ قال : ذنوبي ، فقال له : ذنوبك أعظم أو الكرسي ؟ قال : ذنوبي ، فقال له : ذنوبك أعظم أو إلهك ؟ فقال : الله أعظم ، فقال : فأخبرني عن ذنبك . قال : إني أستحيي ، فقال : فأخبرني ، فقال : إني كنت تباشراً أنبش القبور منذ سبع سنين ، حتى ماتت جارية من بنات الأنصار ، فنبشتها ، وأخرجتها من كفنها ، فمضيت ، ثم غلبني الشيطان ، فرجعت ، فجامعتها ، فقامت الجارية ، وقالت : الويل لك يا شاب من ديان يوم الدين ، يوم يضع كرسيه للقضاء ، يأخذ من الظالم للمظلوم ، تركتني عريانة في عساكر الموتى ، وأوقفتني جنباً بين يدي الله ،

(١) صحيح البخاري (٣٢٨٢) ، صحيح مسلم (٢٧٦٦) .

فقام النبي ﷺ وهو يضرب في قفاه ، وهو يقول : يا فاسق ، اخرج ، ما أقربك من النار ، فخرج الشاب تائباً إلى الله تعالى ، حتى أتى عليه ما شاء الله ، ثم قال : يا إله محمد وآدم وحواء ، إن كنت غفرت لي فأعلم محمدًا وأصحابه ، وإلا فأرسل عليَّ ناراً من السماء فأحرقني بها ، ونجني من عذاب الآخرة ، فجاء جبريل ، فقال : السلام يقرئك السلام ، فقال : هو السلام وإليه يعود السلام ، قال : يقول : أنت خلقت خلقي ؟ قال : بل هو الذي خلقهم . قال : يقول : ترزقهم ؟ قال : بل هو الذي يرزقهم ، قال : يقول : أنت تتوب عليهم ؟ قال : بل هو الذي يتوب عليهم . قال : فتب على عبدي ، فإني تبُّتُ عليه ، فدعا النبي ﷺ الشاب ، وتاب عليه ، وقال : إن الله هو التواب الرحيم . اهـ . ذكره السمرقندي والثعلبي^(١) .

ودليل الاستعانة قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

(الفاخرة: ٥)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

قلت : ﴿إِيَّاكَ﴾ مفعول ﴿نَعْبُدُ﴾ ، وقُدِّمَ للتعظيم والاهتمام به ، والدلال على الحصر ، ولذلك قال ابن عباس : (نَعْبُدُكَ ولا نعبد معك غيرك) ، ولتقديم ما هو مقدَّم في الوجود وهو الملك المعبود ، وللتبنيه على أن العابد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود أولاً بالذات ، ومنه إلى العبادة ، لا من حيث إنها عبادة صَدَرَتْ عنه ، بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه ، ووُصِّلَ بينه وبين الحق ، فإن العارف إنما يَحِقُّ وصوله إذا استغرق في ملاحظة جناب القدس ، وغاب عما عداه ، حتى إنه لا يلاحظ نفسه ولا حالاً من أحوالها إلا من حيث إنها تَجَلَّى من تجلياته ومظهرٌ لربوبيته ، ولذلك فضل ما حكى الله عن حبيبه حين قال :

(١) تفسير البحر المديد ٦/٢٧٢-٢٧٥ .

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة: ٤٠) ، على ما حكاه عن كليمه حيث قال :
﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء: ٦٢) أي : حيث صرّح بمطلوبه ، و﴿ وَإِيَّاكَ ﴾
مفعول ﴿ فَتَسْتَعِينُ ﴾ وقدّم أيضاً للاختصاص والاهتمام ، كما تقدم في
﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ . وكرّر الضمير ولم يقل : إياك نعبد ونستعين لأن إظهاره
أبلغ في إظهار الاعتماد على الله ، وأقطع في إحضار التعلق بالله والإقبال على
الله وأمدح ، ألا ترى أن قولك : بك أنتصر وبك أحتمي وبك أنال مطالبي -
أبلغ وأمدح من قولك : بك أنتصر وأحتمي . . . إلخ ؟ . وقدّم العبادة على
الاستعانة ليتوافق رؤوس الآي ، وليعلم منه أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة
أدعى إلى الإجابة ، فإن من تلبّس بخدمة الملك وشرع فيها بحسب وسعّه ، ثم
طلب منه الإعانة عليها أجيب إلى مطلبه ، بخلاف من كلفه الملك بخدمته ،
فقال : أعطني ما يعينني عليها ، فهو سوء أدب ، وأيضاً : من استحضر
الأوصاف العظام ما أمكنه إلا المسارعة إلى الخضوع والعبادة ، وأيضاً : لما
نسب المتكلم العبادة إلى نفسه أوهم ذلك تبجحاً واعتداداً منه بما يصدر عنه
فعقبه بقوله : ﴿ وَإِيَّاكَ فَتَسْتَعِينُ ﴾ ، دفعاً لذلك التوهم .

والعبادة : أقصى غاية الخضوع والتذلل ، ومنه طريق مُعَبَّد ، أي : مُدَلَّل ،
والاستعانة : طلب المعونة ، والمراد طلب المعونة في المهمات كلّها ، أو في
أداء العبادات . والضمير المستتر في الفعلين للقارئ ومن معه من الحفظة
وحاضري صلاة الجماعة ، أو له ولسائر الموجودين . أدرج عبادته في
تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم لعلها تقبل ببركتها ويجاب إليها ،
ولهذا شرعت الجماعة . قاله البيضاوي : يقول الحق جل جلاله ، متميماً لتعليم
عباده : فإذا أثبتتم عليّ ومجدتموني وعظمتُموني فأقروا لي بالربوبية ، وأظهروا
من أنفسكم العبودية ، واطلبوا مني العون في كل وقت وقولوا : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ فَتَسْتَعِينُ ﴾ ، وكأنه - جل جلاله - لما ذكر أنه مستحق للمحامد كلها
قديمها وحديثها لأنه رب العوالم وقيومها ، أصل الأصول وفروعها ، أنعم عليها

أولاً بالإيجاد ، وثانياً بتوالي الإمداد ، فهو مالکها على الإطلاق ، ذکر أنه لا يستحق أن يُعبد سواه إذ لا مُنعم على الحقيقة إلا الله ، فهو أحق أن يُعبد ، وأولى أن يفرد بالوجهة والقصد ، لأنه مُستبَدُّ وغير مُستَمَدٍّ ، والمادة من عين الجود ، فإذا انقطعت المادة انعدم الوجود . قال البيضاوي : ثم إنه لما ذکر الحقيق بالحمد ، ووصف بصفات عظام تميّز بها عن سائر الذوات ، وتعلّق العلمُ بمعلوم معين ، خوطب بذلك ، أي : يا من هذا شأنه نخصّك بالعبادة والاستعانة ، ليكون أدل على الاختصاص ، وللترقى من الغيبة إلى الشهود ، وكأن المعلوم صار عياناً ، والمفعول مُشاهدًا ، والغيبة حضوراً . بنى أول الكلام على ما هو مبادئ حال العارف من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه ، والنظر في آلائه ، والاستدلال بصنائه على عظيم شأنه وباهر سلطانه ، ثم قفى بما هو منتهى أمره ، وهو أن يخوض لُجّة الوصول ، ويصير من أهل المشاهدة ، فيراه عياناً ويناجيه شفاهاً . اللهم اجعلنا من الواصلين إلى العين دون التابعين للأثر . ومن عادة العرب التفتن في الكلام والعدول عن أسلوب إلى آخر ، تطريةً وتنشيطاً للسامع ، فتعدّل من الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التكلم ، كقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ ﴾ (يونس: ٢٢) ولم يقل (بكم) وقوله : ﴿ أَرْسَلَ الرَّبِّيعَ فَثَبِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ ﴾ (فاطر: ٩) . . . انظر تمام كلامه . والالتفات هذا في قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ولم يقل : إياه نعبد لأن الظاهر من قبل الغيبة ، وحسنه أن الموصوف تعيّن وصار حاضراً . قال الأقلشيشي : فهذه الآية هي التي قال فيها النبي ﷺ : (إذا قال العبد : إياك نعبد وإياك نستعين ، يقول الله تعالى : هذه بيني وبين عبدي ولعبدني ما سألت) (١) . معناه : أي عبد توجه إليّ بالعبادة وسألني العون عليها فعبادته متقبلة ، والعون مني له عليها حاصل حتى يوقعها على وجهها ، فالعبادة وصف العبد ، والعون من الله تعالى للعبد ، فلهذا قال : (فهذه بيني وبين عبدي) . قال ابن جزى : أي

(١) صحيح مسلم (٣٩٥) .

نطلب العون منك على العبادة وعلى جميع أمورنا ، وفى هذا دليل على بطلان قول القدرية والجبرية ، وأن الحق بين ذلك .

الإشارة : لمّا تجلّى الحق جل جلاله من عالم الجبروت إلى عالم الملكوت ، وحمد نفسه بنفسه ، تجلّى أيضاً وتنزّل من عالم الملكوت إلى عالم الملك بقدرته وحكمته لإظهار آثار أسمائه وصفاته ، فأظهر العبودية وأخفى الربوبية ، أظهر الحكمة وأبطن القدرة ، فجعل عالم الحكمة يخاطب عالم القدرة ، ويخضع له ، ويتعبد ويستمد ، منه الإعانة والهداية ، ويتحرز من طريق الضلالة والغواية . فعالم الحكمة محل التكليف ، وعالم القدرة محل التصريف ، عالم الحكمة عالم الأشباح ، وعالم القدرة عالم الأرواح ، فإياك نعبد لأهل عالم الحكمة ، وإياك نستعين لأهل عالم القدرة . ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسى رضي الله عنه : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ شريعة ، و ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ حقيقة ، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إسلاماً ، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ إحساناً ، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ عبادة ، و ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ عبودية ، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فرق ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ جمع . اهـ . وإن شئت قلت : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ لأهل العمل لله وهم المخلصون ، ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ لأهل العمل بالله وهم الموحّدون ، العمل لله يوجب المثوبة ، والعمل بالله يوجب القربة ، العمل لله يوجب تحقيق العبادة ، والعمل بالله يوجب تصحيح الإرادة ، العمل لله نعت كلّ عابد ، والعمل بالله نعت كل قاصد ، العمل لله قيامٌ بأحكام الظواهر ، والعمل بالله قيامٌ بإصلاح الضمائر . قاله القشيري . ثم إنّ الناس في شهود القدرة والحكمة على ثلاثة أقسام : قسم حُجبوا بالحكمة عن شهود القدرة ، وهم أهل الحجاب من أهل الغفلة ، وقفوا مع قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، وقسم حُجبوا بشهود القدرة عن الحكمة ، وهم أهل الفناء ، وقفوا مع قوله : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وقسم لم يحجبوا بالحكمة عن القدرة ولا بالقدرة عن الحكمة ،

أعطوا كل ذي حق حقه ووفّوا كل ذي قسط قسطه ، وهم أهل الكمال من أهل البقاء ، جمعوا بين قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وباللّٰه التوفيق^(١).
وفي الحديث : (إذا استعنت فاستعن بالله)^(٢)

شرح الحديث :

قال ابن علان^(٣) :

(وإذا استعنت) أي : طلبت الإعانة على أمرٍ من أمور الدارين (فاستعن بالله) لأنه القادرُ على كل شيء وغيره عاجزٌ عن كل شيء ، فمن أعانه تعالى فهو المُعان ومن خذله فهو المخذول ، ومن ثمَّ كانت (لاحول ولا قوة إلا بالله) كنزاً من كنوز الجنة^(٤) لتضمنها براءة النفس من حولها وقوتها ، إلى حوله وقوته . وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز : لا تستعن بغيره تعالى يكلِّك الله إليه^(٥).

ودليل الاستعاذة قوله تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (الفلق: ١)^(٦).

(١) البحر المديد ١/٣٣-٣٦ .

(٢) سنن الترمذي (٢٥١٦) وقال : حسن صحيح . قال الألباني : صحيح .

(٣) هو محمد علي بن محمد علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي (٩٩٦-١٠٥٧هـ ، ١٥٨٨ - ١٦٤٧م) : مفسر ، عالم بالحديث ، من أهل مكة . له مصنفات ورسائل كثيرة ، منها (ضياء السيل) في التفسير ، و(دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين) ثمانية أجزاء ، في شرح (رياض الصالحين) للنووي ، و (المواهب الفتحية على الطريقة المحمدية) في التصوف ، و(الفتوحات الربانية على الأذكار النووية) . انظر : خير الدين الزركلي «الأعلام» (٢٩٣/٦).

(٤) صحيح مسلم (٢٧٠٤) .

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ١/١٩٧ .

(٦) قال الله عز وجل : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق: ١-٥) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ أي :
أَتَحَصَّنَ وَأَسْتَجِيرُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . والفلق : الصُّبْح ، كالفرق ، لأنه يفلق عنه الليل ،
فعل بمعنى مفعول . وقيل : هو كل ما يفلقه الله تعالى ، كالأرض عن النبات ،
والجبال عن العيون ، والسحاب عن الأمطار ، والحب والنوى عما يخرج منهما ،
والبطون والفروج عما يخرج منهما ، وغير ذلك مما يفلق ويخرج منه شيء .
وقيل : هو جب في جهنم ، وفي تعليق العياذ بالرب ، المضاف إلى الفلق ،
المنبئ عن النور بعد الظلمة ، وعن السعة بعد الضيق ، والفتق بعد الرتق ، عِدَّة
كريمة بإعادة العامة مما يتعوذ منه ، وإنجائه منه وفَلَقَ ما عقد له من السحر
وانحلاله عنه ، وتقوية رجائه بتذكير بعض نظائره ، ومزيد ترغيب في الاعتناء
بقرع باب الالتجاء إلى الله تعالى . ثم ذكر المتعوذ منه فقال : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾
من الثقلين وغيرهم ، كائنًا ما كان ، وهذا كما ترى شامل لجميع الشرور
الجمادية ، والحيوانية ، والسماوية ، كالصواعق وغيرها . وإضافة الشر إليه
- أي : إلى كل ما خلق - لاختصاصه بعالم الخلق ، المؤسس على امتزاج المواد
المتباينة ، وتفاصيل كيفياتها المتضادة المستتعبة للكون والفساد في عالم
الحكمة ، وأما عالم الأمر فهو منزّه عن العلل والأسباب ، والمراد به : كن
فيكون .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ تخصيص لبعض الشرور بالذكر ،
بعد اندراجهِ فيما قبله ، لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه ، لكثرة وقوعه ،
أي : ومن شر الليل إذا أظلم واشتد ظلامه ، كقوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾
(الإسراء: ٧٨) وأصل الغسق : الامتلاء . يقال : غسقت عينيه إذا امتلأت دمعا ،
وَوَسَّقُ اللَّيْلِ : انضباب ظلامه . وقوله : ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ أي : دخل ظلامه ، وإنما
تعوذ من الليل لأنه صاحب العجائب ، وقيل : الغاسق : القمر ، ووقوبه : دخوله

في الكسوف واسوداده ، لما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : (أخذ رسول الله ﷺ بيدي ، وقال : تعوذني بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب) ^(١) وقيل : وقوب القمر : محاقه في آخر الشهر ، والمنجمون يعدونه نحساً ، ولذلك لا تستعمل السحرة السحر المورث للمرض إلا في ذلك الوقت ، قيل : وهو المناسب لسبب النزول ، وقيل : الغاسق : الشريا ، ووقوبها : سقوطها ، لأنها إذا سقطت كثرت الأمراض والطواعين ، وقيل : هو كل شر يعتري الإنسان ، ووقوبه هجومه ، فيدخل فيه الذكر عند الشهوة المحرمة وغيره . ﴿ وَمِنْ شَرِّ أَلْفَيْتٍ فِي الْعَقَدِ ﴾ أي : ومن شر النفوس ، أو : النساء النفاثات ، أي : السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط ، وينفثن عليها ، والنفث : النفخ مع ريق ، وقيل : بدون ريق ، وتعريفها إما للعهد الذهني ، وهن بنات لبيد ، أو : للجنس ، لشمول جميع أفراد السواحر ، وتدخل بنات لبيد دخولاً أولياً . ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه ، بترتيب مقدمات الشر ، ومبادئ الإضرار بالمحسود ، قولاً وفعلًا ، والتقيد بذلك ؛ لأن ضرر الحسد قبله إنما يحقق بالحاسد . . .

الإشارة : الفلق هو النور الذي انفلق عنه بحر الجبروت ، وهي القبضة المحمدية ، التي هي بذرة الكائنات ، فأمر الله بالتعوذ بربها الذي أبرزها منه ، من شر كل ما يشغل عن الله ، من سائر المخلوقات ، ومن شر ما يهجم على الإنسان ، ويقوم عليه من نفسه وهواه وغضبه وسخطه ، ومن شر ما يكيده من السحرة أو الحساد . والحسد مذموم عند الخاص والعام ، فالحسود لا يسود . وحقيقة الحسد : الأسف على الخير عند الغير ، وتمني زواله عنه ، وأما تمني مثله مع بقاءه لصاحبه فهي الغبطة ، وهي ممدوحة في الكمالات ، كالعلم والعمل ، والذوق والحال . وبالله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله ^(٢) .

(١) سنن الترمذي (٣٣٦٦) وقال : حسن صحيح . قال الألباني : حسن صحيح .

(٢) تفسير البحر المديد ٣٧٥/٨ ، ٣٧٦ .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ (الناس: ١) ^(١)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جلّ جلاله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ مريّهم ومصلحهم ،
﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ مالِكهم ومدير أمورهم . وهو عطف بيان جيء به لبيان أنّ
تربيته تعالى ليست بطريق تربية سائر الملائكة لما تحت أيديهم من ممالكهم ،
بل بطريق الملك الكامل ، والتصرّف التام ، والسلطان القاهر . وكذا قوله تعالى :
﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ فإنه لبيان أنّ ملكه تعالى ليس بمجرد الاستيلاء عليهم ، والقيام
بتدبير أمور سياستهم ، والمتولّي لترتيب مبادئ حفظهم وحمايتهم ، كما هو
قصرى أمر الملوك ، بل هو بطريق العبودية ، المؤسسة على الألوهية ،
المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي فيهم ، إحياء وإماتة ، وإيجاداً
وإعداماً ، وتخصيص الإضافة إلى الناس مع انتظام جميع العالمين في سلك
ربوبيته تعالى وملكوته وألوهيته للإرشاد إلى مناهج الاستعاذة المرضية عنده
تعالى ، الحقيقة بالإعادة ، فإنّ توسل العبد بربه ، وانتسابه إليه تعالى بالمربوبية
والملكية والمعبودية ، في ضمن جنس هو فرد من أفراد ، من دواعي الرحمة
والرأفة . وأمره تعالى بذلك من دلائل الوعد الكريم بالإعادة لا محالة ، ولأنّ
المستعاذ منه شر الشيطان ، المعروف بعداوتهم ، مع التنصيص على انتظامه في
سلك عبوديته تعالى وملكوته ، رمز إلى إنجائهم من ملكة الشيطان وتسّلطه
عليهم ، حسبما ينطق به قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَكُنَّ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنٌ ﴾
(الإسراء: ٦٥) فمن جعل مدارّ تخصيص الإضافة مجرد كون الاستعاذة من

(١) قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ مِنْ شَرِّ
الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ ﴿
(الناس: ١-٦) .

المضار المختصة بالنفوس البشرية فقد قصر في توفية المقام حقه ، وتكرير المضاف إليه لمزيد الكشف والتقرير والتشريف . قاله أبو السعود . والآية من باب الترقي ، وذلك أن الرب قد يُطلق على كثير من الناس ، فتقول : فلان رب الدار ، وشبه ذلك ، فبدأ به لاشتراك معناه ، وأمّا المَلِكُ فلا يُوصف به إلاّ آحاد من الناس ، وهم الملوك ، ولا شك أنهم أعلى من سائر الناس ، فلذلك جيء به بعد الرب ، وأمّا الإله فهو أعلى من المَلِكِ ، ولذلك لا يدّعي الملوك أنهم آلهة ، وإنما الإله واحد لا شريك له ولا نظير . قاله ابن جزى . ﴿ مِنْ شَرِّ أَلْوَسَوَاسٍ ﴾ أي : الموسوس ، فالوسواس مصدر ، كالزلزال ، بمعنى اسم الفاعل ، أو سمي به الشيطان مبالغةً ، كأنه نفس الوسوسة ، و ﴿ أَلْحَنَاسٍ ﴾ الذي عادته أن يخنس ، أي : يتأخر عند ذكر الإنسان ربّه ، ﴿ أَلَّذِي يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ إذا غفلوا عن ذكر الله ، ولم يقل : في قلوب الناس ؛ لأنّ الشيطان محله الصدور ، ويمدّ منقاره إلى القلب ، وأمّا القلب فهو بيت الرب ، وهو محل الإيمان ، فلا يتمكن منه كل التمكن ، وإنما يحوم في الصدر حول القلب ، فلو تمكّن منه لأفسد على الناس كلهم إيمانهم . قال ابن جزى : وسوسة الشيطان بأنواع كثيرة ، منها : فساد الإيمان والتشكيك في العقائد ، فإن لم يقدر على ذلك ثبّطه عن الطاعات ، فإن لم يقدر على ذلك أدخل الرياء في الطاعات ليحبّطها ، فإن سلّم من ذلك أدخل عليه العجب بنفسه ، واستكثار عمله ، ومن ذلك : أنه يُوقد في القلب نار الحسد والحقد والغضب ، حتى يقود الإنسان إلى سوء الأعمال وأقبح الأحوال ، وعلاج وسوسته بثلاثة أشياء ، وهي : الإكثار من ذكر الله ، والإكثار من الاستعاذة منه ، ومن أنفع شيء في ذلك : قراءة سورة الناس . اهـ . قلت : لا يقلع الوسوسة من القلب بالكلية إلاّ صحبة العارفين ، أهل التربية ، حتى يدخلوه مقام الفناء ، وإلاّ فالخواطر لا تنقطع عن العبد ، ثم بيّن الموسوس بقوله : ﴿ مِنْ أَلْحِنَّةٍ ﴾ أي : الجن ﴿ وَالنَّاسِ ﴾ ووسواس الناس أعظم ؛ لأنّ وسواس الجن يذهب بالتعوّد ، بخلاف وسوسة

الناس ، والمراد بوسوسة الناس : ما يدخلون عليك من الشُّبه في الدين ، وخوض في الباطن ، أو سوء اعتقاد في الناس ، أو غير ذلك . قال ابن جزى : فإن قلت : لِمَ ختم القرآن بالمعوذتين ، وما الحكمة في ذلك ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه ، الأول : قال شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير : لَمَّا كان القرآن من أعظم نعم الله على عباده ، والنعمة مظنة الحسد ، ختم بما يُطفئ الحسد ، من الاستعاذة بالله . الثاني : يظهر لي أنَّ المعوذتين ختم بهما لأنَّ رسول الله ﷺ قال فيهما : (أنزلت علي آيات لم ير مثلهن قط) ^(١) كما قال في فاتحة الكتاب : (لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها) ^(٢) فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها ، واختتم بسورتين لم ير مثلهما ، للجمع بين حسن الافتتاح والاختتام . ألا ترى أن الخطب والرسائل والقصائد ، وغير ذلك من أنواع الكلام ، يُنظر فيها إلى حسن افتتاحها واختتامها . والوجه الثالث : أنه لَمَّا أمر القارئ أن يفتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم ، ختم القرآن بالمعوذتين ليحصل الاستعاذة بالله عند أول القراءة وعند آخر ما يقرأ من القرآن ، فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء ، فيكون القارئ محفوظاً بحفظ الله ، الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره . اهـ .

الإشارة : لا يُنجي من الوسوسة بالكلية إلاَّ التحقُّق بمقام الفناء الكلي ، وتعمير القلب بأنوار التجليات الملكوتية والأسرار الجبروتية ، حتى يمتلئ القلب بالله فحينئذ تنقلب وسوسته في أسرار التوحيد فكرةً ونظرةً وشهوداً للذات الأقدس ، كما قال الشاعر :

إن كان للناس وسواس يوسوسهم فأنت والله وسواسي وخناسي .
وبالله التوفيق ^(٣) .

(١) صحيح مسلم (٨١٤) .

(٢) موطأ الإمام مالك (٣٦٦) .

(٣) تفسير البحر المديد ٣٧٧/٨ - ٣٧٩ .

ودليل الاستغاثة قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ (الأنفال: ٩) ^(١)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : واذكروا حين كنتم ﴿ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ وتدعون بالغوث والنصر ، وذلك أن الصحابة - رضي الله عنهم - لما علموا ألا محيص لهم عن القتال أخذوا يقولون : ربنا انصرنا على عدوك ، يا غياث المستغيثين أغثنا . وعن عمر : رضي الله عنه (أنه ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف ، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة ، فاستقبل القبلة ومدّ يديه يدعوه : اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تُعبد في الأرض ، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه ، فقال أبو بكر : يا نبي الله ، كفك مُناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك) ^(٢) . وقد تقدم أن الأنبياء وكبراء الأولياء لا يقفون مع ظاهر الوعد والوعيد ، لسعة دائرة علمهم ، بل لا يزول اضطرابهم ، ولا يكون مع غير الله قرارهم ، ولعل ذلك الوعد يكون متوقفاً على شروط أخفاها الحق تعالى لتظهر قهريته وانفراده بالعلم المحيط . ولما استغاثوا بالله وأظهروا الحاجة إليه أجابهم فقال : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ ﴾ مقويكم ومكثركم ﴿ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ يتبع بعضهم بعضاً ، ويتبع المؤمنين ، فكانوا خلفهم رداءً لهم ، فمن قرأ بفتح الدال فهو اسم مفعول ، ومن قرأه بالكسر فاسم فاعل ، وصح معنى القراءتين ، لأن الملائكة المنزلين يتبع

(١) قال الله عز وجل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٩، ١٠) .

(٢) صحيح مسلم (١٧٦٣) .

بعضهم بعضاً ، فمنهم تابعون ومتبوعون ، ومن قرأ بالفتح فالمراد مردفين بالمؤمنين ، فكانوا مقدمة الجيش ، ومن قرأ بالكسر فالمراد مردفين للمؤمنين تابعين لهم ، فكانوا ساقاة للجيش . ثم ذكر حكمة الإمداد بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ﴾ أي : الإمداد ، ﴿ إِلَّا بُشْرَى ﴾ أي : بشارة بالنصر ، ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِمْ قُلُوبُكُمْ ﴾ فيزول ما بها من الوجل لقلبتكم ، ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ لا يتوقف على سبب ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يغلب ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في تدبير الأسباب وترتيبها رداء للقدرة الأزلية ، فيمدد الملائكة ، وكثرة العدد ، والتأهب ، وسائط ، لا تأثير لها ، فلا تحسبوا النصر منها ، ولا تيأسوا منه بفقدائها ، فحكم الأزل جلّ أن يضاف إلى العلل .

الإشارة : إظهار الفاقة والابتهاال لا يقدر في صحة التوكل على الكبير المتعال ، بل هو شرف للإنسان ، وتقريب من الكريم المنان ، بل من شأن العارف الكامل الرجوع إلى الله في كل شيء ، والتعلق به في كل حال ، ولو وعده بالنصر أو الإجابة ، لا يقطع عنه السؤال ، عبودية وتملقاً بين يدي الحبيب . وقد اختلف الصوفية : أي الحاليين أشرف : هل الدعاء والتضرع ؟ أو السكوت والرضى تحت مجارى الأقدار؟ وقال بعضهم : يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه ، صاحب رضى بقلبه ، ليجمع بين الأمرين . قال القشيري : والأولى أن يُقال : إن الأوقات مختلفة ، ففي بعض الأحوال الدعاء أفضل ، وفي بعض الأحوال السكوت أفضل ، وإنما يُعرف ذلك في الوقت لأن علم الوقت يحصل في الوقت ، فإذا وجد في قلبه إشارة إلى الدعاء فالدعاء منه أولى ، وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت أتم . اهـ . . . وبالله التوفيق^(١).

(١) تفسير البحر المديد ٩/٣ ، ١٠ .

ودليل الذبح قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : ﴿ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ أي : عبادتي كلها ، وقرباتي أو حجي ، ﴿ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي ﴾ أي : وعملي في حياتي ، وعند موتي من الإيمان والطاعة ، أو الحياة والممات أنفسهما ، ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ أي : هي خالصة لله لا أشرك فيها غيره ، ﴿ وَبِذَلِكَ ﴾ أي : بذلك القول والإخلاص ، أمرني ربي ، ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ : لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته . ﴿ قُلْ ﴾ لهم : ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا ﴾ فأشرك مع الله ، ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ لأن كل شيء مربوب لا يصلح للربوبية . وهو جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم . ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من شرك أو غيره ﴿ إِلَّا عَلَيَّ ﴾ وزره ، فلا ينفعني ضمانكم وكفالتكم من عقاب ربي ، وهو رد على الكفار حيث قالوا له : اعبد آلهتنا ونحن نتكفل لك بكل تباعة تتوقعها في دنياك وأخراك ، ثم أوضح ذلك بقوله : ﴿ وَلَا تَزِرُ ﴾ أي : تحمل نفس ﴿ وَازِرَةً ﴾ أي : أثمة ﴿ وَزَرَ ﴾ نفس ﴿ أُخْرَى ﴾ أي : لا يحمل أحد ذنوب أحد ، ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ﴾ بالبعث والحساب ، ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ ﴾ أي : يخبركم ﴿ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين ، فيبين الرشد من الغي ، والمحق من المبطل .

(١) قال الله عزوجل : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٤) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيَّ ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٤) .

الإشارة : الإخلاص سر من أسرار الله ، يودعه قلب من أحب من عباده ، وهو إخلاص العبودية لله وحده ، ولا يتحقق ذلك للعبد إلا بعد تحرره من رق الهوى وخروجه من سجن وجود نفسه ، وهذا شيء عزيز . ولذا قيل لسهيل ابن عبد الله رضي الله عنه : أي شيء أشد على النفس ؟ قال : الإخلاص ، لأنه ليس لها فيه نصيب . وقال يوسف بن الحسين رضي الله عنه : أعز شيء في الدنيا الإخلاص ، وقد اجتهدت في إسقاط الرياء من قلبي ، فكأنه ينبت على لون آخر . وقال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه : الإخلاص عند المخلصين : إخراج الخلق من معاملة الخالق ، وأول الخلق : النفس ، والإخلاص عند المحبين : ألا يعمل عملاً لأجل النفس ، وألا يدخل عليه مطالعة العوض ، أو تشوف إلى حظ طبع ، والإخلاص عند الموحدين : خروج الخلق من النظر إليهم ، أي : لا يرون مع الله غيره في الأفعال ، وترك السكون إليهم ، والاستراحة إليهم في الأحوال . اهـ^(١) .

ومن السنة : (لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ)^(٢)

الشرح :

قال المناوي^(٣) :

(لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ) وفي رواية لمسلم بدله « من أهل » وهو بِمعناه (لغير الله)

(١) تفسير البحر المديد ٣٣٢/٢ .

(٢) صحيح مسلم (١٩٧٨) .

(٣) هو محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (٩٥٢هـ-١٠٣١هـ، ١٥٤٥-١٦٢٢م) : من كبار العلماء بالدين والفنون . انزوى للبحث والتصنيف ، وكان قليل الطعام كثير السهر ، فمرض وضعفت أطرافه ، فجعل ولده تاج الدين محمد يستملي منه تأليفه . له نحو ثمانين مصنفاً ، منها الكبير والصغير والتام والناقص . عاش في القاهرة ، وتوفي بها . من كتبه (كنوز الحقائق) في الحديث ، و (التيسير) في شرح الجامع الصغير ، مجلدان ، اختصره من شرحه الكبير (فيض القدير) و (شرح الشمائل للترمذي) و (الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية) . انظر : خير الدين الزركلي «الأعلام» (٢٠٤/٦) .

بأن يَذبح باسم غيرِ الله كصنمٍ أو صليبٍ أو لموسى أو عيسى أو الكعبة فكله حرام ولا تحل ذبيحته ، بل إن قصد به تعظيم المذبح له وعبادته كفر . قال ابن العربي : وفيه أن أكد ما في الأضحية إخلاصُ النية لله العظيم بها^(١).

ودليل النذر قوله تعالى : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ (الإنسان: ٧)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ بما أوجبوا على أنفسهم من الطاعات ، وهو استئناف مسوق لبيان ما لأجله رزقوا ما ذكر من النعيم ، كأنه قيل : ماذا كانوا يفعلون حتى نالوا تلك الرتبة العالية ؟ فقال : يوفون بما أوجبوا على أنفسهم ، فكيف بما أوجبه الله عليهم ؟ ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ﴾ ؛ شدائده أو عذابه ﴿مُسْتَطِيرًا﴾ ؛ منتشرًا فاشيًا في أقطار الأرض غاية الانتشار ، من : استطار الفجر : انتشر^(٢).

(الأصل الثاني) : معرفة دين الإسلام بالأدلة .

وهو الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والبراءة من الشرك وأهله ، وهو ثلاث مراتب : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، وكل مرتبة لها أركان .

فأركان الإسلام خمسة : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيت الله الحرام .

فدليل الشهادة قوله تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨)

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣٥١/٥ .

(٢) تفسير البحر المديد ١٩٦/٨ .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي : بين وحدانيته
بنصب الدلائل الدالة عليها ، وإنزال الآيات الناطقة بها ، أو بتدبيره العجيب
وصنعه المتقنة وأموره المحكمة ، وفي ذلك يقول القائل :

يا عجباً كيف يُعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد؟! .
ولله في كل تحريكة وتسكينة أبداً شاهد .
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد .

وقيل لبعض العرب : ما الدليل على أن للعالم صانعاً ؟ فقال : البعرة تدل
على البعير ، وآثار القدم تدل على المسير ، فهيكل علوي بهذه اللطافة ، ومركز
سفلي بهذه الكثافة ، أما يدلان على الصانع الخبير؟! (و) شهدت ﴿ وَالْمَلَكُوتُ ﴾
أيضاً بالإقرار بالوحدانية والإخبار بها ، ﴿ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴾ وهم : الأنبياء والعلماء
بالله ، بالإيمان بها والاحتجاج عليها ، شبه ذلك في البيان والكشف بشهادة
الشاهد . وفيه دليل شرف أهل العلم وفضلهم ، حيث قرن شهادتهم بشهادته لأن
العلم صفة الله العليا ونعمته العظمى ، والعلماء أعلام الإسلام ، والسابقون إلى
دار السلام ، وسرج الأمكنة وحجج الأزمنة . وعن جابر قال : قال النبي ﷺ :
(ساعةٌ من عالم يتكئ على فراشه ، ينظر في علمه ، خيرٌ من عبادة العابد
سبعين عاماً)^(١) . وعن معاذ قال : قال النبي ﷺ : (تعلموا العلم فإن تعلمه الله
خشيةٌ ، ومدارسته تسبيحٌ ، والبحث فيه جهادٌ ، وتعليمه من لا يعلمه صدقةٌ ،
وتذكره في أهله قربةٌ) . ثم قال في آخر الحديث في فضل أهل العلم :
(وترغبُ الملائكة في خلَّتْهم ، وبأجنتها تمسحُهم ، وفي صلاتها تستغفر لهم ،
وكلّ رطبٍ ويابسٍ يستغفر لهم . حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع الأرضين

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٣٩٧٨) : موضوع .

وأنعامها ، والسماء ونجومها ، ألا وإن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ بالعبد منزل الأحرار ومجالسة الملوك ، والفكر فيه يُعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وبه توصل الأرحام ، العلم إمام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء^(١). حال كون الحق تعالى ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي : مُدبِّرًا لأمر خلقه بالعدل ، فيما حكم وأبرم ، (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) ، كرر الشهادة للتأكيد ، ومزيد الاعتبار بأمر التوحيد ، والحكم به ، بعد إقامته الدليل عليه وقال جعفر الصادق : (الأولى وصف وتوحيد ، والثانية رسم وتعليم) . أي : قولوا : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ، أو ليرتب عليه قوله : ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ، فيعلم أنه الموصوف بهما ، وقَدِّم (العزیز) ليتقدم العلم بقدرته على العلم بحكمته^(٢).

ومعناها : لا معبود بحق إلا الله وحده ﴿لَا إِلَهَ﴾ نافيًا ما يعبد من دون الله . (إلا الله) مثبتًا العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته ، كما أنه ليس له شريك في ملكه . وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الزخرف: ٢٦-٢٨) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي : واذكر وقت قوله عليه السلام ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ المنكبين على التقليد ، كيف تبرأ مما هم فيه بقوله : ﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ أي : بريء ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ، وتمسك بالبرهان ، وذكر قصته ليسلكوا مسلكه في الاستدلال ، أو : ليقلدوه ، إن لم يكن لهم بُد من التقليد ؛ فإنه أشرف آبائهم .

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٥٢٩٣) : موضوع .

(٢) تفسير البحر المديد ١/٢٩٩ ، ٣٠٠ .

و ﴿بَرَاءً﴾ : مصدر ، يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع ، والمذكر والمؤنث ، كرجل عدل ، وامرأة عدل ، وقوم عدل . و(ما) : إما مصدرية ، أو : موصولة ، أي : بريء من عبادتكم ومن معبودكم ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ؛ استثناء متصل ، أو : منقطع ، على أن (ما) تعم أولي العلم وغيرهم ، وأنهم كانوا يعبدون الله تعالى والأصنام ، أو : صفة ، على أن (ما) موصوفة ، أي : إني براء من آلهة تعبدونها غير الذي (فطرنى) ؛ خلقتني ﴿فَإِنَّهُ سَيِّدِينَ﴾ ؛ يشبني على الهداية ، أو : سيهدين إلى ما وراء الذي هداني إليه الآن . والأوجه : أن السين للتأكيد دون التسوييف ، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار .

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي : وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد التي تكلم بها ، وهي قوله : ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١٣٢﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ، ﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أي : في ذريته ، حيث وصّاهم بها ، كما نطق بها قوله تعالى : ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ (البقرة: ١٣٢) ، فلا يزال فيهم من يوحد الله تعالى ، ويدعوهم إلى توحيده . ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي : جعلها باقية في ذريته رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعاء الموحد .

الإشارة : كان إبراهيم عليه السلام إمام أهل التوحيد ، لقوله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ ، وجعل الدعوة إليه في عقبه إلى يوم القيامة ، وهو على قسمين : توحيد البرهان ، وتوحيد العيان . وقد جاءت بعده الرسل بالأمرين معاً ، وقام بها خلفاؤهم بعدهم ، فقام بالأول العلماء ، وقام بالثاني خواص الأولياء ، أهل التربية الحقيقية ، ولا ينال من توحيد العيان شيئاً من علق قلبه بالشهوات الجسمانية ، والحظوظ الفانية ، كما قال الششتري رضي الله عنه :

تَرَكْنَا حُظُوظًا مِّنْ حَضِيضٍ لُّحُوظِنَا مع المقصد الأقصى إلى المطلب الأسنى .

وكل مَنْ تمتع بذلك ، وانهمك فيه حُرِّمَ بركة صحبة العارفين إذ يمنعه ذلك من حط رأسه ، ودفع فلسه ، فينخرط في سلك قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَثَعْتَ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ ﴾ (الزخرف: ٢٩) الآية . وكلّ زمان له رسول ، خليفة عن الرسول ﷺ يدعو إلى الحق ومعرفته . وبالله التوفيق ^(١) .

وقوله : ﴿ قُلْ يَتَاهَلْ آلِكِتَبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد : ﴿ يَتَاهَلْ آلِكِتَبِ ﴾ اليهود والنصارى ، ﴿ تَعَالَوْا ﴾ : هلموا ﴿ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾ أي : عدل مستوية ، ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ لا يختلف فيها الرسل والكتب والأمم ، هي ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي : نوحده بالعبادة ، ونقر له بالوحدانية ، ﴿ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ أي : لا نجعل غيره شريكاً له في استحقاق العبادة ، ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي : لا نقول عزيز ابن الله ، ولا المسيح ابن الله ، ولا نطيع الأخبار فيما أحدثوا من التحريم والتحليل ، لأنهم بشر مثلنا . ولما نزل قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣١) قال عدي بن حاتم : ما كنّا نعبدهم يا رسول الله ، قال : (أليس كانوا يُحلّون لكم ويُحرّمون ، فتأخذون بقولهم؟ قال : بلى ، قال : هو ذاك) ^(٢) ، ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾

(١) تفسير البحر المديد ١١/٧-١٣ .

(٢) سنن الترمذي (٣٠٩٥) وفيه : حدثنا الحسين بن يزيد الكوفي حدثنا عبد السلام ابن حرب عن غطيف بن أعين عن مصعب بن سعد عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال : يا عدي اطرَحْ عنك ==

وأعرضوا عن التوحيد ﴿ فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ، فقد لزمتمكم الحجة ، فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم ، وأنتم كافرون بما نطقت به الكتب وتواطأت عليه الرسل .

تنبيه : انظر ما في هذه الآية من المبالغة وحسن التدرج في الاحتجاج ، بين أولاً أحوال عيسى^(١) وما تطاور عليه من الأطوار المنافية للألوهية ، ثم ذكر ما يحل عقدتهم ويزيح شبهتهم ، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز ، ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد ، عاد عليهم بالإرشاد ، وسلك طريقاً أسهل وألزم ، بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى وسائر الأنبياء والكتب ، ثم لما لم يجد ذلك فيهم شيئاً ، وعلم أن الآيات والنذر لا تغني عنهم شيئاً أعرض عنهم ، وقال : ﴿ فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ . قاله البيضاوي .

الإشارة : الطرق كثيرة والمقصد واحد ، وهو التوحيد الخاص ، أعنى مقام الفناء والبقاء . فالداعون إلى الله كلهم متفقون على الدعوة إلى هذا المقصد ، فكل طريق لا توصل إلى هذا المقصد لا عبرة بها ، وكل داع لا يبلغ إلى هذا الجمال فهو دجال ، فإن رضي بتعظيم الناس ، ولم يبين طريقه على الأساس ، فليس لصاحبه إلا الإفلاس ، وكل من أطاع المخلوق في معصية الله فقد اتخذهُ رباً من دون الله ، وكل من تولى عن طريق الإرشاد فقد استوجب لنفسه الطردَ

== هذا الوثن ، وسماعته يقرأ في سورة براءة « اتخذوا أحوارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » ، قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث . قال الألباني : حديث حسن .

(١) في قوله تعالى : ﴿ إِنِّ مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (آل عمران: ٥٩) .

والبعاد ، فيقول له الواصلون أو السائرون : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ . وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ^(١) .

ودليل شهادة أن محمداً رسول الله قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨)

يقول الحق جل جلاله : مخاطباً العرب ، أو قريش ، أو جميع بني آدم : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ محمد ﷺ ، أي : من قبيلتكم ، بحيث تعرفون حسبه وصدقه وأمانته ، وتفهمون خطابه ، أو من جنسكم من البشر . وقرأ ابن نسيط : بفتح الفاء ، أي من أشرافكم . قال ﷺ : (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى بني هاشم من قريش ، واصطفاني من بني هاشم ، فأنا مصطفى من مصطفىين) ^(٢) ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ﴾ ، أي : شديد شاق عليه ﴿ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي : عنتكم ومشقتكم ولقاؤكم المكروه في دينكم ودنياكم . ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : على إيمانكم وسعادتكم وصلاح شأنكم ، ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ منكم ومن غيركم ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : شفيق بهم ، قدم الأبلغ منهما لأن الرأفة شدة الرحمة للفاصلة ، وسمى رسوله هنا باسمين من أسمائه تعالى ^(٣) .

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله : طاعته فيما أمر ، وتصديقه فيما أخبر ، واجتناب ما نهى عنه وزجر ، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع .

ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ (البينة: ٥)

(١) تفسير البحر المديد ١/ ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(٢) صحيح مسلم (٢٢٧٦) .

(٣) تفسير البحر المديد ٣/ ١٣٥ ، ١٣٦ .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي : ما أُمروا في التوراة والإنجيل إلا لأجل أن يعبدوا الله وحده من غير شرك ولا نفاق ، ولكنهم حرّفوا وبدّلوا . وقيل : اللام بمعنى « أن » أي : إلا بأن يعبدوا الله ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي : جاعلين دينهم خالصاً له تعالى ، أو : جاعلين أنفسهم خالصة له في الدين . قال ابن جزى : استدل المالكية بهذا على وجوب النية في الوضوء ، وهو بعيد ؛ لأن الإخلاص هنا يراد به التوحيد وترك الشرك ، أو ترك الرياء . انظر كلامه ، وسيأتي بعضه في الإشارة . ﴿ حُفَاءَ ﴾ مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام ، ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ إن أريد بهما ما في شريعتهم من الصلاة والزكاة ، فالأمر ظاهر ، وإن أريد ما في شريعتنا فمعنى أمرهم بهما في الكتابين أمرهم بالدخول في شريعتنا ، ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ أي : الملة المستقيمة . والإشارة إلى ما ذكر من عبادة الله وحده وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته .

الإشارة : لم يكن الذين جحدوا وجود أهل الخصوصية من العلماء والجهال منفكين عن ذلك حتى جاءتهم الحجة القائمة عليهم ، وهو ظهور شيخ التربية خليفة الرسول ، يتلو كتاب الله العزيز على ما ينبغي ، وما تفرّقوا في التصديق إلا بعد ظهوره . وما أُمروا إلا بالإخلاص وتطهير سرائرهم ، وهو لا يتأتى إلا بصحبته . وتكلم ابن جزى هنا على الإخلاص ، فقال : اعلم أنّ الأعمال على ثلاثة أنواع : مأمورات ومنهيات ومباحات ؛ فأما المأمورات فالإخلاص فيها عبارة عن : خلوص النية لوجه الله ، بحيث لا يشوبها أخرى ، فإن كانت كذلك فالعمل خالص ، وإن كانت لغير وجه الله من طلب منفعة دنيوية أو مدح أو غير ذلك ، فالعمل رياء محض مردود ، وإن كانت النية مشتركة ؛ ففي ذلك تفصيل ، فيه نظر واحتمال . قلت : وقد تقدّم كلام الغزالي

في سورة البقرة عند قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٨) ، وحاصله : أَنَّ الحكم للغالب وقوة الباعث . انظر لفظه . ثم قال ابن جزري : وأما المنهيات فإن تركها دون نية خرج عن عهدها ولم يكن له أجر في تركها ، وإن تركها بنية وجه الله خرج عن عهدها وأُجر . وأما المباحات ، كالأكل والشرب ، والنوم والجماع وغير ذلك ، فإن فعلها بغير نية لم يكن له فيها أجر ، وإن فعلها بنية وجه الله فله فيها أجر ، فإن كلّ مباح يمكن أن يصير قربة إذا قصد به وجه الله ، مثل أن يقصد بالأكل القوة على العبادة ، ويقصد بالجماع التعفّف عن الحرام ، وشبه ذلك . اهـ . ودرجات الإخلاص ثلاث : الأولى : أن يعبد الله لطلب غرض دنيوي أو أخروي من غير ملاحظة أحد من الخلق ، والثانية : أن يعبد الله لطلب الآخرة فقط ، والثالثة : أن يعبد الله عبودية ومحبة^(١) .

ودليل الصيام قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ فرض عليكم ﴿ الصِّيَامُ ﴾ كما فرض ﴿ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ من الأنبياء وأممهم من لدن آدم ، فلکم فيهم أسوة ، فلا يشق عليكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ المعاصي ، فإن الصوم يكسر الشهوة . ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : (من استطاع منكم الباءة فليتزوّج ، ومن لم يستطع فعليه بالصّوم ، فإنه له وجاء)^(٢) ^(٣) .

(١) تفسير البحر المديد ٨/ ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

(٢) صحيح البخاري (٤٧٧٨) .

(٣) تفسير البحر المديد ١/ ١٨٤ .

ودليل الحج قوله تعالى : ﴿ وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٧)^(١)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

﴿ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ واضحات ، منها : الحجر الذي هو ﴿ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، وهو الذي قام عليه حين رفع القواعد من البيت ، فكان كلما طال البناء ارتفع به الحجر في الهواء ، حتى أكمل البناء ، وغرقت فيه قدمه كأنه طين ، ومنها : أن الطير لا تعلقه ، ومنها : إهلاك أهل الفيل وردّ الجبابرة عنه ، ونبع زمزم لهاجر بهمز جبريل عليه السلام ، وحفر عبد المطلب لها بعد دُثورها ، وأن ماءها ينفع لما شرب له ، ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴾ من العقاب في الدارين لدعاء الخليل : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ (إبراهيم: ٣٥) ، فكان في الجاهلية كل من فعل جريمة ، ثم لجأ إليه لا يهاج^(٢) ولا يعاقب مادام به ، وأما في الإسلام فإن الحرم لا يمنع من الحدود ولا من القصاص . وقال أبو حنيفة : الحكم باق ، وإن من وجب عليه حد أو قصاص فدخل الحرم لا يهاج ، لكن يُضَيَّق عليه ، فلا يطعم ولا يباع له حتى يخرج . قال - عليه الصلاة والسلام - : (من مات في أحد الحرمين بعثه الله من الآمنين)^(٣) وقال أيضا : (من حجّ هذا البيت - فلم يرفث ، ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه)^(٤) . ﴿ وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ فرض عين على ﴿ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ بالقدرة على الوصول

(١) قال الله عزوجل : ﴿ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴾ وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

(آل عمران: ٩٧) .

(٢) قال محققه : لا يهاج : أي لا يقتل .

(٣) سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٣١٩/٦ - ٣٢٣) .

(٤) صحيح البخاري (١٧٢٣) (١٧٢٤) ، صحيح مسلم (١٣٥٠) .

بصحة البدن ، راجلاً أو راكباً مع الزاد المبلّغ ، والأمن على النفس والمال والدين . وقيل : الاستطاعة : الزاد والراحلة . ﴿ وَمَنْ ﴾ تركه ، و﴿ كَفَرَ ﴾ به ، كاليهود والنصارى ، وكل من جحدّه ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ ﴾ عنه ، و﴿ عَنْ ﴾ حجه ، وعن جميع ﴿ الْعَالَمِينَ ﴾ ، أو عبر بالكفر عن الترك ، تغليظاً كقوله : (من ترك الصلّاة فقد كفر) ^(١) روى أنه - عليه الصلاة والسلام - لما نزل صدر الآية - جمع أرباب الملل ، فخطبهم ، وقال : (إن الله كتب عليكم الحج فحجوا) ^(٢) ، فأمنت به ملة واحدة ، وكفرت به خمس ملل ، ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ إلخ ^(٣) .

المرتبة الثانية : الإيمان : وهو بضع وسبعون شعبة ، فأعلاها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان . وأركانها ستة : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر خيره شره .

والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (البقرة: ١٧٧) ^(٤)

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (٢٥٠٨) .

(٢) صحيح مسلم (١٣٣٧) وفيه : حدثني زهير بن حرب حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا الربيع بن مسلم القرشي عن محمد بن زياد عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ، فقال رسول الله ﷺ : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ، ثم قال : ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه» .

(٣) تفسير البحر المديد ١/٣٤٩ ، ٣٥٠ .

(٤) تمام الآية : ﴿ وَءَاتَى الْآمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

قلت : لما ذكر الحق تعالى التوحيد وبراهينه الذي هو رأس الدين ، وحدّر من الشرك وفروعه ، ذكر هنا بقية أركان الدين ، وهي الإيمان والإسلام ، فذكر في هذه الآية قواعد الإيمان وبعض قواعد الإسلام وهي الصلاة والزكاة ، ثم ذكر بعد ذلك الصيام وأحكامه ، ثم ذكر الحج وأركانه ، ثم ذكر الجهاد والنكاح والطلاق والعدة ، ثم ذكر البيوع وما يتعلق بها من الربا ، ثم الشهادات والرهان ، وبها ختم السورة . لكن الحديث ذو شجون ، والكلام يجزّ بعضه بعضاً ، فقوله : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوءَ ﴾ : اسم ليس وخبرها ، وكلاهما معرفتان ، الأول بآل والثاني بالإضافة ، إذا التقدير : تولية وجوهكم ، فمن رجّح تعريف الألف واللام ، جعل ﴿ الْبِرِّ ﴾ اسمها ، و﴿ أَنْ تُولُوءَ ﴾ خبرها ، وبه قرأ الأكثر ، ومن رجّح الإضافة جعل ﴿ الْبِرِّ ﴾ خبرها مقدماً ، والمصدر اسمها مؤخراً ، وبه قرأ حمزة وحفص . وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ ﴾ مَنْ خَفَّفَ جعلها عاطفة الجملة ، و﴿ الْبِرِّ ﴾ مبتدأ ، و﴿ مَنْ ءَامَنَ ﴾ خبر على حذف مضاف ، أي : بر من آمن إذ لا يُخَبَّر بالذات عن المعنى ، أو قصد المبالغة ، ومن شدّد نصب بها ، لوقوعها بين جملتين ، وهي استدراكية ، ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ حال من المال ، ﴿ وَالصَّابِرِينَ ﴾ نصب على المدح ، ولم يعطفه بالرفع لفضل الصبر وشرفه .

يقول الحق جل جلاله : في الرد على أهل الكتاب : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ ﴾ محصوراً في شأن القبلة ، ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ ﴾ الذي ينبغي أن يُعْتَنَى بشأنه هو الإيمان بالله ، وما يجب له من الكمالات ، وبالיום الآخر وما بعده ، وبالملائكة وما يجب أن يعتقد في شأنهم ، والكتاب المنزل من السماء كالقرآن وغيره ، ﴿ وَالنَّبِيِّنَ ﴾ وما يجب لهم وما يستحيل في حقهم . فالبر هو بر من اعتقد في قلبه هذه الأشياء ، وأظهر على جوارحه ما يصدق صحة اعتقادها ، وذلك كالاتصاف بالسخاء والكرم ، فأعطى المال على محبته له ، أي : مع حبه ، فقد

سئل - عليه الصلاة والسلام - : (أي الصدقة أفضل؟ فقال : أن تتصدق وأنت صحيحٌ شحيحٌ ، تأمل الغنى وتخشى الفقر) ^(١) . ﴿وَأَتَى الْمَالَ﴾ على حب الله ، لا جزاء ولا شكوراً ، فأعطى ذلك المال ذوي قرابته المحاويج ، وقدمهم لقوله - عليه الصلاة والسلام - : (صدقتك على المساكين صدقةٌ ، وعلى ذوي القربى اثنتان صدقةٌ وصلّة) ^(٢) . وأعطى ﴿وَالْيَتَمَى﴾ لإهمالهم ، وأعطى ﴿وَالْمَسْكِينَ﴾ الذين أسكنهم الفقر في بيوتهم ، ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهو المسافر الغريب ، كأن الطريق ولدته ، أو الضيف ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ ألجأتهم الحاجة إلى السؤال . وفي الحديث : (أعطِ السائل ولو على فرسه) ^(٣) . وقال أيضاً ﷺ : (هدية الله إلى المؤمن السائل على بابهِ) ^(٤) . وأعطى في فكَّ ﴿الرَّقَابِ﴾ من الرق أو الأسر . ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ المفروضة ، ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ المعلومة . ومن أهل البر أيضاً : ﴿وَالْمُؤَفُّونَ بَعْدَهُمْ﴾ فيما بينهم وبين الله ، وفيما بينهم وبين الناس ﴿إِذَا عَاهَدُوا﴾ الله أو عباده ، فإذا وعدوا أنجزوا ، وإذا حلفوا أو نذروا أوفوا ، وإذا قالوا صدقوا ، وإذا اتتمنوا أدّوا ، وأخصَّ من أهل البر ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ كالفقر والذل وإذاية الخلق ، ﴿وَالصَّرَّاءِ﴾ كالمرض والزمانة ^(٥) ، أو ﴿الْبَأْسَاءِ﴾ : الأهوال ، و﴿وَالصَّرَّاءِ﴾ في الأنفس ، والصابرين ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي : الحرب والجهاد ، ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في طلب الحق ، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ لكل ما يقطع عن الحق ، أو يشغل عنه . فقد اشتملت هذه الآية على كمالات الإنسان بأسرها لاشتمالها على ما يزين البواطن من الاعتقادات وما يزين الظواهر من

(١) صحيح مسلم (١٠٣٢) ، سنن النسائي (٢٥٤٢) قال الألباني : صحيح .

(٢) سنن النسائي (٢٥٨٢) قال الألباني : صحيح .

(٣) سنن أبي داود (١٦٦٦٥) قال الألباني : ضعيف .

(٤) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٥٩٤) : موضوع .

(٥) قال محققه : الزمانة : مرض يدوم .

المعاملات ، وما يُزَكَّى النفوس من الرذائل والرعونات ويُحَلِّيهَا بالمحاسن والكمالات . ولذلك وُصف المتصف بها بالصدق والتقى ، اللذين هما أساسُ الطريقة ومبنى أسرار التحقيق ، وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق .

الإشارة : ليس المطلوب من العبد أن يتوجّه إلى الحق بجَهَّةٍ مخصوصة ، كما إذا توجه إليه بالظاهر وأهمَلَ الباطن ، أو توجه بالباطن وأهمَلَ الظاهر ، ولكن المطلوب منه أن يزين باطنه بأنوار الإيمان واليقين ، ويزين ظاهره بسائر وظائف الدين ، ويزكى نفسه من الرذائل كالشح والبخل والغش والخيانة والكذب والخوف والجزع ، ويحليها بأنواع الفضائل كالسخاء والكرم والوفاء بالعهد والأمانة ، والصبر والشجاعة ، والعفة والقناعة ، وسائر أنواع الفضائل ، فإذا تخلّى عن الرذائل وتحلّى بأضدادها من الفضائل استحق الدخول مع الأبرار ، وكان من العارفين الكبار ، أولئك الذين ظفروا بصدق الطلب فنالوا الغاية من كل مطلب ، وأولئك هم المتقون حق الثقة ، فنالوا أعلى الدرجات ، منحنا الله من ذلك الحظ الوافر بمنّه وكرمه ^(١) .

ودليل القدر قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر: ٤٩)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ أي : بتقدير سابق في اللوح قبل وقوعه ، قد علمنا حاله وزمانه قبل ظهوره ، أو : خلقناه كل شيء مقدراً محكماً مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة ، و﴿ كُلٌّ ﴾ : منصوب بفعل يُفسره الظاهر . وقرئ بالرفع شاذّاً ، والنصب أولى لأنه لو رفع لأمكن أن يكون ﴿ خَلَقْنَاهُ ﴾ صفة لشيء ، ويكون الخبر مقدراً ، أي : إنا كل شيء مخلوق لنا حاصل بقدر ، فيكون حجة للمعتزلة ، باعتبار المفهوم ، وأن أفعال العباد غير

(١) تفسير البحر المديد ١/١٧٨-١٨٠ .

مخلوقة لله . فلم يسبق لها قدر ، تعالى الله عن قولهم ، ويجوز أن يكون الخبر : ﴿ خَلَقْنَاهُ ﴾ ، فلا حجة فيه ، ولا يجوز في النصب أن يكون (خلقنا) صفة لشيء لأنه يفسر الناصب ، والصفة لا تعمل في الموصوف ، وما لا يعمل لا يفسر عاملاً . قال أبو هريرة : جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونهم في القدر ، فنزلت الآية^(١) ، وكان عمر يحلف أنها نزلت في القدرية ، أي : على طريق الإخبار بالغيب^(٢) .

المرتبة الثالثة : الإحسان : ركن واحد ، وهو : (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . والدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٨)^(٣)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ من آذاكم ﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ أي : إن صنع بكم صنيع سوء فافعلوا مثله ، ولا تزيدوا عليه . والعقوبة ، في الحقيقة ، إنما هي في الثانية . وسميت الأولى عقوبة لمشاكلة اللفظ . وقال الجمهور : إن الآية نزلت في شأن حمزة بن عبد المطلب ، لما بقر المشركون بطنه يوم أحد ، قال النبي ﷺ : (لئن أظفرنني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم) . فنزلت الآية^(٤) ، فكفر النبي ﷺ عن يمينه ، وترك ما أراد من المثلة . ولا خلاف أن المثلة حرام ، وقد وردت أحاديث بذلك . ومقتضى هذا : أن

(١) صحيح مسلم (٢٦٥٦) .

(٢) تفسير البحر المديد ٢٣٦/٧ .

(٣) قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٦-١٢٨)

(٤) مسند البزار (٩٥٣٠) .

الآية مدنية . ويحتمل أن تكون الآية عامة ، ويكون ذكرهم حمزة على وجه المثال . وتكون ، على هذا ، مكية كسائر السورة . واختلف العلماء فيمن ظلمه رجل في مال ، ثم ائتمن عليه ، هل يجوز خيانتة ، في القدر الذي ظلمه فيه؟ فأجاز ذلك قوم لظاهر الآية ، ومنعه مالك لقوله ﷺ : (أَدِّ الْأَمَانَةَ لِمَنْ أَتَمَّنَكَ ، وَلَا تَخْنِ مِنْ خَانَكَ) ^(١) . قاله ابن جزى . ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ ﴾ ، ولم تعاقبوا من أساء إليكم ، ﴿ لَهُوَ ﴾ أي : الصبر ﴿ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ فإن العقوبة مباحة ، والصبر أفضل من الانتقام ، ويحتمل أن يريد بالصابرين هنا العموم ، أو يريد المخاطبين ، كأنه قال : فهو خير لكم . ثم صرح بالأمر لرسوله به لأنه أولى الناس به لزيادة علمه بالله ، فقال : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ إلا بتوقيفه وتثبيته . روي أنه ﷺ قال لأصحابه : (أما أنا فأصبر كما أمرت ، فماذا تصنعون؟) قالوا : نصبر كما ندبنا . ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ على الكافرين حيث لم يؤمنوا حرصاً عليهم . أو على المؤمنين لأجل ما فعل بهم . ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي : لا يضيق صدرك بمكرهم ، ولا تهتم بشأنهم ، فأنا ناصرك عليهم . والضيق - بفتح الضاد مخففاً - من ضيق كميته وميته . وقرئ بالكسر ، وهو مصدر . ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرين ، معاً ، لضاق . ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الكفر والمعاصي ، ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ في أعمالهم ، فهو معهم بالولاية والنصر والرعاية والحفظ . أو مع الذين اتقوا الله بتعظيم أمره . والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه . أو مع الذين اتقوا ما يقطعهم عن الله ، والذين هم محسنون بشهود الله كما قال النبي ﷺ : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه) ^(٢) . فهو معهم بالمحبة والوداد (فإذا أحببته كنته) ^(٣) . والله تعالى أعلم .

(١) سنن أبي داود (٣٥٣٤) قال الألباني : صحيح .

(٢) صحيح البخاري (٥٠) ، صحيح مسلم (٨)(٩) .

(٣) في صحيح البخاري (٦١٣٧) : « فإذا أحببته : كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » .

الإشارة : من شأن الصوفية : الأخذ بالعزائم ، والتمسك بالأحسن في كل شيء ، ممثلين لقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ (الزمر: ١٨) . ولذلك قالوا : الصوفي : دمه هدر ، وماله مباح لأنه لا ينتصر لنفسه ، بل يدفع بالتي هي أحسن السيئة . فالصبر دأبهم ، والرضي والتسليم خلُقهم . وحقيقة الصبر هي : حبس القلب على حكم الرب ، من غير جزع ولا شكوى . ومواطنه أربعة : الطاعة ، والمعصية ، والنعمة ، والبلية . فالصبر على الطاعة : بالمبادرة إليها ، وعن المعصية : بتركها ، وعلى النعمة : بشكرها ، وأداء حق الله فيها ، وعلى البلية : بالرضى وعدم الشكوى بها . وأقسام الصبر ستة : صبر في الله ، وصبر لله ، وصبر مع الله ، وصبر بالله ، وصبر على الله ، وصبر عن الله . أما الصبر في الله : فهو الصبر في طلب الوصول إلى الله ، بارتكاب مشاق المجاهدات والرياضات . وهو صبر الطالبين والسائرين . وأما الصبر لله : فهو الصبر على مشاق الطاعات وترك المنهيات ونزول البليات ، يكون ذلك ابتغاء مرضاة الله ، لا لطلب أجر ولا نيل حظ . وهو صبر المخلصين . وأما الصبر مع الله : فهو الصبر على حضور القلب مع الله ، على سبيل الدوام مراقبة أو مشاهدة .

فالأول : صبر المحبين ، والثاني : صبر المحبوبين . وأما الصبر بالله : فهو الصبر على ما ينزل به من المقادير ، لكنه بالله لا بنفسه ، وهو صبر أهل الفناء من العارفين المجذوبين السالكين . وأما الصبر على الله : فهو الصبر على كتمان أسرار الربوبية عن غير أهلها ، أو الصبر على دوام شهود الله . وأما الصبر عن الله : فهو الصبر على الوقوف بالباب عند جفاء الأحباب ، فإذا كان العبد في مقام القرب واجدا لحلاوة الأنس ، مشاهدا لأسرار المعاني ، ثم فقد ذلك من قلبه ، وأحس بالبعد والطرْد - والعياذ بالله - فليصبر ، وليلزم الباب حتى يمن الكريم الوهاب ، ولا يتزلزل ، ولا يتضعض ، ولا يبرح عن مكانه ، مبتهلاً ، داعياً إلى الله ، راجياً كرم مولاه ، فإذا استعمل هذا فقد استعمل الصبر

قيامًا بأدب العبودية . وهو أشد الصبر وأصعبه ، لا يطيقه إلا العارفون المتمكنون ، الذين كملت عبوديتهم ، فكانوا عبيدًا لله في جميع الحالات ، قَرَبَهُمْ أو أَبْعَدَهُمْ .

روي أن رجلاً دخل على الشبلي رضي الله عنه ، فقال : أي صبر أشد على الصابر ؟ فقال له الشبلي : الصبر في الله ، قال : لا ، قال : الصبر لله ، قال : لا ، قال : الصبر مع الله ، قال : لا ، فقال له : وأي شيء هو؟ فقال : الصبر عن الله . فصاح الشبلي صيحة عظيمة ، كادت تتلف فيها روحه . هـ . لأن الحبيب لا يصبر عن حبيبه . لكن إذا جفا الحبيب لا يمكن إلا الصبر والوقوف بالباب ، كما قال الشاعر :

إن شَكوتَ الهوى ، فما أنت مِنّا احمِلِ الصّدَّ والجفا ، يا مُعْنا .
وقال رجل لأبي محمد الحريري رضي الله عنه : كنت على بساط الأنس ، وفتح عليّ طريق البسط ، فزللت زلة ، فحجبت عن مقامي ، فكيف السبيل إليه؟ دلني على الوصول إلى ما كنت عليه . فبكى أبو محمد وقال : يا أخي ، الكل في قهر هذه الخطة ، لكنني أنشدك أبياتاً لبعضهم ، فأنشأ يقول :
قف بالديار فهذه آثارهم تبكى الأجرة حسرة وتشوقا .
كم قد وقفتُ بربعها مستخبراً عن أهله ، أو سائلاً ، أو مشفقاً .
فأجابني داعي الهوى في رسمها فارقتَ من تهوى فعز الملتقى .
ومن هذا المعنى قضية الرجل الذي بقي في الحرم أربعين سنة يقول : لبيك . فيقول له الهاتف : لا لبيك ولا سعديك ، وحجك مردود عليك . فقيل له في ذلك ، فقال : هذه بابه ، وهل ثَمَّ باب أخرى أقصده منها؟ فقبله الحق تعالى ، ولبى دعوته . وكذلك قضية الرجل الذي قيل له ، من قَبَل الوحي : إنك من أهل النار فزاد في العبادة والاجتهاد . فهذا كله يصدق عليه الصبر عن الله . لكن لا يفهم كماله إلا من كملت معرفته ، وتحقق بمقام الفناء ، فحينئذ قد يسهل عليه أمره لكمال عبوديته ، كما قال القائل :

وكنْتُ قديمًا أطلب الوصلَ منهم فلَمَّا أتاني العلم وارتفع الجهلُ .
تَيَقَّنْتُ أَنَّ العبدَ لا طَلِبَ لَهُ فَإِنْ قَرَّبُوا : فَضْلٌ ، وَإِنْ بَعَدُوا : عَدْلٌ .
وَإِنْ أَظْهَرُوا لَمْ يُظْهِرُوا غَيْرَ وَصِفِهِمْ وَإِنْ سَتَرُوا فَالَسْتَرُ مِنْ أَجْلِهِمْ يُحْلُو .
وأما من لم تكمل معرفته ، فقد ينكره ويذمه ، كالعباد والزهاد والعشاق ،
فإنهم لا يطبقونه ، فإما أن يختل عقلهم ، أو يرجعون إلى الانهماك في البطالة .
والله تعالى أعلم .^(١)

وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ ^(١٧) الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ^(١٨)
وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ^(١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ^(٢٠) (الشعراء: ٢١٧-٢٢٠)^(٢)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَأَنْذِرْ ﴾ يا محمد ﴿ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ،
إنما خصهم بالذكر لئلا يتكلموا على النسب ، فیدَعُوا ما يجب عليهم ، لأن من
الواجبات ما لا يشفع فيها ، بقوله في تارك الزكاة وقد استغاث به : (لا أملك
لك من الله شيئاً) ، وفي الغال كذلك . وقيل : إنما خصهم لنفي التهمة إذ
الإنسان يساهل قرابته ، وليعلموا أنه لا يغنى عنهم من الله شيئاً إذ النجاة في
اتباعه ، لا في قربه منهم . ولما نزلت صعد النبي ﷺ الصفا ، ونادى الأقرب
فالأقرب ، وقال : (يا بني عبد المطلب ، يا بني هاشم ، يا بني عبد مناف ،

(١) تفسير البحر المديد ٦٩/٤-٧٢ .

(٢) قال الله عز وجل : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ^(١٧) وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ ^(١٨) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ^(١٩) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ^(٢٠)
الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ ^(٢١) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ^(٢٢) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ^(٢٣)
(الشعراء: ٢١٤-٢٢٠) .

يا عباس - عم النبي ﷺ - يا صفيّة - عمّة النبي ﷺ لا أملك لكم من الله شيئاً^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنه : (صعد النبي ﷺ الصفا ، ونادى : « يا صباحاه » : فاجتمع الناس ، فقال ﷺ : (يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، إن أخبرتكم أن خيلاً بسّفح هذا الجبل ، تريد أن تُغير عليكم ، صدقتموني؟ قالوا : نعم . قال : فإنني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ . فقال أبو لهب : تبّاً لك سائر اليوم ، ما جمعتنا إلا لهذا ؟ فنزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ (المسد: ١)^(٢) . ثم قال : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ ﴾ أي : وألن جانبك وتواضع ، وأصله : أن الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه ، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه ، فجعل خفض الجناح مثلاً في التواضع ولين الجانب . ويكون ذلك التواضع ﴿ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من قرابتك وغيرهم . ﴿ فَإِنَّ عَصْوَكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي : أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك ، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ، ومن أعمالهم من الشرك وغيره . ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أي : على الذي يقهر أعداءك بعزته ، وينصرك عليهم برحمته ، فإنه يكفيك شر من يعاديك . ﴿ الَّذِي يَرْنَكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ للتهجد ، ﴿ وَ ﴾ يرى ﴿ تَقَلُّبَكَ فِي السَّجْدِينَ ﴾ في المصلين . أتبع كونه رحيماً برسوله ما هو من أسباب الرحمة ، وهو ذكر ما كان يفعله في جوف الليل ، من قيامه للتهجد ، وتقلبه في تصفح أحوال المُتَهَجِّدِينَ ، ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون . وقيل : معناه : ويراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة ، وتقلبك في الساجدين : تصرفه فيما بينهم ، بقيامه وركوعه وسجوده وعوده إذا أمهم . وعن مقاتل : أنه سأل أبا حنيفة :

(١) صحيح البخاري (٤٤٩٣) (٢٦٠٢) ، صحيح مسلم (٢٠٤) (٢٠٥) .

(٢) صحيح البخاري (٤٥٢٣) (٤٦٧٨) (٤٦٨٨) ، صحيح مسلم (٢٠٨) .

هل تجد الصلاة بالجماعة في القرآن؟ فقال : لا يحضرني ، فتلا له هذه الآية .
وقيل : تقلبه في أصلاب الرجال . وروي عنه ﷺ في الآية أنه قال : (من نبي
إلى نبي حتى أخرجتك نبي) ^(١) . ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ لما تقول ،
﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما تنويه وتعمله . هَوَّنَ عليه مشاقَّ العبادة ، حيث أخبره برؤيته له ،
إذ لا مشقة على من يعلم أنه يعمل بمرأى من مولاه ، وهو كقوله في الحديث
القدسي : (بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلي) ^(٢) . والله تعالى أعلم .

الإشارة : ينبغي لمن أهّل للوعظ والتذكير أن يبدأ بالأقرب فالأقرب ، ولو
علم أنه لا ينتفع به إلا النزر القليل .

فمن تبعه على مذهبه فليكن له جانبه وليتواضع له ، ومن أعرض عنه
واشتغل بهواه فليتبرأ من فعله ، ولا ينسأه من نصحه ، ولذلك قال تعالى :
﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِئْءٍ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ، ولم يقل : « منكم » ، وهذا
مذهب الجمهور ، وأن الأخ إذا زلَّ إنما يُبغض عمله فقط ، وعن بعض الصحابة
- وقد قيل له في أخيه ، فقال : إنما أبغض عمله ، وإلا فهو أخي ، وذكر مثل
ذلك عن أبي الدرداء . وأن الأخ في الله لا يُبغض لزلته ، ولا يترك لشيء من
الأشياء ، وإنما يبغض عمله ، ووافقه على ذلك سلمان ، وتابعهما عمر ،
وخالف في ذلك أبو ذر ، فقال : إذا وقعت المخالفة ، وانقلب عما كان عليه ،
فأبغضه من حيث أحببته . قال صاحب القوت : وأبو ذر صاحب شدائد وعزائم ،
وهذا من عزائمه وشدائده . اهـ . وهذا في المؤمن بدليل قول أبي
الدرداء : الأخ في الله لا يبغض لزلة ، وأما الكافر فصريح آياته : ﴿ إِنَّا
بُرْءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (المتحنة: ٤) ، ونحوها . وحديث

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٢٠٢١) وفيه : حدثنا أبو مسلم الكشي ثنا أبو عاصم أنا
شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس : ﴿ وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴾ قال : من نبي
إلى نبي حتى أخرجت نبياً .

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني عن وهب بن منبه .

ابن عمر وتبرئه من نفاة القدر - كما في مسلم - موجب للبراءة ، وليس لكون حكم الأصول أشد من الفروع . وذكر في الإحياء تأكيد الإعراض عمن يتعدى أذاه لغيره بظلم ، أو غصب ، أو غيبة ، أو نميمة ، أو شهادة زور لأن المعصية شديدة فيما يرجع لأذى الخلق . اهـ . من الحاشية . قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ ، قيل : التوكل : تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ، ويقدر على نفعه وضره ، وهو الله وحده ، والمتوكل من إذا دهمه أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية الله . وقال الجنيد رضي الله عنه : التوكل أن تُقبل بالكلية على ربك ، وتُعرض بالكلية عمن دونه فإن حاجتك إنما هي إليه في الدارين . اهـ . قال القشيري : ﴿ وَتَقَلِّبْكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ من أصحابك ، ويقال : تقلبك في أصلاب آبائك من المسلمين ، الذين عرفوا الله ، فسجدوا له ، دون من لم يعرفه . اهـ . وفي القوت : قيل : وتقلبك في أصلاب الأنبياء - عليهم السلام ، يقلبك في صلب نبي بعد نبي ، حتى أخرجك من ذرية إسماعيل ، وروينا معنى ذلك عن رسول الله ﷺ ، والحاصل : أنه من ذرية الأنبياء والمؤمنين الساجدين في الجملة ، ولا يقتضى كل فرد من الأفراد . اهـ ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ (يونس: ٦١) ^(٢)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ أي : أمر من الأمور ،

(١) تفسير البحر المديد ١٩٠/٥ - ١٩٢ .

(٢) تمام الآية : ﴿ وَمَا يَعُزُّبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (يونس: ٦١) .

والخطاب للنبي ﷺ والمراد هو وجميع الخلق ، ولذلك قال في آخرها . ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ ، ومعنى الآية : إحاطة علم الله تعالى بكل شيء .

﴿ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ أي : وما تتلو شيئاً من القرآن ، أو وما تتلو من الله من قرآن ، أي : تأخذه عنه . ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ أي عمل كان ، وهو تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم ، ولذلك ذكر الحق تعالى ، حيث خص بالذكر ما فيه فخامة وتعظيم ، وذكر حيث عمم ما يتناول الجليل والحقير ، أي : لا تعملون شيئاً ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ : رقباء مطلعين عليه ظاهراً وباطناً ، ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ : حين تخوضون فيه وتندفعون إليه ، يقال : أفاض الرجل في الأمر : إذا أخذ فيه بجدة واندفع إليه ، ومنه : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ ﴾ (البقرة: ١٩٨) ، ﴿ وَمَا يَعِزُّبُ عَنْ رَبِّكَ ﴾ أي : ما يغيب عنه ﴿ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ : ما يوازن نملة ، ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ والمراد : لا يغيب عنه شيء في الوجود بأسره ، وخصهما لأن العامة لا تعرف غيرهما . قال في الكشف : فإن قلت : لم قدم هنا الأرض بخلاف سورة سبأ ؟ فالجواب : أن السماء قدمت في سبأ لأن حقها التقديم ، وقدمت الأرض هنا لما ذكرت الشهادة على أهل الأرض . اهـ . ﴿ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ ﴾ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أي : اللوح المحفوظ ، أو علمه تعالى المحيط ، المبين للأشياء على ما هي عليه .

الإشارة : هذه الآية وأمثالها هي أصل المراقبة عند القوم ، وهي على ثلاثة أقسام : مراقبة الظواهر ، ومراقبة القلوب ، ومراقبة السرائر . فالأولى للعوام ، والثانية للخواص ، والثالثة لخواص الخواص . فأما مراقبة الظواهر : فهي اعتقاد العبد أن الله يراه ، ومطلع عليه في كل مكان ، فينتج له الحياء من الله ، فيستحيى أن يسيئ الأدب معه وهو بين يديه ، وفي بعض الأخبار القدسية : (إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم ، فالخلل في إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أني

أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم؟^(١) . وقال عليه الصلاة والسلام :
 (أفضل الناس إيماناً من يعلم أن الله معه في كل مكان)^(٢) أو كما قال ﷺ :
 وروى أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه مرّ براعي غنم ، فقال له : أعطنا شاة
 من غنمك ، فقال له : ليست لي . فقال له : قل لصاحبها أكلها الذئب ، فقال له
 الراعي : وأين الله؟! . وروى أن رجلاً خلا بجارية فراودها على المعصية ،
 وقال لها : لا ترانا إلا الكواكب ، فقالت له : وأين مكوكبها؟ . وأما مراقبة
 القلوب فهي : تحقيق العبد أن الله مطلع على قلبه ، فيستحي منه أن يجول فيما
 لا يعنى ، أو يدبر ما لا يفيد ولا يجدى ، أو يهيم بسوء أدب فإن جال في ذلك
 استغفر وتاب . وأما مراقبة السرائر فهي : كشف الحجاب عن الروح ، حتى
 ترى الله أقرب إليها من كل شيء ، فتستحي أن تجول فيما سواه من
 المحسوسات ، فإن فعلت بادرت إلى التوبة والاستغفار ، فالتوبة لا تفارق أهل
 المراقبة مطلقاً ، وقد تقدم في أول سورة النساء بعض الكلام على المراقبة ،
 فمن لم يُحْكَمْ أمر المراقبة ، لم يذق أسرار المشاهدة^(٣) .

والدليل من السنة : حديث جبريل المشهور عن عمر رضي الله عنه قال :
 (بيننا نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ،
 شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى
 جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ،
 وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام قال : (أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن
 محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج
 البيت إن استطعت إليه سبيلاً). فقال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدق .
 قال : فأخبرني عن الإيمان قال : (أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ،

(١) لا أصل له .

(٢) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢٥٨٩) : ضعيف .

(٣) تفسير البحر المديد ١٧١/٣ ، ١٧٢ .

واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره) قال صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان قال : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . قال فأخبرني عن الساعة قال : (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل). قال : أخبرني عن أماراتها . قال : (أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان) قال : فمضى فلبثنا ملياً فقال : (يا عمر أتدرون من السائل) قلت : الله ورسوله أعلم . قال : (هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم)^(١).

شرح الحديث :

قال ابن رجب الحنبلي^(٢) :

تخريج الحديث :

هذا الحديث تفرد مسلم عن البخاري بإخراجه ، فخرّجه من طريق كهمس ، عن عبد الله بن بريدة ، عن يحيى بن يعمر ، قال : كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهنني ، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين ، فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر ، فوفّق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما

(١) صحيح البخاري (٥٠) ، صحيح مسلم (٨) (٩) .

(٢) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب واسمه عبد الرحمن بن الحن بن محمد ابن أبي البركات مسعود البغدادي الدمشقي الحنبلي ، الشيخ المحدث الحافظ زين الدين ، ولد ببغداد في ربيع الأول سنة ٧٠٦ هـ ، وقدم دمشق مع والده فسمع معه من محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الخباز ومن إبراهيم بن داود العطار وغيرهما ، وبمصر من أبي الفتح الميديمي وأبي الحرم القلانسي وغيرهما ، وأكثر من المسموع ، وأكثر الاشتغال حتى مهر وصنف : شرح الترمذی ، وقطعة من البخاري ، وذيل الطبقات للحنابلة ، واللطائف في وظائف الأيام بطريق الوعظ وفيه فوائد ، والقواعد الفقهية أجاد فيه ، وقرأ القرآن بالروايات ، وأكثر عن الشيوخ ، وخرج لنفسه مشيخة مفيدة ومات في شهر رجب سنة ٧٩٥ هـ . انظر : الحافظ ابن حجر العسقلاني «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة (٣/١٠٨ ، ١٠٩)» .

داخلاً المسجد ، فاستنفته أنا وصاحبي : أحدنا عن يمينه ، والآخر عن شماله ، فظننتُ أن صاحبي سيَكِلُ الكلامَ إليَّ ، فقلتُ : يا أبا عبد الرحمن ! إنه قد ظهر قِبَلَنَا ناسٌ يقرءون القرآن ، ويتقَفَرُونَ العلم ، وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمرُ أنْفُ؟ فقال : فإذا لقيتَ أولئك ، فأخبرهم أنني بريءٌ منهم ، وأنهم برءاءُ مني ، والذي يحلف به عبد الله بن عمر ، لو أن لأحدهم مثل أحدٍ ذهباً ، فأنفقه ، ما قَبِلَ الله منه حتى يؤمنَ بالقَدَرِ . ثم قال : حدَّثني أبي عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ، فذكر الحديث بطوله . ثم خرَّجه من طرقٍ أخرى ، بعضها يرجعُ إلى عبد الله ابن بريدة ، وبعضها يرجعُ إلى يحيى بن يعمر ، وذكر أن في بعض ألفاظها زيادةً ونقصاً . وقد خرَّجه ابن حبان في صحيحه^(١) من طريق سليمان التيمي ، عن يحيى ابن يعمر ، وقد خرَّجه مسلم من هذا الطريق ، إلا أنه لم يذكر لفظه ، وفيه زياداتٌ منها : في الإسلام ، قال : (وتحج وتعتمر ، وتغتسل من الجنابة ، وأن تتم الوضوء) وقال : فإذا فعلتُ ذلك ، فأنا مسلم ؟ قال : نعم . وقال في الإيمان : (وتؤمن بالجنة والنار والميزان) وقال فيه : (فإذا فعلتُ ذلك فأنا مؤمنٌ ؟ قال : نعم) . وقال في آخره : (هذا جبريل أتاكم ليُعلمكمُ أمر دينكم ، خذوا عنه ، والذي نفسي بيده ما شُبَّه عليّ منذ أتاني قبل مرّتي هذه ، وما عرفته حتى ولّى!) .

رواية الصحيحين :

وخرَّجَاه في الصحيحين^(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : (كان النبي ﷺ يوماً بارزاً للناسِ فأتاه رجلٌ ، فقال : ما الإيمان ؟ قال : (الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ، وبلقائه ، ورسله ، وتؤمن بالبعثِ الآخرِ) . قال : يا رسول الله ! ما الإسلام ؟ قال : (الإسلام : أن تعبد الله لا تشرك به شيئاً ،

(١) صحيح ابن حبان (١٥٩) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٢) تقدم تخريجه ص ١٤٨ .

وتقييم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان) . قال :
يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ،
فإنه يراك) . قال : يا رسول الله ! متى الساعة ؟ قال : (ما المسؤول عنها بأعلم
من السائل ، ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها ، فذاك من
أشراطها ، وإذا رأيت الحفاة العرا رؤوس الناس فذاك من أشراطها ، وإذا
تطاول رعاء البهائم في البنيان ، فذاك من أشراطها : في خمس لا يعلمهن إلا الله)
ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي
الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ
تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان: ٣٤) . قال : (ثم أدبر الرجل فقال
رسول الله ﷺ : ردوا علي الرجل ، فأخذوا ليردوه ، فلم يروا شيئاً ، فقال
رسول الله ﷺ : (هذا جبريل جاءكم ليعلم الناس دينهم) . وخرجه مسلم^(١)
بسياق أتم من هذا ، وفيه - في خصال الإيمان - :

(وتؤمن بالقدر كله) وقال في الإحسان : (أن تخشى الله كأنك تراه) .
وخرجه الإمام أحمد في مسنده^(٢) من حديث شهر بن حوشب ، عن ابن عباس
رضي الله عنهما ، ومن حديث شهر بن حوشب أيضاً ، عن ابن عامر ، أو أبي
عامر ، أو أبي مالك ، عن النبي ﷺ ، وفي حديثه قال : ونسمع رجع النبي ﷺ ،
ولا نرى الذي يكلمه ، ولا نسمع كلامه ، وهذا يردّه حديث عمر الذي خرجه
مسلم ، وهو أصح . وقد روي الحديث عن النبي ﷺ من حديث أنس بن مالك ،
وجبرير بن عبد الله البجلي ، وغيرهما . وهو حديث عظيم جداً ، يشتمل على
شرح الدين كله ، ولهذا قال النبي ﷺ في آخره : (هذا جبريل أتاكم يعلمكم
دينكم) . بعد أن شرح درجة الإسلام ، ودرجة الإيمان ، ودرجة الإحسان ،
فجعل ذلك كله ديناً .

(١) تقدم تخريجه ص ١٤٨ .

(٢) مسند الإمام أحمد (٢٩٢٦) قال شعيب الأرنؤوط : حديث حسن .

المقارنة بين الروايات :

واختلفت الرواية في تقديم الإسلام على الإيمان وعكسه ، ففي حديث عمرَ الذي خرَّجه مسلمٌ : أنه بدأ بالسؤال عن الإسلام ، وفي الترمذي وغيره : أنه بدأ بالسؤال عن الإيمان ، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وجاء في معنى الإسلام :

فأما الإسلام ، فقد فسره النبي ﷺ بأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل ، وأول ذلك شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، وهو عمل اللسان ، ثم إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً . وهي منقسمة إلى عمل بدني : كالصلاة والصوم ، وإلى عمل مالي : وهو إيتاء الزكاة ، بعض روايات حديث عمرَ أنه سأله عن الإحسان بين الإسلام والإيمان .

وإلى ما هو مركبٌ منهما : كالحج بالنسبة إلى البعيد عن مكة . وفي رواية ابنِ حبان^(١) أضاف إلى ذلك الاعتمار ، والغسل من الجنابة ، وإتمام الوضوء . وفي هذا تنبيهٌ على أن جميع الواجبات الظاهرة داخلة في معنى الإسلام . وإنما ذكر هاهنا أصول أعمال الإسلام التي ينبني الإسلام عليها كما سيأتي شرح ذلك في حديث ابن عمر رضي الله عنهما : (بُني الإسلام على خمس)^(٢) في موضعه إن شاء الله تعالى . وقوله في بعض الروايات : فإذا فعلتُ فأنا مسلم؟ قال : (نعم) ، يدل على أن من أكملَ الإتيان بمباني الإسلام الخمس صار مسلماً حقاً ، مع أن من أقر بالشهادتين ، صار مسلماً حُكماً ، فإذا دخل في الإسلام بذلك ، ألزم بالقيام ببقية خصال الإسلام ، ومن ترك الشهادتين ، خرج من الإسلام . وفي خروجه من الإسلام بترك الصلاة خلافٌ مشهورٌ بين

(١) تقدم تخريجه ص ١٤٩ .

(٢) صحيح البخاري (٨) ، صحيح مسلم (١٦) .

العلماء . وكذلك في ترك بقية مباني الإسلام الخمس كما سنذكره في موضعه إن شاء الله تعالى .

أدلة شمول الإسلام للأعمال الظاهرة :

ومما يدل على أن جميع الأعمال الظاهرة تدخل في مسمى الإسلام قول النبي ﷺ : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) ^(١) . وفي الصحيحين ^(٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي ﷺ : أي الإسلام خير؟ قال : (أن تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف) . وفي صحيح الحاكم ^(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : (إن للإسلام ضوءاً ومناراً كمنار الطريق ، من ذلك : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتسليمك على بني آدم إذا لقيتهم وتسليمك على أهل بيتك إذا دخلت عليهم ، فممن انتقص منهن شيئاً ، فهو سهمٌ من الإسلام يدعه ، ومن تركهن فقد نبذ الإسلام وراء ظهره) . وخرجه ابن مردويه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (للإسلام ضياءٌ وعلاماتٌ كمنار الطريق ، فرأسها وجماعها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإتمام الوضوء ، والحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وطاعة ولاة الأمر ، وتسليمكم على أنفسكم ، وتسليمكم على أهلبيكم إذا دخلتم بيوتكم ، وتسليمكم على بني آدم إذا لقيتهم) . وفي إسناده ضعفٌ ، ولعله موقوف . وصح من حديث أبي إسحاق ، عن صلة بن زفر ، عن حذيفة رضي الله عنه قال : الإسلام ثمانية أسهم : الإسلام سهمٌ ، والصلاة سهمٌ ، والزكاة سهمٌ ، والجهاد سهمٌ ، وحج البيت سهمٌ ، وصوم رمضان سهمٌ ، (ولعل السهم الثامن الحج) ،

(١) صحيح البخاري (١٠) (٦١١٩) ، صحيح مسلم (٤٠) (٤١) .

(٢) صحيح البخاري (٢٨) (٥٨٨٢) ، صحيح مسلم (٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو .

(٣) المستدرک علی الصحیحین (٥٢) (٥٣) .

والأمر بالمعروف سهّم ، والنهي عن المنكر سهّم ، وخاب من لا سهّم له .
وخرجه البزار مرفوعاً ، والموقوف أصح .

معنى أن الإسلام سهّم :

ورواه بعضهم عن أبي إسحق ، عن الحارث ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، خرّجه أبو يعلى الموصلي وغيره ، والموقوف على حذيفة أصح . قاله الدارقطني وغيره . وقوله : الإسلام سهّم يعني : الشهادتين ؛ لأنهما علّم الإسلام ، وبهما يصير الإنسان مسلماً . وكذلك ترك المحرمات داخل في مسمّى الإسلام أيضاً . كما روي عن النبي ﷺ أنه قال : (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) ^(١) وسيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى . ويدل على هذا أيضاً ما خرّجه الإمام أحمد ، والترمذي ، والنسائي من حديث النّوّاس بن سميّان رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : (ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط سوران ، فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها النّاس ! ادخلوا الصراط جميعاً ، ولا تعوجوا ، وداع يدعو من جوف الصراط ، فإذا أراد أحد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب ، قال : ويحك ! لا تفتح ، فإنك إن تفتحه تلجه . والصراط : الإسلام . والسوران : حدود الله عز وجل ، والأبواب المفتحة : محارم الله ، وذلك الداعي على رأس الصراط : كتاب الله . والداعي من فوق : واعظ الله في قلب كل مسلم) ^(٢) . زاد الترمذي ^(٣)

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (يونس: ٢٥)

(١) سنن الترمذي (٢٣١٧) وقال : حديث غريب . قال الألباني : حديث صحيح .

(٢) مسند الإمام أحمد (١٧٦٧١) قال شعيب الأرنؤوط : حديث صحيح وهذا إسناد حسن .

(٣) سنن الترمذي (٢٨٥٩) وقال : حديث غريب . قال الألباني : حديث صحيح .

الإسلام هو الصراط المستقيم :

ففي هذا المثل الذي ضربه النبي ﷺ أن الإسلام هو الصراط المستقيم الذي أمر الله تعالى بالاستقامة عليه ، ونهى عن مجاوزة حدوده ، وأن من ارتكب شيئاً من المحرمات ، فقد تعدى حدوده .

معنى الإيمان في القرآن والسنة :

وأما الإيمان فقد فسره النبي ﷺ في هذا الحديث بالاعتقادات الباطنة ، فقال : (أن تُؤْمِنَ بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، والبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر : خيره وشره). وقد ذكر الله في كتابه : الإيمان بهذه الأصول الخمسة في مواضع ، كقوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ (البقرة: ٢٨٥). وقال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْآبِرَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (البقرة: ١٧٧) ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧) ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧) ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧) ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧) .

لازم الإيمان بالرسول :

والإيمان بالرسول يلزم منه الإيمان بجميع ما أخبروا به من الملائكة ، والأنبياء ، والكتاب ، والبعث ، والقدر ، وغير ذلك من تفاصيل ما أخبروا وغير ذلك من صفات الله وصفات اليوم الآخر كالميزان والصراط ، والجنة ، والنار . وقد أدخل في الإيمان : الإيمان بالقدر : خيره وشره . ولأجل هذه الكلمة روى ابن عمر رضي الله عنهما هذا الحديث محتجاً به على من أنكر القدر ، وزعم أن الأمر أنف : يعني أنه مُستأنف لم يسبق به سابق قدر من الله عز وجل ، وقد غلظ عبد الله بن عمر عليهم ، وتبرأ منهم ، وأخبر أنه لا تقبل منهم أعمالهم بدون الإيمان بالقدر .

درجتا الإيمان بالقدر :

والإيمان بالقدر على درجتين : إحداهما : الإيمان بأن الله تعالى سبق في علمه ما يعمَلُه العبادُ من خيرٍ وشرٍّ وطاعةٍ ومعصيةٍ قبل خلقهم وإيجادهم ، ومن هو منهم من أهل الجنة ، ومن أهل النار ، وأعد لهم الثواب والعقاب جزاءً لأعمالهم قبل خلقهم وتكوينهم ، وأنه كتبَ ذلكَ عنده وأحصاهُ ، وأن أعمال العباد تجري على ما سبق في علمه وكتابه . والدرجة الثانية : أن الله تعالى خلق أفعال عباده كلها من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان وشاءها منهم ، فهذه الدرجة يُشَبِّهها أهل السنة والجماعة ، وينكرها القدرية ، والدرجة الأولى أثبتتها كثيرٌ من القدرية ، ونفاها غلاتهم ، كمعبدِ الجهنِّيِّ ، الذي سئل ابن عمر عن مقالته ، وكعمرو بن عبيدٍ وغيره . وقد قال كثيرٌ من أئمة السلف : ناظروا القدرية بالعلم ، فإن أقروا به خَصِمُوا ، وإن جَحَدُوا ، فقد كفروا ، يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد ، وأن الله قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد ، وكتب ذلك عنده في كتابٍ حفيظٍ ، فقد كذب بالقرآن ، فيكفر بذلك ، وإن أقروا بذلك ، وأنكروا أن الله خلق أفعال العباد ، وشاءها ، وأرادها منهم إرادةً كونيةً قدريةً ، فقد خَصِمُوا ؛ لأن ما أقروا به حُجَّةٌ عليهم فيما أنكروه . وفي تكفير هؤلاء نزاعٌ مشهورٌ بين العلماء .

من أنكر العلم :

وأما من أنكر العلم القديم فنص الشافعي وأحمد على تكفيره ، وكذلك غيرهما من أئمة الإسلام .

بين الإيمان والإسلام :

فإن قيل : فقد فرَّق النبي ﷺ في هذا الحديث بين الإسلام والإيمان وجعل الأعمال كلها من الإسلام ، لا من الإيمان ، والمشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان : قولٌ وعملٌ ونيةٌ ، وأن الأعمال كلها داخلَةٌ في مُسمَّى الإيمان ، وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم

ممن أدركهم ، وأنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الإيمان إنكاراً شديداً ، وممن أنكر ذلك على قائله ، وجعله قولاً مُحدثاً : سعيد بن جبير ، وميمون ابن مهران ، وقتادة ، وأيوب السَّخْتِيَّاني ، وإبراهيم النخعي ، والزهري ، ويحيى ابن أبي كثير ، وغيرهم . وقال الثوري : هو رأيٌ محدثٌ ، أدركنا الناسَ على غيره . وقال الأوزاعي : كان من مضى ممن سلف لا يُفرِّقون بين الإيمان والعمل . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار : أما بعد ، فإن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً ، فمن استكملها ، استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها ، لم يستكمل الإيمان . ذكره البخاري في صحيحه . قيل : الأمر على ما ذكره .

دخول الأعمال في الإيمان :

وقد دل على دخول الأعمال في الإيمان قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الذِّكْرِ: يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ] ﴿١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ (الأنفال: ٢-٤) . وفي الصحيحين ^(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ قال لوفد عبد القيس : (أمركم بأربع : الإيمان بالله وحده ، وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس) . وفي الصحيحين ^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : (الإيمان بضع وسبعون ، أو بضع وستون شعبةً ، فأفضلها : قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبةٌ من الإيمان) . ولفظه لمسلم . وفي الصحيحين ^(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : (لا يزني

(١) صحيح البخاري (٥٣) (٨٧) (٥٢٣) ، صحيح مسلم (١٧) .

(٢) صحيح البخاري (٩) ، صحيح مسلم (٣٥) .

(٣) صحيح البخاري (٢٤٧٥) (٥٥٧٨) (٦٨١٠) ، صحيح مسلم (٥٧) .

الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمنٌ ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمنٌ) . فلو لا أن ترك هذه الكبائر من مُسمى الإيمان لما انتفى اسم الإيمان عن مرتكب شيءٍ منها ؛ لأن الاسم لا ينتفى إلا بانتفاء بعض أركان المسمى ، أو واجباته .

وجه الجمع بين النصوص :

وأما وجه الجمع بين هذه النصوص وبين حديث سؤال جبريل عليه السلام ، عن الإسلام والإيمان ، وتفريق النبي ﷺ بينهما ، وإدخاله الأعمال في مُسمى الإسلام دون مُسمى الإيمان ، فإنه يتضح بتقرير أصل ، وهو أن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسميات متعددة عند إفراده وإطلاقه . فإذا قرن ذلك الاسم بغيره صار دالاً على بعض تلك المسميات . والاسم المقرون به دالاً على باقيها ، وهذا كاسم الفقير والمسكين ، فإذا أُفرد أحدهما دخل فيه كل من هو محتاجٌ ، فإذا قرن أحدهما بالآخر دلَّ أحد الاسمين على بعض أنواع ذوي الحاجات ، والآخر على باقيها . فهكذا اسم الإسلام والإيمان : إذا أُفرد أحدهما دخل فيه الآخر ، ودل بانفراده على ما يدل عليه الآخر ، فإذا قرن بينهما دلَّ أحدهما على بعض ما يدلُّ عليه بانفراده ، ودلَّ الآخر على الباقي ، وقد صرح بهذا المعنى جماعةٌ من الأئمة : قال أبو بكر الإسماعيلي في رسالته إلى أهل الجبل : قال كثيرٌ من أهل السنة والجماعة : إن الإيمان قولٌ وعملٌ ، والإسلام فعل ما فرض الله على الإنسان أن يفعله ، إذا ذكر كل اسم - على حدته - مضموماً إلى الآخر ، فقليل : المؤمنون والمسلمون جميعاً مفردين ، أريد بأحدهما معنى لم يُرد بالآخر ، وإذا ذُكر أحد الاسمين ، شَمِلَ الكل وعمهم . وقد ذكر هذا المعنى أيضاً الخطابي في كتابه معالم السنن ، وتبعه عليه جماعةٌ من العلماء من بعده ، ويدل على صحة ذلك أن النبي ﷺ فسر الإيمان عند ذكره مفرداً في حديث وفد عبد القيس بما فسر به الإسلام المقرون بالإيمان في حديث جبريل ، وفسر في حديث آخر : الإسلام بما فسر به الإيمان ، كما في مسند

الإمام أحمد^(١) عن عمرو بن عَبْسة ، قال : جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : (أَنْ يُسَلَّمَ قَلْبُكَ لَهِ ، وَأَنْ يُسَلَّمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدُكَ ، قال : فأَيُّ الإسلام أفضل ؟ قال : الإيمان . قال : وما الإيمان ؟ قال : أَنْ تَوْمَنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكِتَابِهِ ، وَرَسُولِهِ ، وَالْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ . قال : فأَيُّ الإيمان أفضل ؟ قال : الهجرة . قال : فما الهجرة ؟ قال : أَنْ تَهْجَرَ السُّوءَ ، قال : فأَيُّ الهجرة أفضل ؟ قال : (الجهاد) . فجعل النبي ﷺ الإيمان أفضل الإسلام ، وأدخل فيه الأعمال .

بين الإيمان والإسلام :

وبهذا التفصيل يظهر تحقيق القول في مسألة الإسلام والإيمان : هل هما واحدٌ ، أو هما مختلفان فإن أهل السنة والحديث مختلفون في ذلك ، وصنفوا في ذلك تصانيف متعددة ، فمنهم من يدعي أن جمهور أهل السنة على أنهما شيءٌ واحدٌ منهم محمد بن نصر المروزي ، وابن عبد البر ، وقد روي هذا القول عن سفيان الثوري من رواية أيوب بن سويد الرملي عنه ، وأيوب فيه ضعف ، ومنهم من يحكي عن أهل السنة التفريق بينهما ، كأبي بكر بن السمعاني وغيره ، وقد نقل التفريق بينهما عن كثيرٍ من السلف ، منهم : قتادة ، وداود بن أبي هند ، وأبو جعفر الباقر ، والزهري ، وحمام بن زيد ، وابن مهدي ، وشريك ، وابن أبي ذئب ، وأحمد بن حنبل ، وأبو خيثمة ، ويحيى بن معين ، وغيرهم ، على اختلافٍ بينهم في صفة التفريق بينهما ، وكان الحسن وابن سيرين يقولان : مسلمٌ ، ويهابان مؤمنٌ . وبهذا التفصيل الذي ذكرناه يزول الاختلاف ، فيقال : إذا أُفرد كل من الإسلام والإيمان بالذكر فلا فرق بينهما حينئذٍ ، وإن قُرِنَ بين الاسمين ، كان بينهما فرقٌ .

(١) مسند الإمام أحمد (١٧٠٦٨) قال شعيب الأرنؤوظ : حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين .

التحقيق في الفرق بين الإيمان والإسلام :

والتحقيق في الفرق بينهما : أن الإيمان هو تصديق القلب ، وإقراره ، ومعرفته . والإسلام : هو استسلام العبد لله ، وخضوعه ، وانقياده له ، وذلك يكون بالعمل ، وهو الدين ، كما سمي الله تعالى في كتابه : الإسلام ديناً ، وفي حديث جبريل سمي النبي ﷺ الإسلام والإيمان والإحسان ديناً ، وهذا أيضاً مما يدل على أن أحد الاسمين إذا أُفردَ دخل فيه الآخر ، وإنما يفرق بينهما حيث قرنَ أحد الاسمين بالآخر ، فيكون حينئذٍ المراد بالإيمان : جنس تصديق القلب ، وبالإسلام جنس العمل . وفي المسند^(١) للإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : (الإسلام علانية ، والإيمان في القلب) . وهذا لأن الأعمال تظهر علانية ، والتصديق في القلب لا يظهر . وكان النبي ﷺ يقول في دعائه إذا صلى على الميت : (اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ، ومن تَوَفَّيْتَهُ منا فتوفّه على الإيمان)^(٢) . لأن الأعمال بالجوارح إنما يتمكن منه في الحياة ، فأما عند الموت فلا يبقى غير التصديق بالقلب .

لماذا قيل : كل مؤمن مسلم :

ومن هنا قال المحققون من العلماء : كل مؤمن مسلم ، فإن من حقق الإيمان ، ورسخ في قلبه : قام بأعمال الإسلام ، كما قال ﷺ : (ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب)^(٣) ، فلا يتحقق القلب بالإيمان إلا وتنبعث الجوارح في أعمال الإسلام . وليس كل مسلم مؤمناً ، فإنه قد يكون الإيمان ضعيفاً ، فلا يتحقق القلب به تحققاً تاماً مع عمل جوارحه بأعمال الإسلام فيكون مسلماً ، وليس بمؤمن الإيمان التام ، كما قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا

(١) مسند الإمام أحمد (١٢٤٠٤) قال شعيب الأرنؤوط : إسناده ضعيف .

(٢) سنن الترمذي (١٠٢٤) وقال : حسن صحيح . قال الألباني : صحيح .

(٣) صحيح البخاري (٥٢) ، صحيح مسلم (١٥٩٩) .

وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴿ (الحجرات: ١٤) ولم يكونوا منافقين بالكلية على أصح التفسيرين ، وهو قول ابن عباس وغيره ، بل كان إيمانهم ضعيفاً ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً ﴾ (الحجرات: ١٤) ، يعني : لا ينقصكم من أجورها ، فدل على أن معهم من الإيمان ما تُقبلُ به أعمالهم . وكذلك قول النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص لما قال له : (لم تعطِ فلاناً وهو مؤمن ؟) فقال النبي ﷺ : (أو مسلم؟) يشير إلى أنه لم يُحقق مقام الإيمان وإنما هو في مقام الإسلام الظاهر .

متى ضعف الإيمان ضعف العمل :

ولا ريب أنه متى ضعف الإيمان الباطن ، لزم منه ضعف أعمال الجوارح الظاهرة أيضاً ، لكن اسم الإيمان ينفي عمن ترك شيئاً من واجباته ، كما في قوله ﷺ : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) ^(١).

بم يوصف المؤمن حينئذ :

وقد اختلف أهل السنة هل يسمى مؤمناً ناقص الإيمان ، أو يقال : ليس بمؤمن لكنه مسلم ؟ على قولين ، وهما روايتان عن أحمد . وأما اسم الإسلام ، فلا ينتفي بانتفاء بعض واجباته أو انتهاك بعض محرماته وإنما ينتفي بالإتيان بما ينافية بالكلية ، ولا يعرف في شيء من السنة الصحيحة نفي الإسلام عمن ترك شيئاً من واجباته كما ينفي الإيمان عمن ترك شيئاً من واجباته ، وإن كان قد ورد إطلاق الكفر على فعل بعض المحرمات ، وإطلاق النفاق أيضاً . واختلف العلماء : هل يسمى مرتكب الكبائر كافراً كفراً أصغراً أو منافقاً النفاق الأصغر ، ولا أعلم أن أحداً منهم أجاز إطلاق نفي اسم الإسلام عنه ، إلا أنه روي عن ابن مسعود أنه قال : ما تارك الزكاة بمسلم . ويحتمل أنه كان يراه

(١) تقدم تخريجه ص ١٥٦ .

كافراً بذلك خارجاً عن الإسلام . وكذلك روي عن عمر رضي الله عنه فيمن تمكن من الحج ولم يحج أنهم ليسوا بمسلمين . والظاهر أنه كان يعتقد كفرهم ، ولهذا أراد أن يضرب عليهم الجزية . يقول : لم يدخلوا في الإسلام بعد ، فهم مستمرّون على كتابتهم .

متى يجوز نفي وصف الإسلام :

وإذا تبين أن اسم الإسلام لا ينتفي إلا بوجود ما ينافيه ويخرج عن الملة بالكلية ، فاسم الإسلام إذا أطلق أو اقترن به المدح ، دخل فيه الإيمان كله من التصديق وغيره كما سبق في حديث عمرو بن عبسة .

الإسلام المطلق ومتى يصير المسلم مؤمناً :

وخرّج النسائي^(١) من حديث عقبة بن مالك أن النبي ﷺ بعث سريةً ، فأغارت على قوم ، فقال رجلٌ منهم : إني مسلمٌ ؟ فقتله رجلٌ من السرية ، فَنَمِيَ الحديث إلى رسول الله ﷺ ، فقال فيه قولاً شديداً فقال الرجل : إنما قالها تَعَوُّداً من القتل ؟ فقال النبي ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ أَبِي عَلِيٍّ مِنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا) . ثلاث مرات . فلولا أن الإسلام المطلق يدخل فيه الإيمان والتصديق بالأصول الخمسة ، لم يَصِرْ من قال أنا مسلمٌ مؤمناً بمجرد هذا القول . وقد أخبر الله عن ملكة سبأ أنها دخلت في الإسلام بهذه الكلمة وقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (النمل: ٤٤) ، وأخبر عن يوسف عليه السلام : أنه دعا بأن يموت على الإسلام . وهذا كله يدل على أن الإسلام المطلق يدخل فيه ما يدخل في الإيمان من التصديق .

(١) في السنن الكبرى (٨٥٣٩) .

من الأدلة الأخرى على هذا :

وفي سنن ابن ماجه^(١) عن عدي بن حاتم ، قال : قال لي رسول الله ﷺ :
(يا عدي ! أسلم تسلم) قلت : وما الإسلام ؟ قال : (تشهد أن لا إله إلا الله ،
وتشهد أني رسول الله ، وتؤمن بالأقدار كلها ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها) .
وهذا نص في أن الإيمان بالقدر من الإسلام ، ثم إن الشهادتين من خصال
الإسلام بغير نزاع ، وليس المراد الإتيان بلفظهما دون التصديق بهما ، فعلم أن
التصديق بهما داخل في الإسلام . وقد فسر الإسلام المذكور في قوله تعالى :
﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (آل عمران: ١٩) بالتوحيد والتصديق طائفة
من السلف منهم محمد بن جعفر بن الزبير .

إيمان الصديقين :

وماذا إذا نفي الإيمان وأثبت الإسلام ؟ :

وأما إذا نفي الإيمان عن أحدٍ وأثبت له الإسلام كالأعراب الذين أخبر الله
عنهم ، فإنه ينتفي عنهم رسوخ الإيمان في القلب ، وتثبت لهم المشاركة في
أعمال الإسلام الظاهرة مع نوع إيمانٍ يصحح لهم العمل ، إذ لولا هذا القدر
من الإيمان لم يكونوا مسلمين ، وإنما نفي عنهم الإيمان ؛ لانتفاء ذوق حقائقه ،
ونقص بعض واجباته ، وهذا مبني على أن التصديق القائم بالقلوب يتفاضل ،
وهذا هو الصحيح ، وهو أصح الروايتين عن أبي عبد الله : أحمد بن حنبل ،
فإن إيمان الصديقين الذين يتجلى الغيب لقلوبهم حتى يصير كأنه شهادةٌ بحيث
لا يقبل التشكيك ولا الارتياب ، ليس كإيمان غيرهم ممن لم يبلغ هذه الدرجة ،
بحيث لو شكك لدخله الشك ، ولهذا جعل النبي ﷺ مرتبة الإحسان أن يعبد
العبد ربه كأنه يراه ، وهذا لا يحصل لعموم المؤمنين . ومن هنا قال بعضهم :
ما سبقكم أبو بكر رضي الله عنه بكثرة صوم ولا صلاة ، ولكن بشيءٍ وقر في

(١) سنن ابن ماجه (٨٤) قال الألباني : ضعيف جداً .

صدره . وسئل ابن عمر رضي الله عنهما : هل كانت الصحابة رضي الله عنهم يضحكون ؟ فقال : نعم ! وإن الإيمان في قلوبهم أمثال الجبال . فأين هذا ممن الإيمان في قلبه يزنُ ذرةً أو شعيرةً كالذين يخرجون من أهل التوحيد من النار ، فهؤلاء يصح أن يقال في حقهم لم يدخل الإيمان في قلوبهم لضعفه عندهم .

خطورة قضايا الإيمان والكفر :

وهذه المسائل - أعني مسائل الإسلام والإيمان والكفر والتفريق - مسائل عظيمةٌ جداً ، فإن الله علق بهذه الأسماء : السعادة ، والشقاوة ، واستحقاق الجنة والنار .

الخلافا فيها كان أول خلاف :

والاختلاف في مسمياتها أول اختلافٍ وقع في هذه الأمة ، وهو خلاف الخوارج للصحابة ، حيث أخرجوا عصاة الموحدين من الإسلام بالكلية ، وأدخلوهم في دائرة الكفر ، وعاملوهم معاملة الكفار ، واستحلوا بذلك دماء المسلمين وأموالهم ، ثم حدث بعدهم خلاف المعتزلة وقولهم بالمنزلة بين المنزلتين ، ثم حدث خلاف المرجئة ، وقولهم : إن الفاسق مؤمنٌ كامل الإيمان . وقد صنف العلماء قديماً وحديثاً في هذه المسائل تصانيف متعددة ، وممن صنف في الإيمان من أئمة السلف : الإمام أحمد ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو بكر بن أبي شيبة ، ومحمد بن أسلم الطوسي . وكثرت فيه التصانيف بعدهم من جميع الطوائف . وقد ذكرنا هاهنا نكتاً جامعةً لأصول كثيرة من هذه المسائل والاختلاف فيها ، وفيه إن شاء الله كفاية .

فصل

فيما يدخل في مسمى الإسلام والإيمان :

قد تقدم أن الأعمال تدخل في مسمى الإسلام ومسمى الإيمان أيضاً ، وذكرنا ما يدخل في ذلك من أعمال الجوارح الظاهرة ، ويدخل في مسماهما

أيضاً أعمال الجوارح الباطنة ، فيدخل في أعمال الإسلام إخلاصُ الدِّينِ لله ، والنصح له ولعباده ، وسلامة القلب لهم من الغش والحسد والحقد ، وتوابع ذلك من أنواع الأذى ، ويدخل في مسمى الإيمان وجَلُّ القلوب من ذكر الله ، وخشوعها عند سماع ذكره وكتابه ، وزيادة الإيمان بذلك ، وتحقيق التوكل على الله ، وخوف الله سرّاً وعلانيةً ، والرضا بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمدٍ ﷺ رسولاً ، واختيارُ تلف النفوس - بأعظم أنواع الآلام - على الكفر ، واستشعارُ قرب الله من العبد ، ودوام استحضاره ، وإيثارُ محبة الله ورسوله على محبة ما سواههما ، والحب في الله والبغض في الله ، والعطاء له ، والمنع له ، وأن يكون جميع الحركات والسكنات له ، وسماحة النفوس بالطاعة المالية والبدينية ، والاستبشار بعمل الحسنات ، والفرح بها ، والمساءة بعمل السيئات والحزن عليها ، وإيثار المؤمنين لرسول الله ﷺ على أنفسهم وأموالهم ، وكثرة الحياء ، وحسن الخلق ، ومحبة ما يحبه لنفسه - لإخوانه المؤمنين ، ومواساة المؤمنين - خصوصاً الجيران ، ومعاودة المؤمنين ، ومناصرتهم ، والحزن بما يحزنهم .

أدلة ما تقدم :

ولنذكر بعض النصوص الواردة بذلك .

دخول العمل في مسمى الإسلام :

فأما ما ورد في دخوله في اسم الإسلام ، ففي مسند الإمام أحمد^(١) ، والنسائي^(٢) عن معاوية بن حيدة ، قال : قلت : يا رسول الله ! بالذي بعثك بالحق ، ما الذي بعثك به ؟ قال : (الإسلام) ، قلت : وما الإسلام ؟ قال : (أن تُسلم قلبك لله ، وأن توجه وجهك إلى الله ، وتُصلي الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة) ، وفي رواية له : قلت : وما آية الإسلام ؟ قال : (أن تقول :

(١) مسند الإمام أحمد (٢٠٠٣٦) قال شعيب الأرنؤوط : حديث صحيح لغيره وهذا إسناد حسن من أجل حكيم بن معاوية .

(٢) سنن النسائي (٢٥٦٨) قال الألباني : حسن .

أُسْلِمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ ، وَتَخَلَّيْتُ ، وَتَقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَكُلُّ مُسْلِمٍ عَلَى مُسْلِمٍ حَرَامٌ. وفي السنن^(١) عن جبير بن مطعم ، عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنَى : (ثَلَاثٌ لَا يَغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ : إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ ، وَمُنَاصَحَةُ وَلَاةِ الْأُمُورِ ، وَلِزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنْ دَعَوْتَهُمْ تَحِيْطٌ مِنْ وَرَائِهِمْ). فَأَخْبَرَ أَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَ الْخِصَالَ تَنْفِي الْغِلَّ عَنْ قَلْبِ الْمُسْلِمِ . وفي الصَّحِيحَيْنِ^(٢) عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ أَيُّ الْمُسْلِمِينَ أَفْضَلُ؟ قَالَ : (مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ) . وفي صحيح مسلم^(٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، فَلَا يَظْلِمُهُ ، وَلَا يَخْذُلُهُ ، وَلَا يَحْقِرُهُ ، بِحَسَبِ أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ . كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ : دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرْضُهُ).

دخول العمل في اسم الإيمان :

وأما ما ورد في دخوله في اسم الإيمان ، فمثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢-٤] وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦] . وقوله : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ١١] ، وقوله : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣] ، وقوله : ﴿ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥] . وفي صحيح مسلم^(٤)

(١) سنن الترمذي (٢٦٥٨) ، سنن ابن ماجه (٣٠٤٧) قال الألباني : صحيح .

(٢) تقدم تخريجه ص ١٥٨ .

(٣) صحيح مسلم (٢٥٦٤) .

(٤) المصدر السابق (٣٤) .

عن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ قال : (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً) .

معنى الرضا بالله رباً :

والرضا بربوبية الله يتضمن الرضا بعبادته وحده لا شريك له ، والرضا بتدبيره للعبد واختياره له ، والرضا بالإسلام ديناً يتضمن اختياره على سائر الأديان ، والرضا بمحمد رسولاً يتضمن الرضا بجميع ما جاء به من عند الله ، وقبول ذلك بالتسليم والانسراح كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء: ٦٥) . وفي الصحيحين^(١) عن أنس عن النبي ﷺ قال : (ثلاثٌ من كُن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار) . وفي رواية^(٢) : (وجد بهن طعم الإيمان) ، وفي بعض الروايات^(٣) : (طعم الإيمان وحلاوته) . وفي الصحيحين^(٤) عن أنس عن النبي ﷺ قال : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ، ووالده ، والناس أجمعين) وفي رواية : (من أهله ، وماله ، والناس أجمعين) . وفي مسند الإمام أحمد^(٥) عن أبي رزين العقيلي قال : قلت : يا رسول الله ، ما الإيمان؟ قال : (أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما ، وأن تحترق في النار أحب إليك من أن تشرك بالله شيئاً ، وأن تُحب غير ذي نسب لا تحبه إلا الله عز وجل ، فإذا كنت كذلك ، فقد دخل حب الإيمان في

(١) البخاري (١٦) (٢١) (٦٠٤١) (٦٩٤١) ، صحيح مسلم (٤٣) .

(٣) سنن النسائي (٤٩٨٧) قال الألباني : صحيح .

(٤) صحيح البخاري (١٥) ، صحيح مسلم (٤٤) .

(٥) مسند الإمام أحمد (١٦٢٣٩) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

قلبك كما دخل حُب الماء للظمان في اليوم القاطن). قلت : يا رسول الله ، كيف لي بأن أعلم أنني مؤمنٌ ؟ قال : ما من أمتي أو هذه الأمة عبدٌ يعملُ حسنةً ، ويعلم أنها حسنةٌ ، وأن الله عزوجل جازيه بها خيراً ، ولا يعمل سيئةً ، فيعلم أنها سيئةٌ ، ويستغفرُ الله منها ، ويعلم أنه لا يغفرها إلا هو ، إلا وهو مؤمنٌ).

من الإيمان أن تسرك حسناتك :

وفي المسند^(١) وغيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : (من سرته حسنته ، وسأته سيئته فهو مؤمنٌ). وفي مسند بقي بن مخلد عن رجل سمع رسول الله ﷺ قال : (صريحُ الإيمان إذا أسأت ، أو ظلمت أحداً : عبدك ، أو أمتك ، أو أحداً من الناس ، صمت أو تصدقت ، وإذا أحسنت استبشرت).

من صور الإيمان :

وفي مسند الإمام أحمد^(٢) عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : (المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء : الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، ثم الذي إذا أشرف على طمع تركه لله عزوجل) .

من تعريفات الرسول ﷺ للإيمان والإسلام وأفضل التطبيقات لهما :

وفيه أيضاً عن عمرو بن عبسة ، قال : قلت : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : (طيبُ الكلام ، وإطعامُ الطعام) فقلت : ما الإيمان ؟ قال : (الصبر والسَّماحة) قلت : أيُّ الإسلام أفضل ؟ قال : (من سلم المسلمون من لسانه

(١) المصدر السابق (١١٤) قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين .

(٢) المصدر السابق (١١٠٦٥) قال شعيب الأرنؤوط : إسناده ضعيف .

ويده) قلت : أي الإيمان أفضل ؟ قال : (خُلِقَ حَسَنٌ)^(١). وقد فسر الحسن البصري الصبر والسماحة ، فقال : هو الصبر عن محارم الله عز وجل ، والسَّماحةُ بأداء فرائض الله عز وجل .

أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا :

وفي الترمذي^(٢) وغيره عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا) ، وخرَّجه أبو داود^(٣) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

من الإيمان التوحيد وإيتاء الزكاة والعلم بمعية الله :

وخرَّج البزار في مسنده من حديث عبد الله بن معاوية الغاضري عن النبي ﷺ قال : (ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ ، فَقَدْ طَعِمَ طَعِمَ الْإِيمَانَ : مَنْ عَبْدَ اللَّهِ وَحَدَهُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ) وذكر الحديث ، وفي آخره : فقال رجلٌ : وما تزكية المرء نفسه يا رسول الله ؟ قال : (أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ) . وخرج أبو داود^(٤) أول الحديث دون آخره . وخرج الطبراني^(٥) من حديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : (إِنْ أَفْضَلَ الْإِيمَانَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُ كُنْتَ) .

(١) مسند الإمام أحمد (١٩٤٥٤) قال شعيب الأرناؤوط : صحيح لغيره وهذا إسناد فيه ضعف وانقطاع .

(٢) سنن الترمذي (١١٦٢) وقال : حسن صحيح . قال الألباني : حسن صحيح .

(٣) سنن أبي داود (٤٦٨٢) قال الألباني : حسن صحيح .

(٤) المصدر السابق (١٥٨٢) قال الألباني : ضعيف .

(٥) معجم الطبراني الأوسط (٨٧٦٩) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢٥٨٩) : ضعيف .

ومن الإيمان الحياء من الله عزوجل :

وفي الصحيحين^(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال :
(الحياء شعبة من الإيمان).

سهولة انقياد المؤمن لأمر الله ورسوله :

وخرج الإمام أحمد^(٢)، وابن ماجه^(٣) من حديث العرباض بن سارية عن النبي ﷺ قال : (إنما المؤمن كالجمل الأنف ، حيثما قيد انقاد) . وقال الله عزوجل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الحجرات: ١٠) .

الإيمان وترابط أفراد المجتمع :

وفي الصحيحين^(٤) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :
(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر) . وفي رواية لمسلم :
(المؤمنون كرجل واحد) . وفي رواية له أيضاً : (المسلمون كرجل واحد إذا اشتكى عينه ، اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه ، اشتكى كله) . وفي الصحيحين^(٥)
عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) وشبك بين أصابعه . وفي مسند الإمام أحمد^(٦) عن سهل ابن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس) .

(١) صحيح البخاري (٢٤) (٥٧٦٧) ، صحيح مسلم (٣٦) .

(٢) مسند الإمام أحمد (١٧١٨٢) قال شعيب الأرناؤوط : حديث صحيح بطرقه وشواهده وهذا إسناد حسن .

(٣) سنن ابن ماجه (٤٣) قال الألباني : صحيح .

(٤) صحيح البخاري (٤٧٦) (١٣٦٥) (٢٣١٤) ، صحيح مسلم (٢٥٨٦) .

(٥) صحيح البخاري (٤٧٦) (١٣٦٥) (٢٣١٤) ، صحيح مسلم (٢٥٨٦) .

(٦) مسند الإمام أحمد (٢٢٩٢٨) قال شعيب الأرناؤوط : صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف .

الأخوة بين المؤمنين :

وفي سنن أبي داود^(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال :
(المؤمن مرأة المؤمن ، المؤمن أخو المؤمن ، يكف عنه ضيعته ، ويحوطه من ورائه). وفي الصحيحين^(٢) عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

نفي الإيمان عمن لا يؤمن أذاه :

وفي صحيح البخاري^(٣) عن أبي شريح الكعبي عن النبي ﷺ قال : (والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن) قالوا : من ذاك يا رسول الله ؟! قال : (من لا يأمن جاره بوائقه) .

نفي الإيمان عمن يشبع وجاره جائع :

وخرج الحاكم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال :
(ليس بمؤمن من يشبع وجاره جائع)^(٤).

من شعب الإيمان أن تعطي الله وتمنع الله وتحب الله وتبغض الله :

وخرج الإمام أحمد^(٥) والترمذي^(٦) من حديث سهل بن معاذ الجهني عن النبي ﷺ قال (من أعطى الله ، ومنع الله ، وأحب الله ، وأبغض - زاد الإمام أحمد - وأنكح الله فقد استكمل إيمانه).

(١) سنن أبي داود (٤٩١٨) قال الألباني : حسن .

(٢) صحيح البخاري (١٣) ، صحيح مسلم (٤٥) .

(٣) صحيح البخاري (٥٦٧٠) .

(٤) المستدرک علی الصحيحین (٧٣٠٧) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (١٤٩) .

(٥) مسند الإمام أحمد (١٥٦٥٥) قال شعيب الأرنؤوط : حديث صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف .

(٦) سنن الترمذي (٢٥٢١) وقال : حديث حسن . قال الألباني : حسن .

وتعمل لسانك في ذكر الله وتحب للناس ما تحب لنفسك :

وفي رواية للإمام أحمد^(١) : أنه سأل النبي ﷺ عن أفضل الإيمان فقال : (أن تُحب الله ، وتُبغض الله ، وتُعمل لسانك في ذكر الله) فقال : وماذا؟ يا رسول الله! قال : (أن تُحب للناس ما تُحب لنفسك ، وتكره لهم ما تكره لنفسك).

وأن تقول خيراً أو تصمت :

وفي رواية^(٢) له : (وأن تقول خيراً أو تصمت) . وفي هذا الحديث : أن كثرة ذكر الله من أفضل الإيمان .

الحب في الله سفير الولاية مع الله :

وخرج أيضاً من حديث عمرو بن الجموح : أنه سمع النبي ﷺ يقول : (لا يستحق العبد صريح الإيمان حتى يحب الله ويبغض الله ، فإذا أحبَّ الله وأبغض الله ، فقد استحق الولاية من الله تعالى)^(٣) . وخرج أيضاً من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إن أوثق عُرى الإيمان أن تُحب في الله ، وتبغض في الله)^(٤) . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووال في الله ، وعاد في الله ، فإنما تُنال ولاية الله بذلك ، ولن يجدَ عبدٌ طعم الإيمان وإن كثرت صلواته وصومه حتى يكون كذلك وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يُجدي على أهله شيئاً .
خرجه محمد بن جرير الطبري ومحمد بن نصر المروزي .

(١) مسند الإمام أحمد (٢٢١٨٣) قال شعيب الأرناؤوط : صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف .

(٢) المصدر السابق (٢٢١٨٥) قال شعيب الأرناؤوط : صحيح لغيره وهذا إسناد ضعيف .

(٣) المصدر السابق (١٥٥٨٨) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

(٤) المصدر السابق (١٨٥٤٧) قال شعيب الأرناؤوط : حديث حسن بشواهده وهذا إسناد ضعيف .

فصل

عن الإحسان وكيف ورد في القرآن والسنة ؟ :

وأما الإحسان فقد جاء ذكره في القرآن في مواضع : تارةً مقرونًا بالإيمان ، وتارةً مقرونًا بالإسلام ، وتارةً مقرونًا بالتقوى ، أو بالعمل .

الإحسان مقرونًا بالإيمان :

فالمقرونُ بالإيمان : كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة: ٩٣) ، وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (الكهف: ٣٠) .

وبالإسلام :

والمقرونُ بالإسلام كقوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ١١٢) وكقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَنقَبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (لقمان: ٢٢) .

وبالتقوى :

والمقرونُ بالتقوى كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٨) وقد يذكر مفردًا كقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا أَحْسَنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (يونس: ٢٦) ، وقد ثبت في صحيح مسلم^(١) عن النبي ﷺ تفسيرُ الزيادة بالنظر إلى وجه الله عز وجل في الجنة ، وهذا مناسبٌ لجعله جزاءً لأهل الإحسان ؛ لأن الإحسان هو أن يعبد المؤمن ربّه في الدنيا على وجه

(١) صحيح مسلم (١٨١) .

الحضور والمراقبة ، كأنه يراه بقلبه وينظر إليه في حال عبادته ، فكان جزاء ذلك : النَّظَرَ إلى وجه الله عياناً في الآخرة . وعكس هذا ما أخبر الله تعالى به عن جزاء الكفار في الآخرة : ﴿ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ (المطففين: ١٥) . وجعل ذلك جزاءً لحالهم في الدنيا ، وهو تراكم الرآن على قلوبهم ، حتى حُجِبَتْ عن معرفته ومراقبته في الدنيا ، فكان جزاؤهم على ذلك أن حُجِبُوا عن رؤيته في الآخرة .

تفسير النبي ﷺ للإحسان :

فقوله ﷺ في تفسير الإحسان : (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ...) إلخ مشيراً إلى أن العبد يعبد الله تعالى على هذه الصفة ، وهو استحضارُ قربهِ ، وأنه بين يديه كأنه يراه ، وذلك يُوجب الخشية والخوف والهيبة والتعظيم ، كما جاء في رواية أبي هريرة رضي الله عنه : (أَنْ تَخْشَى اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ) . ويوجب أيضاً : النَّصْحَ في العبادة ، وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها وإكمالها .

كيف وصى النبي ﷺ بالإحسان؟ :

وصيته لأبي ذر :

وقد وصى النبي ﷺ جماعةً من أصحابه بهذه الوصية كما روى إبراهيم الهجري ، عن أبي الأحوص ، عن أبي ذر ، رضي الله عنه قال : (أوصاني خليلي ﷺ أَنْ أَخْشَى اللَّهَ كَأَنِّي أَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ أَكُنْ أَرَاهُ ، فَإِنَّهُ يَرَانِي) ^(١) .

ولابن عمر :

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْضَ جَسَدِي فَقَالَ : اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ) خرجه النسائي ^(٢) .

(١) الأربعين على مذهب المتحققين من الصوفية لأبي نعيم (١٢) .

(٢) سنن النسائي الكبرى (١١٨٠٣) .

ولزيد بن أرقم :

ويروى من حديث زيد بن أرقم مرفوعاً وموقوفاً : كن كأنك ترى الله ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك .

ولأنس :

وخرج الطبراني^(١) من حديث أنس رضي الله عنه : أن رجلاً قال : يا رسول الله ! حدثني بحديث واجعله موجزاً ؟ فقال : (صل صلاة مودع ؛ فإنك إن كنت لا تراه ، فإنه يراك).

ولحارثة :

وفي حديث حارثة المشهور وقد روي من وجوه مرسله ، وروي متصلًا ، والمرسل أصبح أن النبي ﷺ قال له : (كيف أصبحت يا حارثة؟) قال : أصبحت مؤمنًا حقًا ، قال : (انظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة) ، قال : يا رسول الله ، عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأنني أنظر إلى عرش ربي بارزًا ! وكأنني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة كيف يتزاورون فيها ! وكأنني أنظر إلى أهل النار كيف يتعاونون فيها . قال : (أبصرت فالزم عبد نور الله الإيمان في قلبه)^(٢).

ولأبي أمامة :

وروى من حديث أبي أمامة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ وصى رجلاً فقال له: (استحي من الله استحياءك من رجلين من صالحى عشيرتك لا يفارقانك)^(٣). ويروى من وجه آخر مرسلًا .

(١) معجم الطبراني الأوسط (٤٤٢٧) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٢) مسند البزار (٦٩٤٨) .

(٣) سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (١٥٠٠) .

ولمعاذ :

ويروى عن معاذ أن النبي ﷺ وصاه لما بعثه إلى اليمن فقال : (استحي من الله كما تستحي رجلاً ذا هيبة من أهلك) ^(١). وسئل النبي ﷺ عن كشف العورة خالياً فقال : (الله أحق أن يستحيا منه) ^(٢).

من وصايا السلف في الإحسان وآثارهم فيه

ووصى أبو الدرداء رضي الله عنه رجلاً فقال له : اعبد الله كأنك تراه . وخطب عروة بن الزبير إلى ابن عمر ابنته وهما في الطواف ، فلم يجبه ، ثم لقيه بعد ذلك فاعتذر إليه وقال : كنا في الطواف نتخايلُ الله بين أعيننا . أخرجهُ أبو نعيم وغيره .

تفسير الجملة الثانية في الوصية بالإحسان :

وقوله ﷺ : (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . قيل : إنه تعليلٌ للأول ، فإن العبد إذا أُمر بمراقبة الله في العبادة ، واستحضار قُربه من عبده حتى كأن العبد يراه فإنه قد يشق ذلك عليه ، فيستعين على ذلك بإيمانه بأن الله عز وجل يراه ويطلع على سره وعلايته ، وباطنه وظاهره ، ولا يخفى عليه شيءٌ من أمره . فإذا تحقق هذا المقام ، سهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني ، وهو دوام التحديق بالبصيرة إلى قُرب الله من عبده ، ومعيته ، حتى كأنه يراه . وقيل : بل هو إشارة إلى أن من شقَّ عليه أن يعبد الله كأنه يراه ، فليعبد الله على أن الله يراه ويطلع عليه ، فليستحي من نظره إليه كما قال بعضُ العارفين : اتق الله أن يكون أهونَ الناظرين إليك . وقال بعضهم : خَفِ الله على قدر قُدرته عليك ، واستحي من الله على قدر قُربه منك .

(١) ورد بلفظ : أوصيك أن تستحي من الله عز وجل كما تستحي رجلاً من صالحِي قومك . سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٧٤١) .

(٢) سنن الترمذي (٢٧٦٩) وقال : حديث حسن . قال الألباني : حسن .

مقاما الإخلاص والمشاهدة :

وقال بعض العارفات من السلف : من عملَ الله على المشاهدة فهو عارفٌ ، ومن عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص . فأشارت إلى المقامين اللذين تقدم ذكرهما : أحدهما : مقام الإخلاص ، وهو أن يعمل العبد على استحضر مشاهدة الله إياه ، وإطلاعه عليه ، وقربه منه ، فإذا استحضر العبد هذا في عمله ، وعمل عليه ، فهو مخلصٌ لله ؛ لأن استحضره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله وإرادته بالعمل . والثاني : مقام المشاهدة وهو أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته لله تعالى بقلبه ، وهو أن يتنورَ القلبُ بالإيمان ، وتنفذَ البصيرةُ في العرفان ، حتى يصير الغيبُ كالعيان . وهذا هو حقيقة مقام الإحسان المشار إليه في حديث جبريل عليه السلام ، ويتفاوت أهل هذه المقامات فيه بحسب قوة نفوذ البصائر . وقد فسر طائفة من العلماء المثل الأعلى المذكور في قوله عز وجل : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الروم: ٢٧) ، بهذا المعنى . ومثله

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ (النور: ٣٥) ، والمراد : مثلُ نوره في قلبِ المؤمن كذا قاله أبي بن كعب وغيره من السلف .

الإحسان أفضل الإيمان :

وقد سبق حديث : (أفضل الإيمان : أن تعلم أن الله معك حيث كنت) وحديث : ما تزكية المرء نفسه ؟ قال : (أن يعلم أن الله معه حيث كان). وخرج الطبراني من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : (ثلاثة في ظل الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله : رجلٌ حيث توجه عِلِمَ أن الله معه ...) ، وذكر الحديث .

أدلة قرب الله من العبد ومعيته له وشهوده عليه :

وقد دل القرآن على هذا المعنى في مواضع متعددة ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة: ١٨٦)

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ (الحديد: ٤) وقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (المجادلة: ٧) وقوله : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (يونس: ٦١) ، وقوله : ﴿ وَخُنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق: ١٦) وقوله : ﴿ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ (النساء: ١٠٨).

دعوة السنة إلى استحضار قرب الله عزوجل :

وقد وردت الأحاديث الصحيحة بالندب إلى استحضار هذا القرب في حال العبادات كقوله ﷺ : (إن أحدكم إذا قام يصلي ، فإنما يناجي ربه ، أو ربه بينه وبين القبلة) ^(١) وقوله : (إن الله قبل وجهه إذا صلى) ^(٢) وقوله : (إن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت) ^(٣). وقوله للذين رفعوا أصواتهم بالذكر : (إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا) ^(٤) وفي رواية : (وهو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) ^(٥) وفي رواية : (هو أقرب إلى أحدكم من حبل الوريد) ^(٦). وقوله : (يقول الله عزوجل : أنا مع عبدي إذا ذكرني ، وتحركت بي شفاته) ^(٧). وقوله : (يقول الله عزوجل : أنا مع ظن عبدي

(١) المستدرک علی الصحيحین (٨٦١) .

(٢) سنن ابن ماجه (٦١٧) قال الألباني : صحيح .

(٣) المستدرک علی الصحيحین (٨٦٢) .

(٤) صحيح البخاري (٦٠٢١) (٦٢٣٦) (٦٩٥٢) ، صحيح مسلم (٢٧٠٤) .

(٥) مسند الإمام أحمد (١٩٦٤١) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٦) أمالي ابن سمعون الواعظ (٢٧١) .

(٧) مسند الإمام أحمد (١٠٩٨١) قال شعيب الأرناؤوط : صحيح وهذا إسناده حسن .

بي ، وأنا معه حيث ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم ، وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ، وإن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً^(١) .

معنى قرب الله عزوجل :

ومن فهم من شيء من هذه النصوص تشبيهاً أو حلولاً أو اتحاداً فإنما أُتيَ من جهله وسوء فهمه عن الله عزوجل وعن رسوله ، والله ورسوله بريئان من ذلك كله - فسبحان من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

تفسير بكر المزني :

قال بكر المزني : من مثلك يا ابن آدم : خلّي بينك وبين المحراب والماء؟! كلما شئت دخلت على الله عزوجل؟! وليس بينك وبينه ترجمان .

متى يستأنس العبد بالله :

ومن وصل إلى استحضار هذا في حال ذكره الله وعبادته استأنس بالله واستوحش من خلقه ضرورةً .

من الآثار في ذلك :

قال ثور بن يزيد : قرأت في بعض الكتب : أن عيسى عليه السلام قال : يا معشر الحواريين ، كلموا الله كثيراً ، وكلموا الناس قليلاً ، قالوا : كيف نكلم الله كثيراً؟ قال : اخلوا بمناجاته ! اخلوا بدُعائه . خرّجه أبو نعيم . وخرّج أيضاً بإسناده عن رياح ، قال : كان عندنا رجلٌ يصلي كل يومٍ وليلةٍ ألف ركعة حتى أقعد من رجله فكان يصلي جالساً كل ليلة ألف ركعة ، فإذا صلى العصر ، احتبى واستقبل القبلة ويقول : عجبتُ للخلقة كيف أنستُ بسواك؟ بل عجبتُ

(١) صحيح البخاري (٦٩٧٠) ، صحيح مسلم (٢٦٧٥) .

للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك ؟ . وقال أبو أسامة : دخلت على محمد بن النضر الحارثي فرأيت أنه ينقبض فقلت : كأنك تكره أن تُؤتى ؟ قال : أجل ! فقلت : أو ما تستوحش ؟ قال : كيف أستوحش وهو يقول أنا جليس من ذكرني . وقيل لمالك بن مغول - وهو جالس في بيته وحده : ألا تستوحش ؟ قال : أو يستوحش مع الله أحد ؟ وكان حبيب : أبو محمد يخلو في بيته ، ويقول : من لم تَقَرَّ عينه بك فلا قرَّت عينه ، ومن لم يَأْسُ بك فلا أُنْسَ . وقال غزوان : إني أصبت راحة قلبي في مُجالسة من لديه حاجتي . وقال مسلم بن يسار : ما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة الله عز وجل . وقال مسلم بن عابد : لولا الجماعة ما خرجت من بابي أبداً حتى أموت . وقال : ما يجد المطيعون لله لذة في الدنيا أحلى من الخلوة بمناجاة سيدهم ولا أحسب لهم في الآخرة من عظيم الثواب أكبر في صدورهم وألذ في قلوبهم من النظر إليه . ثم غشي عليه . وعن إبراهيم بن أدهم ، قال : أعلى الدرجات أن تنقطع إلى ربك ، وتستأنس إليه بقلبك وعقلك وجميع جوارحك ، حتى لا ترجو إلا ربك ، ولا تخاف إلا ذنبك ، وترسخ محبته في قلبك ، حتى لا تؤثر عليها شيئاً ، فإذا كنت كذلك لم تبال في بر كنت أو في بحر أو في سهل أو في جبل ، وكان شوقك إلى لقاء الحبيب شوق الظمان إلى الماء البارد ، وشوق الجائع إلى الطعام الطيب ، ويكون ذكر الله عندك أحلى من العسل ، وأحلى من الماء العذب الصافي عند العطشان في اليوم الصائف . وقال الفضيل : طوبى لمن استوحش من الناس وكان الله جليسه . وقال أبو سليمان : لا أنسني الله إلا به أبداً . وقال معروف لرجل : توكل على الله حتى يكون جليسك وأنيسك وموضع شكواك . وقال ذو النون : من علامات المحبين لله أن لا يأنسوا بسواه ولا يستوحشوا معه . ثم قال : إذا سكن القلب حب الله تعالى أنس بالله ؛ لأن الله أجل في صدور العارفين أن يحبوا سواه .

تعقيب :

وكلامُ القوم في هذا الباب يطول ذكره جداً ، وفيما ذكرنا كفايةً إن شاء الله تعالى .

بيان أن علوم الفقه والأخلاق والعقيدة والتصوف لا تخرج عن هذا الحديث :

فمن تأمل ما أشرنا إليه مما دلَّ عليه هذا الحديث العظيم علم أن جميع العلوم والمعارف ترجعُ إلى هذا الحديث ، وتدخل تحته ، وأن جميع العلماء من فرق هذه الأمة لا تخرج علومهم التي يتكلمون فيها عن هذا الحديث وما دلَّ عليه مجملًا ومفصلاً ، فإنَّ الفقهاء إنما يتكلمون في العبادات التي هي من جملة خصال الإسلام ويضيفون إلى ذلك : الكلام في أحكام الأموال والأبضاع والدُّماء ، وكل ذلك من علم الإسلام كما سبق التنبيه عليه . ويبقى كثيرٌ من علم الإسلام من الآداب والأخلاق وغير ذلك لا يتكلم عليه إلا القليل منهم ولا يتكلمون على معنى الشهادتين وهما أصل الإسلام كله . والذين يتكلمون في أصول الديانات يتكلمون على الشهادتين وعلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر . والذين يتكلمون على علم المعارف والمعاملات يتكلمون على مقام الإحسان وعلى الأعمال الباطنة التي تدخل في الإيمان أيضاً ، كالخشية والمحبة والتوكل والرضا والصبر ونحو ذلك . فانحصرت العلوم الشرعية التي يتكلم عليها فرق المسلمين في هذا الحديث ورجعت كلها إليه . ففي هذا الحديث وحده كفايةٌ والله الحمد والمنة .

الساعة وأمارتها واستئثار الله بعلمها :

وبقي الكلام على ذكر الساعة من الحديث ، فقول جبريل عليه السلام : أخبرني عن الساعة ، فقال النبي ﷺ : (ما المسئول عنها بأعلم من السَّائل) يعني أن علم الخلق كلهم في وقت الساعة سواء ، وهذه إشارةٌ إلى أن الله تعالى

استأثر بعلمها ، ولهذا جاء أن العالم إذا سئل عن شيء لا يعلمه أن يقول :
لا أعلمه ، وأن ذا لا ينقصه شيئاً بل هو من ورعه ودينه لأن فوق كل ذي علم
عليم .

أدلة استئثار الله بعلم الساعة :

١- من القرآن :

وفي حديث^(١) أبي هريرة رضي الله عنه : قال النبي ﷺ : (في خمس
لا يعلمهن إلا الله تعالى ثم تلا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ
وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ
بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان: ٣٤) . وقال الله عز وجل :
﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَّتِهَا
إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ (الأعراف: ١٨٧).

٢- ومن السنة :

وفي صحيح البخاري^(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال :
(مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله) ثم قرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ
عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ . وخرجه الإمام أحمد^(٣) ولفظه : أن النبي ﷺ قال : (أوتيت
مفاتيح كل شيء إلا الخمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ (لقمان: ٣٤) .
وخرج^(٤) أيضاً بإسناده عن ابن مسعود ، قال : أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء
غير خمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ (لقمان: ٣٤).

(١) صحيح البخاري (٥٠) .

(٢) صحيح البخاري (٤٤٢٠) (٤٥٠٠) (٦٩٤٤) .

(٣) مسند الإمام أحمد (٥٥٧٩) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط
الشيخين .

(٤) المصدر السابق (٣٦٥٩) قال شعيب الأرناؤوط : صحيح لغيره وهذا إسناد يحتمل
التحسين وحسنه ابن كثير في التفسير .

أمارات الساعة :

وقوله : (فأخبرني عن أماراتها) يعني : عن علاماتها التي تدل على اقترابها .
وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (سأحدثك عن
أشراطها) . وهي علاماتها أيضاً . وقد ذكر النبي ﷺ للساعة علامتين :

الأولى : أن تلد الأمة ربتها :

الأولى : (أن تلد الأمة ربتها) والمراد بربتها سيدها ومالكها وفي حديث
أبي هريرة رضي الله عنه : (ربها) . وهذه إشارة إلى فتح البلاد ، وكثرة جلب
الرقيق حتى تكثر السراري وتكثر أولادهن فتكون الأمة رقيقةً لسيدها وأولاده
منها بمنزلته ، فإن ولد السيدة بمنزلة السيد فيصير ولد الأمة بمنزلة ربتها
وسيدها .

استنتاجات الفقهاء من ذلك :

وذكر الخطابي أنه استدل بذلك من يقول إن أم الولد إنما تعتق على ولدها
من نصيبه من ميراث والده ، وأنها تنتقل إلى أولادها بالميراث فتعتق عليهم ،
وأنها قبل موت سيدها تُباع . قال : وفي هذا الاستدلال نظر . قلت : قد استدل
به بعضهم على عكس ذلك ، و أن أم الولد لا تُباع ، وأنها تعتق بموت سيدها
بكل حال ؛ لأنه جعل ولد الأمة ربتها ، فكأن ولدها هو الذي عتقها ، فصار
عتقها منسوباً إليه ؛ لأنه سبب عتقها ، فصار كأنه مولاه . وهذا كما روي عن
النبي ﷺ أنه قال في أم ولده مارية لما ولدت إبراهيم عليه السلام : (أعتقها
ولدها) ^(١) . وقد استدلل بهذا الإمام أحمد ، فإنه قال في رواية محمد بن الحكم
عنه : تلد الأمة ربتها : تكثر أمهات الأولاد ، يقول : إذا ولدت ، فقد عتقت
لولدها ، وقال : فيه حجة أن أمهات الأولاد لا يُبعن . وقد فسر قوله : (تلد
الأمة ربتها) بأنه يكثر جلب الرقيق حتى تجلب البنت فتعتق ثم تجلب الأم

(١) سنن ابن ماجه (٢٥٠٧) قال الألباني : ضعيف .

فتشتريها البنت وتستخدمها وهي جاهلة بأنها أمها . وقد وقع هذا في الإسلام .
وقيل : معناه أن الإمام يلدن الملوك . وقال وكيع : معناه تلد العجم العرب ،
والعرب ملوك العجم وأرباب لهم .

الأمانة الثانية :

والعلامة الثانية : (أن ترى الحفاة العراة العالة) والمراد بالعالاة : الفقراء كقوله
تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَالِيًا فَأَغْنِي ﴾ (الضحى: ٨) وقوله : (رعاء الشاء يتطاولون
في البنيان) هكذا في حديث عمر رضي الله عنه . والمراد أن أسافل الناس
يصيرون رؤساءهم وتكثر أموالهم حتى يتباهون بطول البنيان ، وزخرفته ،
وإتقانه .

أمارات أخرى :

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه ذكر ثلاث علامات منها : (أن تكون
الحفاة العراة رؤوس الناس ومنها : أن يتطاول رعاة البهم في البنيان) . وروى
هذا الحديث عبد الله بن عطاء عن عبد الله بن بريدة فقال فيه : (وأن ترى الصم
البكم العمي الحفاة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ملوك الناس) قال : فقام
رجل ، فانطلق ، فقلنا : يا رسول الله ! من هؤلاء الذين نعت ؟ قال : (هم
العريب) . وكذا روى هذا الحديث بهذه اللفظة الأخيرة علي بن زيد ، عن يحيى
ابن يعمر ، عن ابن عمر . وأما الألفاظ الأول فهي في الصحيح من حديث
أبي هريرة بمعناها . وقوله : (الصم البكم العمي) إشارة إلى جهلهم ، وعدم
علمهم وفهمهم . وفي هذا المعنى أحاديث متعددة . . فخرج الإمام أحمد^(١)
والترمذي^(٢) من حديث حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لا تقوم
الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع) . وفي صحيح ابن حبان^(٣)

(١) مسند الإمام أحمد (٢٣٣٥١) قال شعيب الأرناؤوط : حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف .

(٢) سنن الترمذي (٢٢٠٩) وقال : حسن غريب . قال الألباني : صحيح .

(٣) صحيح ابن حبان (٦٧٢١) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح .

عن أنس عن النبي ﷺ قال : (لا تنقضي الدنيا حتى تكون عند لكع بن لكع) .
 وخرج الطبراني^(١) من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى يغلب على الدنيا لكع بن لكع) . وخرج الإمام أحمد^(٢) والطبراني^(٣) من حديث أنس عن النبي ﷺ قال : (بين يدي الساعة سنون خداعة يَتَّهَمُ فيها الأمين ، ويؤْتَمَنُ فيها المتهم ، وينطق فيها الرويضة) قالوا : وما الرويضة ؟ قال : (السفينة ينطق في أمر العامة) . وفي رواية : (الفاسق يتكلم في أمر العامة) . وفي رواية الإمام أحمد^(٤) : (إن بين يدي الدجال سنون خداعة يصدق فيها الكاذب ، ويكذب فيها الصادق ، ويخون فيها الأمين ، ويؤتمن فيها الخائن) وذكر باقيه .

مضمون ما ذكر :

ومضمون ما ذكر من أشراف الساعة في هذا الحديث يرجع إلى أن الأمور تَوَسَّدُ إلى غير أهلها ، كما قال النبي ﷺ لمن سأله عن الساعة : (إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة)^(٥) .

وأدلة ذلك :

فإنه إذا صار الحفافة العراء رعاء الشاء ، وهم أهل الجهل والجفاء رؤوس الناس وأصحاب الثروة والأموال حتى يتناولوا في البنيان فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا ، فإنه إذا رَأَسَ الناس من كان فقيراً عائلاً فصار ملكاً على الناس سواء كان ملكه عاماً أو خاصاً في بعض الأشياء ، فإنه لا يكاد يعطي الناس حقوقهم بل يستأثر عليهم بما استولى عليهم من المال ، فقد قال بعض السلف :

(١) المعجم الأوسط للطبراني (٣٠٧٦) .

(٢) مسند الإمام أحمد (٨٤٤٠) قال شعيب الأرناؤوط : إسناده حسن ، (١٣٣٢٢) قال شعيب الأرناؤوط : حديث حسن وهذا إسناد ضعيف .

(٣) المعجم الأوسط للطبراني (٣٢٥٨) .

(٤) مسند الإمام أحمد (٧٨٩٩) قال شعيب الأرناؤوط : حسن وهذا إسناد ضعيف .

(٥) صحيح البخاري (٥٩) .

لأنَّ تَمدَّ يَدِكَ إِلَى فَمِ التَّيْنِ فَيَقْضِمَهَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَمُدَّهَا إِلَى يَدِ غَنِيِّ قَدْ عَالَجَ الْفَقْرَ . وَإِذَا كَانَ مَعَ هَذَا جَاهِلًا جَافِيًا فَسَدَ بِذَلِكَ الدِّينَ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ لَهُ هِمَّةٌ فِي إِصْلَاحِ دِينِ النَّاسِ وَلَا تَعْلِيمِهِمْ ، بَلْ هِمَّتُهُ فِي جَبَايَةِ الْمَالِ وَاكْتِنَازِهِ وَلَا يُبَالِي بِمَا فَسَدَ مِنْ دِينِ النَّاسِ ، وَلَا بِمَنْ ضَاعَ مِنْ أَهْلِ حَاجَتِهِمْ .

وفي حديثٍ آخر :

(لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَسُودَ كُلَّ قَبِيلَةٍ مَنَاقِقُوهَا) ^(١) . وَإِذَا صَارَ مَلُوكُ النَّاسِ وَرُؤُوسُهُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ انْعَكَسَتْ سَائِرُ الْأَحْوَالِ فَصُدِّقَ الْكَاذِبُ ، وَكُذِّبَ الصَّادِقُ ، وَاتَّيَمَّنَ الْخَائِنُ ، وَخُوِّنَ الْأَمِينُ ، وَتَكَلَّمَ الْجَاهِلُ ، وَسَكَتَ الْعَالِمُ ، أَوْ عُدِمَ بِالْكَلِيَّةِ . كَمَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : (إِنْ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ ، وَيُظْهَرَ الْجَهْلُ) ^(٢) وَأَخْبَرَ : (أَنَّهُ يَقْبُضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالَمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) ^(٣) . وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُصِيرَ الْعِلْمُ جَهْلًا وَالْجَهْلُ عِلْمًا . وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ انْقِلَابِ الْحَقَائِقِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ وَانْعِكَاسِ الْأُمُورِ . وَفِي صَحِيحِ الْحَاكِمِ ^(٤) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو مَرْفُوعًا : (إِنْ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُوْضَعَ الْأَخْيَارُ ، وَيُرْفَعَ الْأَشْرَارُ) .

التطاول في البنيان وعلام يدل ؟ :

وفي قوله : (يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبَنِيَانِ) دَلِيلٌ عَلَى ذَمِّ التَّبَاهِي وَالتَّفَاخُرِ ، خُصُوصًا بِالتَّطَاوُلِ فِي الْبَنِيَانِ ، وَلَمْ يَكُنْ إِطَالَةُ الْبِنَاءِ مَعْرُوفًا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بَلْ كَانَ بَنِيَانُهُمْ قَصِيرًا بِقَدْرِ الْحَاجَةِ . وَرَوَى أَبُو الزِّنَادِ عَنْ

(١) قَالَ الْأَلْبَانِيُّ فِي سِلْسَلَةِ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ (١٧١٩) : ضَعِيفٌ جَدًّا .

(٢) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (٤٩٣٣) (٦٤٢٣) (٨١٨٠) ، صَحِيحُ مُسْلِمٍ (٢٧١٦) .

(٣) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (١٠٠) ، صَحِيحُ مُسْلِمٍ (٢٦٧٣) .

(٤) الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ (٨٦٦٠) (٨٦٦١) وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ إِسْنَادَيْنِ

جَمِيعًا وَلَمْ يَخْرُجْ .

الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تقوم الساعة ، حتّى يتناول الناس في البنيان) خرّجه البخاري (١).

النهي عن التناول في البنيان وذمه :

وخرّج أبو داود (٢) من حديث أنس : أن النبي ﷺ خرج فرأى قُبَّةً مشرفة عالية فقال : (ما هذه ؟) قالوا : هذه لفلان : رجل من الأنصار فجاء صاحبها فسلم على رسول الله ﷺ فأعرضَ عنه ، فعل ذلك مراراً ، فهدمها الرجل . وخرّجه الطبراني (٣) من وجه آخر عن أنس أيضاً وعنده : فقال النبي ﷺ : (كلُّ بناءٍ - وأشار بيده هكذا على رأسه - أكثر من هذا فهو وبالٌ) . وقال حريث ابن السائب ، عن الحسن : كنتُ أدخلُ بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان رضي الله عنه ، فأتناولُ سقفها بيدي . وروي عن عمر رضي الله عنه أنه كتب : لا تُطيلوا بناءكم ، فإنّه شرٌّ أيامكم . وقال يزيد بن أبي زياد : قال حذيفة لسلمان : ألا نبني لك مسكنًا يا أبا عبد الله؟ قال : لِمَ ؟ لتجعلني ملكًا ؟ قال : لا ! ولكن نبني لك بيتًا من قصب ونسقفه بالبوارى إذا قمت كاد أن يصيب رأسك وإذا نمت كاد أن يمس طرفيك قال : كأنك كنت في نفسي . وعن عمار ابن أبي عمار قال : إذا رفع الرجل بناءه فوق سبع أذرع نوذي : يا أفسق الفاسقين إلى أين؟ خرّجه كلّ ابن أبي الدنيا . وقال يعقوب بن شيبة في مسنده : بلغني عن ابن عائشة ، حدثنا ابن أبي شميطة قال : نزل المسلمون حول المسجد يعني بالبصرة في أخبية الشعَر ففشا فيهم السرَق ، فكتبوا إلى عمر ، فأذن لهم في البراع ، فبنوا بالقصب ففشا فيهم الحريق ، فكتبوا إلى عمر رضي الله عنه ، فأذن لهم في المدر ونهى أن يرفع الرجل سَمَكه أكثر من سبعة أذرع وقال : إذا بنيتم منه بيوتكم فابنوا منه المسجد .

(١) صحيح البخاري (٦٧٠٤) .

(٢) سنن أبي داود (٥٢٣٧) قال الألباني : ضعيف .

(٣) المعجم الأوسط للطبراني (٣٠٨١) .

وفي المساجد :

قال ابن أبي عائشة : وكان عتبة بن غزوان بنى مسجد البصرة بالقصب ، قال (وكان يقال) : من صلى فيه وهو من قصب أفضل ممن صلى فيه وهو من لبن ، ومن صلى فيه وهو من لبن أفضل ممن صلى فيه وهو من آجر . وخرج ابن ماجه^(١) من حديث أنس عن النبي ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد). ومن حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : (أراكم ستشرّفون مساجدكم بعدي كما شرّفت اليهود كنائسها وكما شرّفت النصارى بيعة^(٢)). وروى ابن أبي الدنيا بإسناده^(٣) عن إسماعيل بن مسلم ، عن الحسن رضي الله عنه قال : لما بنى رسول الله ﷺ مسجده قال : (ابنوه عريشاً كعريش موسى عليه السلام). قيل للحسن : وما عريش موسى؟ قال : إذا رفع يده بلغ العريش ، يعني : السقف^(٤).

الأصل الثالث : معرفة نبيكم عليه الصلاة والسلام .

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم . وهاشم من قريش ، وقريش من العرب ، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام . وله من العمر ثلاث وستون سنة ، منها أربعون قبل النبوة ، وثلاث وعشرون نبياً رسولاً . نبى بـ ﴿ أَقْرَأْ ﴾ وأرسل بـ ﴿ أَلْمُدَّثِرُ ﴾ وبلده مكة ، بعثه الله بالندارة عن الشرك ، ويدعو إلى التوحيد .

والدليل قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّأُ أَلْمُدَّثِرُ ﴾ ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾

(المدثر : ١-٧)

(١) سنن ابن ماجه (٦٠٤) قال الألباني : صحيح .

(٢) المصدر السابق (٤٧٤) قال الألباني : ضعيف .

(٣) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٦١٦) : مرسل .

(٤) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ١٤٦-٩٧/٣ .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ أي : المتدثر ، أدغمت التاء في الدال ، أي : المتلفف في ثيابه ، من الدثار ، وهو كل ما كان من الثياب فوق الشعر ، والشعار : الثوب الذي يلي الجسد . قيل : هي أول سورة نزلت ^(١) ، والصحيح : أن أول ما نزل : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ ﴾ إلى قوله ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ٥) ^(٢) ثم فتر الوحي نحو سنتين ، فحزن رسول الله ﷺ ، حتى جعل يأتي شواحق الجبال ، فيريد أن يتردى منها ، فأتاه جبريل عليه السلام ، وقال : إنك نبي الله ، فرجع إلى خديجة ، فقال : دثروني وصبوا علي ماءً بارداً ، فنزل : ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ، وقيل : سمع من قريش ما كرهه ، فاغتم ، فتغطى بثوبه متفكراً ، كما يفعل المغتم ، فأمر ألا يدع إنذارهم وإن آذوه ، فقال : ﴿ قُمْ ﴾ أي : من مضجعك ، أو قيام عزم وتصميم ، ﴿ فَأَنْذِرْ ﴾ أي : فحذر قومك من عذاب الله إن لم يؤمنوا ، أو فافعل الإنذار من غير تخصيص ، كما ينبئ عنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ: ٢٨) . ﴿ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴾ أي : خص ربك بالتكبير ، وهو التعظيم قولاً واعتقاداً ، فلا يكبر في عينك إلا الله ، وقل عندما يعروك من غيره : الله أكبر . روي أنه لما نزل ، قال رسول الله ﷺ : (الله أكبر) فكبرت خديجة وفرحت ، وأيقنت أنه الوحي . وقد يحمل على تكبير الصلاة ، والفاء بمعنى الشرط ، كأنه قيل : أي شيء حدث فلا تدع تكبيره . ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ مما ليس بطاهر ، فإنه واجب في الصلاة ، فلا تصح إلا بها ، ووصف كمال في غيرها ، وذلك بصيانتها عن النجاسات ، وغسلها بعد إصابتها ، أو قصرها مخالفة للعرب في تطويلهم الثياب ، وجرحهم الذبول كبراً ، فإن طولها يؤدي إلى جرحها على

(١) صحيح البخاري (٤) (٤٦٣٨) (٤٦٧١) ، صحيح مسلم (١٦١) .

(٢) صحيح البخاري (٣) (٤٦٧٠) ، صحيح مسلم (١٦٠) .

القاذورات ، وهو أول ما أمر به ﷺ من ترك العادات المذمومة ، وقيل : المراد تطهير النفس مما يستقبح من الأفعال ، ويستهجى من الأحوال ، يُقال : فلان طاهر الذيل والرداء ، إذا وصفوه بالنقاء من المعاييب ومدانس الأخلاق ، ولأنَّ مَنْ طهر باطنه يطهر ظاهره غالباً . قال ابن العربي في أحكامه : والذي يقول : إنها الثياب المجازية أكثر . اهـ . ومن قال : إنها الحسية استدل بها على وجوب غسل النجاسة للصلاة ، وبه قال الشافعي ، ومالك ، في إحدى الروايات عنه .

﴿ وَالرُّجْزَ فَأَهْجُرْ ﴾ أي : دم على هجرانها ، قاله الزهري وغيره . وقال ابن عباس : أي : اترك المآثم التي توجب الرجز ، وهو العذاب ، وفيه لغتان : كسر الراء ، وضمها ، وقرئ بهما معاً . قال الكسائي : الرُّجْز - بالضم : الوثن ، وبالكسر : العذاب . ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ أي : ولا تعطِ مُتَكَثِّراً ، أي : رائيماً لما تعطيه كثيراً ، أو طالباً للكثير على ما أعطيت ، فإنك مأمور بأجل الأخلاق ، وأشرف الآداب ، وهو من المنِّ بمعنى الإنعام ، يُقال : مَنْ عليه إذا أعطاه وأنعم عليه ، و ﴿ تَسْتَكْثِرُ ﴾ : حال ، أي : لا تُعْطِ حال كونك تُعْطِ ما أعطيت كثيراً ، أو طالباً أكثر مما أعطى . وقرأ الحسن بالجزم جواب النهي . ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أي : لوجه الله استعمل الصبر على أوامره ونواهيه ، وعلى تحمُّل مشاق أعباء التبليغ وأذى المشركين .

الإشارة : يا أيها المتدثر بالعلوم والأسرار والمعارف ؛ قُمْ فَأَنْذِرِ النَّاسَ ، والخطاب للداعي الأكبر ﷺ ، ويتوجه لخليفته في كل زمان ، وهو مَنْ وَجَّهَهُ الله لتذكير العباد ليحيي به الدين في أول كل عصر ، كما في الأثر^(١) . قال الورتجي : يا أيها المدثر ، أي : يا أيها الغريق في قلزوم القِدَم ، قُمْ لدعوى

(١) سنن أبي داود (٤٢٩١) وفيه : حدثنا سليمان بن داود المهري أخبرنا ابن وهب أخبرني سعيد بن أبي أيوب عن شراحيل بن يزيد المعافري عن أبي علقمة عن أبي هريرة فيما أعلم عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » قال أبو داود : رواه عبد الرحمن بن شريح الإسكندراني لم يجز به شراحيل . قال الشيخ الألباني : صحيح .

محبتني ، وأنذر أحبائي عن الاشتغال بغيري ، وأظهر جواهر حقائق بحر غيبي للمقبلين إلينا . ثم قال على قوله : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ ، عن الحسين : عَظَم قدره عن احتياجه إليك في الدعوة إليه ، فإن إجابة دعوتك ممن سبقت له الهداية مني . اهـ . قال القشيري : كَبَّر ربك عن احتياجه إلى تكبير أحد ، فإن كبرياءه ذاتيُّ له ، قائم بنفسه ، لا بغيره من المكبرين . اهـ . والمتبادر أنه أَمَرَ الداعي بتعظيم الله وإجلاله دون غيره من سائر المنذرين ، فلا تمنعه جلالة أحد من العظماء والمتكبرين عن التصدي لإنذاره وتذكيره . وقوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أي : نَزَه ثياب إيمانك وعرفانك عن لوث الطمع في الخلق ، وخصوصاً عند الدعوة ، فلا تسأل عليه أجراً ، ولا تؤمل في جانبه عوضاً ، فتُحرم بركة إنذارك ، ويقل الانتفاع به . وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : رأيت النبي ﷺ في المنام ، فقال : يا علي ، طَهِّر ثيابك من الدنس ، تَحْظَ بمدد الله في كل نَفَس ، فقلت : وما ثيابي يا رسول الله ؟ فقال : إن الله كساك حُلَّة المعرفة ، ثم حُلَّة المحبة ، ثم حُلَّة التوحيد ، ثم حُلَّة الإيمان ، ثم حُلَّة الإسلام ، فمن عرف الله صَغُر لديه كل شيء ، ومن أحبَّ الله هان عليه كل شيء ، ومن وحَّد الله لم يشرك به شيئاً ، ومن آمن بالله أَمِنَ من كل شيء ، ومن أسلم لله قلماً يعصيه ، وإن عصاه اعتذر إليه ، وإذا اعتذر إليه قَبِلَ عُذره . قال : ففهمت حينئذ قوله تعالى : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ . اهـ . والرُّجُز : كلُّ ما يشغل عن الله ، فيُهجر اشتغالاً بالله ، ولا تمنن ببذل مُهجتك على ربك ، مستكثراً لذلك ، فإنَّ قيمة وجودك لا تُساوي عشر العشر من عظمة وجوده ، الذي يمنحك بدلاً من وجودك الذي أعطيته ، أو : ولا تمنن عليه بوجودك تطلب وجوده ، فإنَّ وجوده إنما يُنال بكرمه ، لا بشيء من العلل ، ولربك فاصبر ، أي : ولأجل الوصول إلى ربك فاصبر على مشاق السير ، أو : ولربك فاصبر على إذاية الخلق في حال الدعوة . قال الورتجبي : ولربك فاصبر في بذل وجودك في جريان تقديره ، أو مع ربك ، وفي ربك ، حين انكشف لك

أنوار أسرارهِ ، وخاصيتك في النظر إلى جلالهِ وجماله ، ولا تنزعج ، فتسقط عن درجة التمكن . وقال القاسم : ولربك فاصبر تحت القضاء والقدر . اهـ^(١) .

ومعنى ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ ينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد ﴿ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴾ عظمه بالتوحيد ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أي طهر أعمالك^(٢) من الشرك ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ الرجز : الأصنام ، وهجرها تركها والبراءة منها وأهلها ، أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد ، وبعد العشر عرج به إلى السماء ، وفرضت عليه الصلوات الخمس ، وصلى في مكة ثلاث سنين ، وبعدها أمر بالهجرة إلى المدينة .

والهجرة : الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام والهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام ، وهي باقية إلى أن تقوم الساعة : والدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ أَتَمَلِكُهُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسَعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٤٧ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٤٨ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (النساء: ٩٧-٩٩)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ ﴾ اتوفاهم ﴿ أَتَمَلِكُهُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي : ملك الموت وأعوانه ، يعنى : تقبض أرواحهم ، ﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ بترك الهجرة ومرافقة الكفرة ، ﴿ قَالُوا ﴾ أي : الملائكة في توبيخهم : ﴿ فِيمَ كُنْتُمْ ﴾ أي : في

(١) تفسير البحر المديد ١٧٢/٨-١٧٤ .

(٢) تفسير إشاري .

أي شيء كنتم من أمر دينكم : أعلى الشك أو اليقين؟ أو : في أي بلد كنتم : في دار الكفر أو الإسلام؟ ﴿ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فعجزنا عن الهجرة وإظهار الدين خوفاً من المشركين ، ﴿ قَالُوا ﴾ أي : الملائكة تكذيباً لهم وتبكيئاً : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ إلى قطر آخر ، كما فعل المهاجرين إلى الحبشة والمدينة ، لكن حبستكم أموالكم ، وعزّت عليكم أنفسكم ، ﴿ فَأُولَئِكَ مَأْوُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ لتركهم الهجرة الواجبة في ذلك الوقت ، ومساعدتهم الكفار على غزو المسلمين ، ﴿ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ أي : قبحت مصيراً جهنم التي يصيرون إليها . نزلت في ناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا ، فخرجوا يوم بدر مع المشركين فرأوا قلة المسلمين ، فقالوا : غرّ هؤلاء دينهم ، فقتلوا ، فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم ، كما يأتي ، فلا تجوز الإقامة تحت حكم الكفر مع الاستطاعة ، بل تجب الهجرة ، ولا عذر في المقام ، وإن منعه مانعٌ فلا يكون راضياً بحاله مطمئن النفس بذلك ، وإلا عمّه البلاء ، كما وقع لأهل الأندلس ، حتى صار أولادهم كفاراً والعياذ بالله ، وكذلك لا تجوز الإقامة في موضع تغلب فيه المعاصي وترك الدين . قال البيضاوي : في الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن فيه الرجل من إقامة دينه ، وعن النبي ﷺ : (من فرّ بدينه من أرضٍ ، ولو كان شبراً من الأرض ، استوجب الجنة ، وكان رفيق إبراهيم ومحمد - عليهما الصلاة والسلام)^(١) . قلت : ويدخل فيه - على طريق الخصوص - من فرّ من موضع تكثر فيه الشهوات والعوائد ، أو تكثر فيه العلائق والشواغل ، إلى موضع يقل فيه ذلك ، طلباً لصفاء قلبه ومعرفة ربه ، بل هو أولى ، ويكون رفيقاً لهما في حضرة القدس عند مليك مقتدر . والله تعالى أعلم . ثم استثنى من تحقّق

(١) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف : أخرجه الثعلبي في تفسير العنكبوت من رواية عباد بن منصور الناجي عن الحسن مرسلًا .

إسلامه وحبسه العذر ، فقال : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ أي : المماليك والصبيان ، وفيه إشعار بأنهم على صدد وجوب الهجرة ، فإنهم إذا بلغوا وقدروا على الهجرة ، فلا محيص عنها ، وأن قومهم يجب أن يهاجروا بهم متى أمكنت الهجرة . قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : كنت أنا وأبي وأمي ممن استثنى الله بهذه الآية . ثم وصفهم بقوله : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ﴾ أي : قوة على ما يتوقف عليه السفر ، من ركوب أو غيره ، ﴿ وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ أي : لا يعرفون طريقاً ، ولا يجدون دليلاً ، ﴿ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ وعبر بحرف الرجاء إيذاناً بأن ترك الهجرة أمرٌ خطير ، حتى إن المضطر من حقه أن لا يأمن ، ويترصده الفرصة ، ويُعلق بها قلبه ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ فيعفو ويغفر لمن غلبه العذر . وبالله التوفيق .

الإشارة : كل من لم يتغلغل في علم الباطن ، مات ظالمًا لنفسه ، أي : باخسًا لها لما فوتها من لذيذ الشهود ، ومعرفة الملك المعبود ، ولا يخلو باطنه من الإصرار على أمراض القلوب ، التي هي من أكبر الذنوب ، فإذا توفته الملائكة على هذه الحالة ، قالت له : فيم كنتَ حتى لم تهاجر إلى من يطهرك من العيوب ، ويوصلك إلى حضرة علام الغيوب ؟ فيقول : كنت من المستضعفين في علم اليقين ، ولم أقدر على صحبة أهل عين اليقين وحق اليقين حبسني عنهم حبُّ الأوطان ، ومرافقة النساء والولدان . فيقال له : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجر فيها إلى من يخلصك من الحجاب ، وينفي عنك الشك والارتياب ؟ فلا جرم أن مأواه سجن الأكوان ، وحرمان الشهود والعيان ، إلا من أقر بوجود ضعفه ، واضطر إلى مولاه في تخليصه من نفسه ، فعسى ربه أن يعطف عليه ، فيوصله إلى عارف من أوليائه ، حتى يلتحق بأحبابه وأصفيائه . وما ذلك على الله بعزيز^(١) .

(١) تفسير البحر المديد ٨٩/٢ ، ٩٠ .

وقوله تعالى ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾^(١)
(العنكبوت: ٥٦)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ ، فإذا لم يتييسر لكم إقامة دينكم في بلد ، فاخرجوا منها إلى أرض يتهيأ لكم فيها استقامة دينكم ، والبقاع تتفاوت في ذلك تفاوتاً كبيراً ، والناس مختلفون ، فأهل الشرائع يطلبون البقاع التي يتييسر لهم فيها استقامة ظواهرهم ، كالمدن والقرى الكبار ، التي يكثر فيها العلم وأهله . وأهل الحقائق من الصوفية يطلبون البقاع التي تسلم فيها قلوبهم من العلائق والشواغل ، أينما وجدوها عمروها ، إن تهيأ لهم الاجتماع على ربهم . وعن سهل رضي الله عنه : إذا ظهرت المعاصي والبدع في أرض ، فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين . وعن رسول الله ﷺ : (من فرّ بدينه من أرض ، إلى أرض ، وإن كان شبراً ، استوجب الجنة ، وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام)^(٢) . ﴿فَأِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ أي : فخصوني بالعبادة . وإياي : مفعول لمحذوف ، ومفعول (اعبدوني) : الياء المحذوفة ، أي : فاعبدوا إياي ، فاعبدوني . والفاء : جواب الشرط ، محذوف ، إذ المعنى : إن أرضي واسعة ، فإن لم تخلصوا العبادة لي في أرض ، فاخلصوا لي في غيرها . ثم شجّع المهاجرين بقوله : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ ، أي : واجدة مرارته وكربه لأنها إذا تيقنت بالموت سهل عليها مفارقة وطنها . ﴿ثُمَّ

(١) قال الله عز وجل : ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَمَلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ (العنكبوت: ٥٦-٥٩) .

(٢) سبق تخريجه ص ١٩٢ .

إِلَيْنَا تَرْجَعُونَ ﴿ بالموت ، فتجاوزون على ما أسلفتم . ومن علم أن هذا عاقبته ينبغي أن يجتهد في الاستعداد له ، فإن لم يتهياً في أرض فليهاجر منها . ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ لنزلهم ﴿ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ عالية ، وقرأ حمزة والكسائي : لنثوينهم لنقيمهم ، من الثوى ، وهو الإقامة ، وثوى : غير متعدد ، فإذا تعدى بزيادة الهمزة ، لم يجاوز مفعولاً واحداً . والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف : إما إجراؤه مجرى (لنزلهم) ، أو : بحذف الجار ، وإيصال الفعل ، أو : شبه الظرف المؤقت ، بالمبهم ، أي : لنقيمهم في غرف ﴿ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴾ أجبرهم هذا . وهم ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على مفارقة الأوطان وأذى المشركين ، وعلى المحن والمصائب ، ومشاق الطاعات ، وترك المحرمات ، ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ، أي : لم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله ، فكفاهم شأنهم . وبالله التوفيق .

الإشارة : كل من لم يتأت له جمع قلبه في بلده فليهاجر منها إلى غيره ، وليسمع قول سيده : ﴿ يَنعِبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ ، فإن شق عليه مفارقة الأوطان ، فليذكر مفارقتها للعالم في أقرب زمان . وكان الصديق رضي الله عنه لما هاجر إلى المدينة ، وأصابته الحمى ، يتسلى بذكر الموت ، وينشد :

كُلَّ امْرِئٍ مَّصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ وَالْمَوْتُ أَدْنَىٰ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ .
وقد أكثر الناس في الوعظ بالموت وهجومه ، نظماً ونثراً ، فمن ذلك قول الشاعر :

الموتُ كَأَسُّ ، وَكُلُّ النَّاسِ شَارِبُهُ وَالْقَبْرُ بَابٌ ، وَكُلُّ النَّاسِ دَاخِلُهُ .
وقال آخر :

اعلم بأن سِهَامَ الموتِ قَاطِعَةٌ بِكُلِّ مُدَّرَعٍ فِيهَا وَمُتَرَسٍ .

رَكُوبُكَ النَعَشَ يُنْسِيكَ الرُّكُوبُ إِلَى
تَرْجُو النَّجَاةَ ، وَلَمْ تَسْلُكْ طَرِيقَتَهَا
مَا كُنْتَ تَرْكَبُ مِنْ نَعْلِ وَمِنْ فَرَسٍ .
إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى يَابَسٍ .
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَطُولُ^(١) .

قال البغوي رحمه الله : سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين في مكة لم يهاجروا ، ناداهم الله باسم الإيمان .

والدليل على الهجرة من السنة قوله ﷺ : « لَا تَنْقُطُعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقُطُعَ التَّوْبَةُ ، وَلَا تَنْقُطُعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا »^(٢) .

شرح الحديث :

قال الملا علي القاري^(٣) :

لَا تَنْقُطُعُ) بِالتَّائِيثِ وَيَذَكِّرُ (الْهَجْرَةَ) أَي : مِنْ الْمَعْصِيَةِ إِلَى التَّوْبَةِ ، (حَتَّى تَنْقُطُعَ التَّوْبَةُ) أَي : صَحَّتْهَا بِأَنْ يُغْرَرَ صَاحِبُهَا . قَالَ ابْنُ الْمَلِكِ : أَرَادَ بِالْهَجْرَةِ هُنَا الْإِنْتِقَالَ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَمِنْ دَارِ الشُّرْكِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ ، وَمِنْ الْمَعْصِيَةِ إِلَى التَّوْبَةِ ، قُلْتُ : الْآخِرُ تَعْمِيمٌ يَشْمَلُ الْكُلَّ . وَقَالَ الطَّيْبِيُّ : لَمْ يَرِدْ الْهَجْرَةُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِأَنَّهَا انْقَطَعَتْ ، وَلَا الْهَجْرَةُ مِنَ الذُّنُوبِ كَمَا وَرَدَ :

(١) تفسير البحر المديد ٣٢٢/٥ ، ٣٢٣ .

(٢) سنن أبي داود (٢٤٧٩) قال الألباني : صحيح .

(٣) هو علي بن (سلطان) محمد ، نور الدين الملا الهروي القاري (١٠١٤ - ١٠٠٠ هـ - ١٦٠٦ م) : فقيه حنفي ، من صدور العلم في عصره . ولد في هراة وسكن مكة وتوفي بها . قيل : كان يكتب في كل عام مصحفًا وعليه طرر من القراءات والتفسير فيبعيه فيكفيه قوته من العام إلى العام . وصنف كتبًا كثيرة ، منها (تفسير القرآن) ، و(شرح مشكاة المصابيح) و(شرح الشفاء) و (شرح الحصن الحصين) في الحديث ، و(شرح الشمائل) و (تعليق على بعض آداب المريدين ، لعبد القاهر السهروردي) و(منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر) ، و(الزبدة في شرح البردة) ، و(تذكرة الموضوعات) . انظر : خير الدين الزركلي «الأعلام» (١٢/٥) .

(المُهَاجِر من هَجَرَ الذُّنُوبَ وَالْخَطَايَا) ^(١) لأنها نفس التوبة . قلت : لا مانع من ذلك لأن مَال الكمال لا تَنْقُطع التوبة حتى تَطْلُع الشمس ، ثم قال : بَلِ الْهَجْرَةُ من مكان لا يتمكن فيه من الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر وإقامة حدودِ الله ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً ﴾ (النساء: ٩٧) ، فيه أن كونه في ذلك المكان مع كون خروجه عنه من الإمكان معصية خاصة ، والحمل على العموم أولى مع أن قوله لا يلائم الغاية لقوله : (حتى تنقطع التوبة) والاستشهاد بالآية غير صحيح لأنه نَزَلَ في الهجرة من مكة إلى المدينة . قال ابن حجر : أي لم يَنْقُطع وجوبها حتى يَنْقُطع قبولها (ولا تنقطع التوبة) أي صحتها أو قبولها (حتى تَطْلُع الشمس من مغربها) ^(٢).

فلما استقر بالمدينة ، أمر ببقية شرائع الإسلام ، مثل الزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد ، والأذان ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وغير ذلك من شرائع الإسلام ، أخذ على هذا عشر سنين ، وبعدها توفي ، صلوات الله وسلامه عليه ، ودينه باق ، وهذا دينه لا خير إلا دل الأمة عليه ، ولا شر إلا حذرنا منه ، والخير الذي دلها عليه : التوحيد ، وجميع ما يحبه الله ويرضاه . والشر الذي حذر منه : الشرك وجميع ما يكره الله ويأباه ، بعثه الله إلى الناس كافة ، وافترض الله طاعته على جميع الثقلين : الجن والإنس . والدليل قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨) ^(٣)

(١) سنن ابن ماجه (٣٩٢٤) قال الألباني : صحيح .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٢٥٣/٥ ، ٢٥٤ .

(٣) تمام الآية : ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٨) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ الأحمر والأسود ، والعرب والعجم ، والإنس والجن ، خص بهذه الدعوة العامة ، وإنما بعثت الرُّسل إلى قومها خاصة ، فادع الناس أيها الرسول إلى الله تعالى ، ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يتصرف فيهما كيفما شاء ، ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لأن من ملك العالم كان هو الإله لا غير ، ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ لعموم قدرته ونفوذ أمره ، ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ ﴾ أي : ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل قبله من كُتبه ووحيه ، وإنما عدل عن التكلم إلى الغيبة ، أي : لم يقل : فآمِنوا بالله وآمنوا لإجراء هذه الصفات عليه ، الداعية إلى الإيمان به واتباعه ، ولذلك قال : ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ إلى طريق الحق والرشد ، جعل رجاء الاهتداء أثر الأمرين تنبيهاً على أن من صدقه ، ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو يعد في خطط الضلالة . قاله البيضاوي .

الإشارة : لا غنى للمريد عن متابعة الرسول ﷺ ، ولو بلغ ما بلغ ، لقوله تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ، وغاية الاهتداء غير متناهية ، لأن أدب العبودية مقروناً مع عظمة الربوبية ، فكما أن الترقى في مشاهدة الربوبية لا نهاية له ، كذلك أدب العبودية لا نهاية له ، ولا تُعرف كيفية الأدب إلا بواسطة تعليمه عليه الصلاة والسلام ، فواسطة النبي ﷺ لا تفارق العبد ، ولو عرف ما عرف ، وبلغ ما بلغ . والله تعالى أعلم^(١) .

وأكمل الله به الدين .

(١) تفسير البحر المديد ٤٠٥/٢ .

والدليل قول تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣)^(١).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيَّةُ ﴾ أي : ما ماتت حتف أنفها بلا ذكاة ، ﴿ وَالْدَّمُ ﴾ المسفوح ، أي : المهروق ، وكانت الجاهلية يصبونه في الأمعاء ، ويشوونها ، ورخص في الباقي في العروق بعد التذكية ، ﴿ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ﴾ ، وكذا شحمه وسائر أجزائه المتصلة ، بخلاف الشعر المجزو ، ﴿ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ أي : رفع الصوت عليه عند ذبحه بغير الله ، كقولهم : باسم اللات والعزى ، وكذا ما ترك عليه اسم الله عمداً ، عند مالك ﴿ وَالْمُنْخِنِقَةُ ﴾ بحبل وشبهه حتى ماتت ، ﴿ وَالْمَوْقُودَةُ ﴾ أي : المضروبة بعضاً أو بحجر أو شبهه ، من : وقذته وقذاً : ضربته ، ﴿ وَالْمُتَرَدِّيةُ ﴾ أي : الساقطة من جبل أو في بئر وشبهه فماتت ، ﴿ وَالنَّطِيحَةُ ﴾ التي نطحها أخرى فماتت ، فإن لم تمت فإن كان في العصران الأعلى فكذاك ، لا في الأسفل أو الكرش . ﴿ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ أي : أكل بعضه وأنفذ مقتله ، والسبع : كل حيوان مفترس كالذئب والأسد والنمر والثعلب والنمس والعقاب والنسر ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ أي : إلا ما أدركتم ذكاته وفيه حياة مستقرة من ذلك . قاله البيضاوي . وقال ابن جرير : قيل : إنه استثناء منقطع ، وذلك إذا أريد بالمنخنة وأخواتها : ما مات من ذلك بالخنق وما بعده ، أي : حرمت عليكم هذه الأشياء ، لكن

(١) قال الله عز وجل : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيَّةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخِنِقَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْتَصِمَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣).

ما ذَكَيْتُمْ من غيرها فهو حلال ، وهذا ضعيف ، وقيل : إنه استثناء متصل ، وذلك إن أُريد بالمنخقة وأخواتها ما أصابته تلك الأسباب وأدركت حياته . والمعنى : إلا ما أدرکتُم حياته من هذه الأشياء ، فهو حلال ، واختلف أهل هذا القول هل يُشترط أن يكون لم تنفذ مقاتله ، أم لا ؟ فالأئمة كلهم على عدم الاشتراط إلا مالکاً - رحمه الله - ، وأما مَنْ لم تُشرف على الموت من هذه الأسباب ، فذکاتُها جائزة باتفاق . اهـ . ﴿ وَحُرْمَ عَلَيْكُمْ أَيْضًا : ﴿ مَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ ﴾ ، وهي أحجار كانت منصوبة حول البيت ، يذبحون عليها ويعبدون ذلك قُرْبَةً ، وليست بالأصنام لأن الأصنام مُصَوَّرَةٌ ، والنصب غير مصورة ، وقيل : (على) بمعنى اللام ، أي : وما ذبح للنصب ، والمراد : كل ما ذبح لغير الله . أدرج فيه بعض العلماء ما ذبح على القبائل في العويط والمشهور أكله . ﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ﴾ أي : تطلبوا ما قسم لكم في الأزل من المقادير بالأزلام ، جمع زلم - بضم الزاي وفتحها - وهي الأقداح على قدر السهام ، وكانت في الجاهلية ثلاثة ، قد كُتِبَ على أحدها : افعل ، وعلى الآخر : لا تفعل ، وعلى الثالث : مهمل ، فإذا أراد الإنسان أن يعمل أمراً جعلها في خريطة ، وأدخل يده وأخرج أحدها ، فإن خرج له الذي فيه «افعل» فعل ما أراد ، وإن خرج الذي فيه «لا تفعل» ، تركه . وإن خرج المهمل أعاد الضرب ، ويقاس عليه كل ما يدخل في علم الغيب ، كالقرعة والحظ والنسبة والكهانة ، وشبهها . ﴿ ذَلِكُمْ فَسْقٌ ﴾ ، الإشارة إلى المحرمات المذكورة ، أو إلى الاستقسام بالأزلام ، وإنما كان فسقاً لأنه دخول في علم الغيب الذي انفرد الله به ، وفيه تجسس على سر الملك ، وهو حرام ، ولا يعارض ما ثبت جوازه من القرعة ، في أمور مخصوصة كتمييز الأنسبة في القسمة ، (وقد كان - عليه الصلاة والسلام - يقترح بين نسائه^(١) ، وغير ذلك مما تفيد تطييب القلوب ، دون الاطلاع على علم الغيوب . والله تعالى أعلم .

(١) صحيح البخاري (٤٩١٣) ، صحيح مسلم (٢٤٤٥) .

الإشارة : حُرمت عليكم يا معشر المرِدين طلب الحُظوظ والشهوات ، وما تموت به قلوبكم من الانهماك في الغفلات ، وتناول ما أُعطيكم لغير وجه الله ، وقبضتموه من غير يد الله ، بأن نظرتم حين قبضه إلى الوساطة ، وغفلتم عن المعطي حقيقة ، فمقتضى شريعة الخواص : إخراجُه عن الملك ، وحرمان النفس من الانتفاع به ، كما وقع لبعض الأولياء ، ولا تتناولوا من الطعام إلا ما ذكيتُموه بأن شهدتم فيه المنعم دون الوقوف مع النعمة ، ونزلتم إليه بالإذن ، دون قصد الشهوة والمتعة ، وهذا يحتاج إلى تيقظ كبير ومراقبة قوية . والله يتجاوز عن أمثالنا بحلمه وكرمه . آمين . ولما حرّم الله تعالى هذه الأشياء حصل للمشرّكين الإيأس من موافقة المسلمين لهم في دينهم ، فلذلك ذكره الحق تعالى باثر تحريمها ، فقال : ﴿ **الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ **الْيَوْمَ** ﴾ الذي أنتم فيه ، وهو يوم الجمعة ، ويوم عرفة في حجة الوداع ، ﴿ **يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ** ﴾ أن يُبطلوه ، أو يظهروا عليه بحصول المباينة لهم في أمورهم كلها ، ولظهور الإسلام فيه وكثرة المسلمين ، قيل : إنه وقف معه ﷺ في هذه الحجة : مائة ألف وأربعة عشر ألفاً ، ويحتمل أن يريد باليوم الزمان الحاضر ، وما يتصل به من الأزمنة الآتية ، ﴿ **فَلَا تَخْشَوْهُمْ** ﴾ أن يظهروا عليكم ، ﴿ **وَاخْشَوْنَ** ﴾ وحدي فأمرهم بيدي . ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ﴾ بالنصر والإظهار على الأديان كلها ، أو بالتنصيص على قواعد العقائد ، والتوقيف على أحوال الشرائع وقوانين الاجتهاد ، ﴿ **وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** ﴾ بالهداية والتوفيق ، أو بإكمال الدين ، وبالفتح والتمكين ، بهدم منار الكفر ، ومحو علل الملحدين ، ﴿ **وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾ أي : اخترته لكم من بين الأديان ، الذي لا نرتضى غيره ولا نقبل سواه .

الإشارة : إذا حصل المرید على أسرار التوحيد ، وخاض بحار التفريد ، وذاق حلاوة أسرار المعاني ، وغاب عن شهود حس الأواني ، وحصل له الرسوخُ والتمكين في ذلك ، أيسَ منه الشيطان وسائر القواطع ، فلا يخشى أحداً إلا الله ، ولا يركن إلى شيء سواه ، وأمينَ من الرجوع في الغالب ، إلا لأمر غالب ، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ (يوسف: ٢١) . ولذلك قال بعضهم : (والله ما رجع من رجع إلا من الطريق ، وأما من وصل فلا يرجع) . والوصول هو التمكين فيما ذكرنا ، فإذا حصل على كمال المعرفة ، ووقف على عرفة المعارف ، فقد كمل دينه واستقام أمره ، وظهرت أنواره ، وتحققت أسرارهِ ، وما بقي إلا الترقى في الأسرار أبداً سرمداً ، والسير في المقامات كسير الشمس في المنازل ، ينتقل فيها من مقام إلى مقام ، بحسب ما يبرز من عنصر القدرة ، فتارة يبرز معه ما يوجب الخوف ، وتارة ما يوجب الرجاء ، وتارة ما يوجب الرضا والتسليم ، وتارة ما يوجب التوكل ، وهكذا يتلون مع كل مقام ويقوم بحقه ، ولا يقف مع مقام ولا مع حال ، لأنه خليفة الله في أرضه ، وقد قال تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (الرحمن: ٢٩) ، هذا هو التلوين بعد التمكين . والله تعالى أعلم .

ثم استثنى من تلك المحرمات حالة المضطر ، فقال : ﴿ فَمَنْ أَضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قال البيضاوي : هو متصل بذكر المحرمات ، وما بينهما اعتراض مما يوجب التجنب عنها ، وهو أن تناولها فسوق ، وحرمتها من جملة الدين الكامل والنعمة التامة والإسلام المرضي . اهـ .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ فَمَنْ أَضْطُرَّ ﴾ إلى تناول شيء من هذه المحرمات ﴿ فِي مَخْصَصَةٍ ﴾ أي : مجاعة ، حال كونه ﴿ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ ﴾ أي : مائل للإثم وقاصد له ، بأن يأكلها تلذذاً أو متجاوزاً حد الرخصة ، قيل : هو

سد الرمق ، وقال ابن أبى زيد : يأكل منها ويتزود ، فإن استغنى عنها طرحها . اهـ . فإن تناولها للضرورة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ به حيث أباحها له في تلك الحالة .

الإشارة : قال بعض الحكماء : الدنيا كلها كالهيئة ، لا يحل منها للذاكر إلا قدر الضرورة أكلاً وشرباً ، وملبساً ومركباً ، حتى يتحقق له الوصول ، فما بقي لأحد حينئذ ما يقول ، وعلامة الوصول : هو الاكتفاء بالله دون الاحتياج لشيء سواه ، إن افتقر اغتنى في فقره ، وإن ذل عز في ذله ، وإن فقد وجد في فقده ، وهكذا في تقلبات الأحوال لا يتضعض ولا يتزلزل ، ولو سقطت السماء على الأرض . والله تعالى أعلم^(١) .

والدليل على موته ﷺ قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ^(٢) (الزمر: ٣٠-٣١)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ للمشرك والموحد ، ﴿ رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَبِّحُونَ ﴾ : مختلفون متخاصمون عسيرون ، وهو المشرك ، ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا ﴾ أي : خالصاً ﴿ لِرَجُلٍ ﴾ فرد ، ليس لغيره عليه سبيل . والمعنى : جعل الله مثلاً للمشرك حسبما يقوده إليه مذهبه ، من ادعاء كل من معبوديه عبوديته ، عبداً يتشارك فيه جماعة ، يتجاذبونه في مهماته المتباينة في تحييره وتعبه ، ومثلاً آخر للموحد ، وهو عبدٌ خالصٌ لرجلٍ واحدٍ فإنه يكون عند سيده أحظى ، وبه أرفق . ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ : إنكار واستبعاد

(١) تفسير البحر المديد ١٤٢/٢-١٤٥ .

(٢) قال الله عز وجل : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَبِّحُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (الزمر: ٢٩-٣١) .

لاستوائيهما ، وإيذان بأن ذلك من الجلاء والظهور ، بحيث لا يقدر أحد أن يتفوه باستوائيهما ضرورة أن أحدهما في أعلى عليين ، والآخر في أسفل سافلين . وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون ﴿ سَلَمًا ﴾ بفتحين ، وهو مصدر ، من : سلم له كذا : إذا خلص ، نُعت به للمبالغة ، فالقراءتان متفقتان معنى . والمراد من المثل : تصوير استراحة الموحد وانجماعه على معبوده ، وتعبد المشرك وتشتيت باله ، وخصوصاً مع فرض التعاكس من الشركاء ، فيصير مُتَحِيرًا ، وفي عنت كبير من الجمع بين أغراضهم ، بل ربما يتعذر ذلك ويستحيل للتضاد في الأغراض والتناقض ، مع فرض التخالف والتنازع بينهم ، واعتبر ذلك بحال الوالدين ، إذا اختلفا على الولد ، فإنه يعسر إرضاءهما إلا بمشقة واحتيال ، وكذلك عابد الأوثان فإنه معذب الفكر بها ، وبحراسة حاله منها ، ومتى توهم أنه أَرْضَى واحداً في زعمه تفكر فيما يصنع مع الآخر ، فهو أبداً في تعب وضلال ، وكذلك هو المصانع للناس ، الممتحن بخدمة الملوك . قاله ابن عطية .

والحاصل : أن إرضاء الواحد أسهل وأيسر من إرضاء الجماعة . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على عدم استوائيهما . قال الطيبي : ثم إذا لزمتهم الحجة قل : الحمد لله ، شكراً على ما أولاك من النصر ، وقهر الأعداء بالحجج الساطعة . وفيه تنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية ، وعلو الرتبة ، بتوفيق الله تعالى ، وأنه مِنَّةٌ جلييلة ، موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته ، أو : حيث ضرب لهم المثل الأعلى ، وللمشركين المثل السوء ، فهذا صنع جميل ، ولطف تام ، مستوجب لحمده وشكره ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي : المشركون ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ، مع كمال ظهوره ، فيقعون في ورطة الشرك والضلال ، وهو انتقال من بيان الاستواء على الوجه المذكور ، إلى بيان عدم علمهم ذلك ، مع غاية ظهوره . ثم ذكر المحل الذي يظهر فيه عدم استوائيهما عياناً ، وهو ما بعد الموت ، فقال : ﴿ إِنَّكَ مِيتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ ، فتجتمعون عندنا ، فنحكم بينكم . وقيل : كانوا يترَبَّصون برسول الله ﷺ موته ، أي : إنكم جميعاً بصدد الموت ، ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ

يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿١﴾ ، ففتحج عليهم بأنك بلغت الرسالة ، واجتهدت في الدعوة ، فتلزمهم الحجة لأنهم قد لجؤا في العناد ، فإذا اعتذروا بتقليد آبائهم لم يقبل عذرهم . وقيل : المراد : الاختصام فيما دار بينهم في الدنيا ، والأول أنسب .

الإشارة : لا يستوي القلب المشترك مع القلب المفرد الخالص لله ، القلب المشترك تفرقت همومه ، وتشتت أنواره ، بتشتت شواغله وعلائقه ، وتفرقت محبته ، بتفرق أهوائه وحظوظه ، والقلب المفرد اجتمعت محبته ، وتوفرت أنواره وأسراره بقدر تفرغه من شواغله وعلائقه . وفي الحكيم : « كما لا يحب العمل المشترك ، لا يحب القلب المشترك ، العمل المشترك لا يقبله ، والقلب المشترك لا يقبل عليه » . وقال أيضا : « فرغ قلبك من الأغيار تملؤه بالمعارف والأسرار » . وقيل للجنيـد : كيف السبيل إلى الوصول ؟ فقال : بتوبة تزيل الإصرار ، وخوفٍ يقطع التسويف ، ورجاءٍ يبعث على مسالك العمل ، وبإهانة النفس ، بقربها من الأجل ، وبُعدها من الأمل . قيل له : وبم يتوصل إلى هذا؟ فقال : بقلب مفرد ، فيه توحيد مجرد . اهـ . وفي الحديث عن رسول الله ﷺ (مَنْ جَعَلَ الهمومَ هَمًّا واحداً - أي : وهو الله - كفاه الله همَّ دنياه ، ومَنْ تشعبت به الهمومُ لم يُبالِ الله به في أيِّ أودية الدنيا هلك) ^(١) وقال ﷺ : (مَنْ كانت الدنيا همَّه فرَّقَ الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأت من الدنيا إلا ما قُسم له ، ومَنْ كانت الآخرة نيته ، جمع الله عليه أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي صاغرة) ^(٢) . ومن كان الله همُّه بفنائهِ فيه جمع الله عليه سره ، وأغناه به عما سواه ، وخدمه الوجود بأسره ، « أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك » . والله تعالى أعلم ^(٣) .

(١) سنن ابن ماجه (٢٥٣) قال الألباني : حسن .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٩٤٩) (٩٥٠) .

(٣) تفسير البحر المديد ٢٥٩/٦ ، ٢٦٠ .

والناس إذا ماتوا يبعثون ، والدليل قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (طه: ٥٥) ^(١)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قَالَ ﴾ فرعون في جواب موسى ، لما أتاه مع أخيه وبلغا الرسالة ، وقالوا له ما أمرهما به ربهما ، وإنما حذفه للإيجاز ، وللإشعار بأنهما لما أمرا بذلك سارعا إلى الامتثال من غير تلعث ، أو بأن ذلك من الظهور بحيث لا حاجة إلى التصريح به ، فقال لهما فرعون : ﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴾ ؟ لم يصف الرب إلى نفسه لغاية عتوه وطغيانه ، بل أضافه إليهما ، وفي الشعراء : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الشعراء: ٢٣) ، والجمع بينهما تعدد الدعوة ، ففي كل مرة حكى لنا ما قال . وتخصيص النداء بموسى ، مع توجيه الخطاب إليهما لأنه الأصل في الرسالة ، وهارون وزيره . ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام مجيباً له : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ أي : ربنا هو الذي أعطى كل شيء خلقه ، أي : مخلوقاته مما يحتاجون إليه ويرتفقون به في قوام أبدانهم ومعاشهم ، أو أعطى كل شيء خلقته وصورته التي يختص بها ، ولم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم ، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان ، ولكن خلق كل شيء قدره تقديراً ، أو أعطى كل شيء فعله وتصرفه ، فاليد للبش ، والرجل للمشي ، واللسان للنطق ، والعين للنظر ، والأذن للسمع ، أو أعطى كل شيء شكله من جنسه ، للإنسان زوجة ، وللبعير ناقة ، وللفرس رمكة ،

(١) قال الله عز وجل : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴾ ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ ﴿ قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ ﴿ كُلُوا وَارْزُقُوا أَعْمَكُمْ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ أَلْبَهُ ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (طه: ٤٩-٥٥).

وللحمار أتاناً . ﴿ ثُمَّ هَدَى ﴾ إلى طريق الانتفاع والارتقاء ، بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل إلى بقائه وكماله ، فألهمه الرضاع والأكل والشرب والجماع ، وطلب الرعي وتوقى المهالك ، وكيف يأتي الذكر الأنثى ، ولما كان الخلق - الذي هو عبارة عن تركيب الأجزاء وتسوية الأجسام - مقدماً على الهداية ، التي هي عبارة عن إيداع القوى المحركة والمدركة في تلك الأجسام ، عطف بشم المفيدة للتراخي ، ولقد ساق عليه السّلام جوابه على نمط رائع ، وأسلوب لائق حيث بيّن أنه تعالى عالم قادر بالذات ، خالق لجميع الكائنات ، منعم عليهم بجميع النعم السابغات ، هادٍ لهم إلى طرق المرتفعات . ﴿ قَالَ ﴾ فرعون : ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ أي : ما حالها بعد الموت ، وما فعل الله بها ؟ فقال له موسى : هذا غيب لا يعلمه إلا الله ، وهو معنى قوله : ﴿ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ ، أو ما حال القرون الماضية والأمم الخالية ، وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة ؟ فأجابه عليه السلام بأن العلم بأحوالهم مفصلة مما لا ملاسة له بمنصب الرسالة ، وإنما علمها عند الله عزّ وجلّ . وكأنّ عدو الله ، لما خاف أن يبهت ، ويفتضح ، ويظهر للناس حجة موسى عليه السلام ، أراد أن يصرفه عليه السلام إلى مالا يعني ، من ذكر الحكايات التي لا ميسر لها بمنصب الرسالة فلذلك أعرض عنه ، و ﴿ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ ، وهذا أحسن من الأول لأنه لو كان سؤاله عن أحوالها بعد الموت لأمكن أن يقول له : من اتبع الهدى منهم فقد سلم وتنعم ، ومن تولى فقد عذب وتألّم ، حسبما نطق به قوله تعالى : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ أَهْدَى ﴾ . وقيل : فما بالها لم تبعث كما يزعم موسى ، أو : ما بالها لم تكن على دينك ، أو : ما بالها كذبت ولم يُصّبها عذاب ، وكلها بعيدة . قلت : والذي يظهر أن الطاغية فهمَ قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ هَدَى ﴾ أي : إلى الإيمان ، فاعترض بقوله : فما بال القرون الأولى لم تؤمن حتى هلكت ؟ فأجابه موسى عليه السلام بقوله : ﴿ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ ، فهو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى . وقوله : ﴿ فِي كِتَابٍ ﴾ أي : اللوح المحفوظ ، فقد أُثبتت فيه بتفاصيلها ، ويجوز أن يكون ذلك عبارة عن تمكنه وتقريره في

علم الله - عزّ وجلّ - تمكن من است حفظ الشيء ، وقيده بالكتابة ، كما يلوح به قوله تعالى : ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي ﴾ أي : لا يخطئ ابتداء ، ﴿ وَلَا يَنْسَى ﴾ فيتذكر . وفيه تنبيه على أن كتابته في اللوح المحفوظ ليس لحاجته إليه في العلم به ابتداء أو بقاءً . وإظهار ﴿ رَبِّي ﴾ في موضع الإضمار ، للتلذذ بذكره ، وللإشعار بعليّة الحكم فإن الربوبية مما تقتضى عدم الضلال والنسيان . ولقد أجاب عليه السلام عن السؤال بجواب عبقرى بديع ، حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها ، مع أنه لم يخرج عما كان بصدده من بيان شؤونه تعالى ، ووصف الحق تعالى بأوصاف لا يمكن عدو الله أن يتصف بشيء منها ، لا حقيقةً ولا مجازاً ، ولو قال له : هو الخالق الرازق ، وشبه ذلك ، لأمكن أن يغالط ويدعي ذلك لنفسه ، ثم تخلص إليه حيث قال : بطريق الحكاية عن الله عزّ وجلّ ، أو من كلامه عليه السلام : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أي : كالمهد تتمهدونها بالسكن والقرار ، أي : جعل كل موضع منها مهذاً لكل واحد منكم . ﴿ وَسَلَكَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أي : طرقاً تتوصلون بها من قطر إلى قطر ، لتقضوا منها مآربكم ، وتتنفعوا بمرافقها ومنافعها ، ووسطها بين الجبال والأودية لتعرف أمارات سبلها . ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ هو المطر ، ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ ، يحتمل أن يكون من كلام الله ، وما قبله من كلام موسى ، أو كله من كلام الله تعالى ، حكاة موسى عليه السلام ، وإنما التفت إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة ، والإيذان بأنه لا يتأتى إلا من قادر مطاع عظيم الشأن ، أي : فأخرجنا بذلك الماء ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ : أصنافاً ، سميت أزواجاً لزدواجها ، واقتران بعضها ببعض ، كائنة ﴿ مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ : متفرقة ، جمع شتيت : أي : متفرق ، وهو في الأصل مصدر ، يستوي فيه الواحد والجمع ، يعنى : أنها مختلفة في الشكل واللون والطعم والرائحة والنفع ، وبعضها صالح للناس على اختلاف صلاحها لهم ، وبعضها للبهائم ، ومن تمام نعمته تعالى أن أرزاق عباده ، لما كان تحصيلها بعمل الأنعام ، جعل علفها مما يفضل عن حاجتهم ، ولا يليق بكونه طعاماً لهم ، وهو معنى قوله : ﴿ كُلُوا

وَأَرْعَوْا أَنْعَمَكُمْ ﴿١﴾ ، والجملة : حالٌ ، على إرادة القول ، أي : أخرجنا منها أصناف النبات ، قائلين : كلوا وارعوا أنعامكم ، آذنين في ذلك لكم . ﴿٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴿٣﴾ المذكور ، من شئونه تعالى ، وأفعاله وأنعامه ، ﴿٤﴾ لَا يَسْتَرْجِعُ جليلة واضحة الدلالة على عظيم شأنه تعالى ، في ذاته وصفاته وأفعاله ، وعلى صحة نبوة موسى وهارون - عليهما السلام ، ﴿٥﴾ لِأَوَّلَى النَّهْيِ ﴿٦﴾ أي : العقول الصافية ، جمع «نَهْيَةٌ» ، سمى بها العقل ، لنهيته عن اتباع الباطل ، وارتكاب القبيح ، أي : لذوي العقول الناهية عن الأباطيل ، التي من جملتها ما يدعيه الطاغية وما يقبله منه الفئة الباغية . وتخصيص كونها آيات لهم ، مع أنها آية للعالمين لأنهم المنتفعون بها . ﴿٧﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاهُمْ ﴿٨﴾ أي : من الأرض الممهدة لكم ، خلقناكم بخلق أبيكم آدم عليه السلام ، وأنتم في ضمنه ، إذ لم تكن فطرته مقصورة على نفسه عليه السلام ، بل كانت أنموذجاً منطوياً على فطرة سائر أفراد الجنس ، انطواءً إجمالياً ، فكان خلقه عليه السلام منها خلقاً لكل منها ، وقيل : خلقت أبدانكم من النطفة المتولدة من الأغذية المتولدة من الأرض . وقال عطاء : إن المَلَكَ الموكل بالرحم ينطلق ، فيأخذ من تراب المكان الذي يُدفن فيه العبد ، فيذره على النطفة ، فتخلق من التراب ومن النطفة . اهـ . ﴿٩﴾ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴿١٠﴾ بالإماتة وتفريق الأجزاء ، والكلام على الأشباح دون الأرواح ، فإنها بعد السؤال ، تصعد إلى السماء ، كما يأتي عند قوله تعالى : ﴿١١﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٢﴾ (الواقعة: ٨٨) . ولم يقل : وإليها نُعيدكم إشارة إلى استقرار العبد فيها ، ﴿١٣﴾ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿١٤﴾ بتأليف أجزاءكم المتفتتة ، المختلطة بالتراب ، على الهيئة السابقة ، ورد الأرواح إليها ، وكون هذا الإخراج تارة أخرى : باعتبار أن خلقهم من الأرض إخراج لهم منها ، وإن لم يكن على التارة الثانية ، والتارة في الأصل : اسم للتور ، وهو الجريان ، فالتارة واحدة منه ، ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتحدة ، كما مر في المرة . والله تعالى أعلم .

الإشارة : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ، مما سبق لهم في أزله ، ثم هدى إلى الأسباب الموصلة إليه ، فمنهم من كان حظه في الأزل قوت الأشباح ، هداه

إلى أسبابها ، وهم أهل مقام البعد ، ومنهم من كان حظه قوت القلوب ، فهذه إلى أسبابها من المجاهدة في الطاعات وأنواع القربات ، وهم أنواع : فمنهم من شغلهم بتدريس العلوم وتدقيق الفهوم ، وتحرير المسائل وتمهيد النوازل ، وهدهم إلى أسباب ذلك ، وهم حملة الشريعة ، إن صحت نيتهم وثبت إخلاصهم ، ومنهم من شغلهم بتوالي الطاعات وتعمير الأوقات ، وهدهم إلى أسبابها ، وقواهم على مشاقها ، وهم العباد والزهاد ، ومنهم من شغلهم بإطعام الطعام والرفق بالأنام ، وتعمير الزوايا وقبول الهدايا ، وهدهم إلى أسباب عمارتها والقيام بها ، وهم الصالحون ، ومنهم من كان حظه قوت الأرواح ، وهم المريدون السائرون ، أهل الرياضة والتصفية ، والتخلية والتحلية ، والتهديب والتدريب ، وهدهم إلى أسبابها ، ووصلهم إلى شيخ كامل يبينها ويسلكها ، وهم في ذلك مقامات متفاوتة ، على حسب صدقهم وجدهم ، ومنهم من كان حظه قوت الأسرار ، وهم العارفون الكبار ، السابقون المقربون ، أهل الفناء والبقاء ، أهل الرسوخ والتمكين ، فهدهم إلى ما أملوا ، ووصلهم إلى ما طلبوا . نفعا الله بهم ، وخرطنا في سلكهم . آمين . وقوله : ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ الآية ، فيه زجر للمريد عن الاشتغال بالحكايات الماضية ، لأن في ذلك شغلاً عن الله ، إلا ما كان فيه زيادة إلى الله ، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم . وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ أي : جعل أرض النفوس مهاداً للقيام برسم العبودية ، وسلك فيها سبلاً توصل إلى مشاهدة الربوبية ، لمن سلكها بالرياضة والمجاهدة ، وأنزل من سماء الملكوت ماء الواردات الإلهية ، تحيا به الأرواح ، فتخرج أصنافاً من العلوم والحكم شتى ، كُلُوا برعي القلوب في نوار تجلياتها ، وارعوا لقوت أشباحكم من ثمار حسياتها ، إن في ذلك لآيات لأولى النهى . ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ : من أرض نفوسكم أخرجناكم ، بشهود عظمة الربوبية ، وفيها نعيدكم للقيام برسم العبودية ، ومنها نخرجكم لتكونوا لله ، لا لشيء دونه ، أو منها خلقناكم ، أي : أخرجناكم من شهود ظلمتها إلى نور خالقها ، بالفناء

عنها ، وفيها نُعيدكم بالرجوع إلى الأثر في مقام البقاء ، ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ بعقد الحرية في مقام البقاء ، فتكونوا عبيداً شُكراً . وبالله التوفيق ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ ④ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَنُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ (نوح: ١٧، ١٨) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ أي : أنشأكم منها ، فاستعير الإنبات للإنشاء ؛ لكونه أدل على الحدوث والتكوّن من الأرض . و ﴿ نَبَاتًا ﴾ إمّا مصدر مؤكد لأنبتكم ، بحذف الزوائد ، ويسمى اسم مصدر ، وحكمة إجراء اللفظ فيه على غير فعله : التنبيه على تحتم القدرة وسرعة نفوذ حكمها ، حتى كأنّ إنبات الله تعالى نفس النبات ، فقرن أحدهما بالآخر ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ أَنْبِ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ ﴾ (الأعراف: ١٦٠) أي : فضرب فانبجست ، فجعل الانبجاس مسبباً عن الإحياء ، للدلالة على سرعة نفوذ حكم القدرة ، أو : لفعل مترتب عليه ، أي : أنبتكم فنبتم نباتاً ، ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ بعد الموت ﴿ وَنُخْرِجُكُمْ ﴾ يوم القيامة بالبعث والحشر ﴿ إِخْرَاجًا ﴾ محققاً لا ريب فيه ، ولذا أكّده بالمصدر ^(٢) .

وبعد البعث محاسبون ومجزيون بأعمالهم ، والدليل قول تعالى ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ (النجم: ٣١) ^(٣) .

(١) تفسير البحر المديد ٤/ ٢٨٠-٢٨٣ .

(٢) تفسير البحر المديد ٨/ ١٤٧ .

(٣) قال الله عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَفُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ ⑤ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّغَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ (النجم: ٣١، ٣٢)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ خلقاً وملكاً ، لا لغيره ، لا استقلالاً ولا اشتراكاً ، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ بعقاب ما عملوا من السوء ، أو : بسبب ما عملوا ، ﴿ وَيجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ بالمشوبة الحسنى ، وهي الجنة ، والمعنى : أن الله تعالى إنما خلق هذا العالم العلوي والسفلي ، وتصرف فيه بقدرته بين جلاله وجماله ، ليجزي المحسن من المكلفين ، والمسيئ منهم إذ من شأن الملك أن ينصر أوليائه ويكرمهم ، ويقهر أعداءه ويهينهم . وقال الطيبي : « ليجزي » راجع لقوله : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ ﴾ الآية ، والمعنى : إن ربك هو أعلم بمن ضلَّ وبمن اهتدى ليجزي كل واحد بما يستحقه ، يعنى : أنه عالم ، كامل العلم ، قادر ، تام القدرة ، يعلم أحوال المكلفين فيجازيهم ، لا يمنعه أحد مما يريد لأن كل شيء من السموات والأرض ملكه ، وتحت قهره وسلطانه ، فقوله : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ : جملة معترضة ، تؤكد للاقتدار وعدم المعارض . اهـ . ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ ﴾ : بدل من الموصول الثاني ، أو : رفع على المدح ، أي : هم الذين يجتنبون . والتعبير بالمضارع للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره . وكبائر الإثم : ما يكبر عقابه من الذنوب ، وهو ما رتب عليه الوعيد بخصوصه . قال ابن عطية : وتحرير القول في الكبائر : أنها كل معصية يوجد فيها حد في الدنيا ، أو توعّد عليها بنار في الآخرة ، أو بلعنة ونحوها . وقرأ الأخوان : ﴿ كَبِيرَ الْإِثْمِ ﴾ على إرادة الجنس ، أو الشرك ، ﴿ وَ ﴾ يجتنبون ﴿ الْفَوَاحِشَ ﴾ وهو ما فحش من الكبائر ، كأنه قيل : يجتنبون الكبائر وما فحش منها خصوصاً ، فيحتمل أن يريد بالكبائر : ما فيه حق الله وحده ، والفواحش منها : ما فيه حق الله وحق عباده ، ﴿ إِلَّا اللَّعَمَ ﴾ أي : إلا ما قلَّ وصغُرَ ، فإنه مغفور لمن يجتنب الكبائر ، وقيل : هي النظرة والغمزة

والقُبلة ، وقيل : الخطرة من الذنب ، وقيل : كل ذنب لم يجعل الله فيه حداً ولا عذاباً ، والاستثناء منقطع لأنه ليس من الكبائر ولا من الفواحش . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتتاب الكبائر ، أو : حيث يغفر ما يشاء من الذنوب من غير توبة ، وهذا أحسن ، ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ فِي ضَمْنِ إِنْشَاءِ أَبِيكُمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَام ﴾ مِنْ الْأَرْضِ ﴿ إِنْشَاءً إجمالاً ، حسبما مرَّ تحقيقه مراراً ، ﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ ﴾ أي : يعلم وقت كونكم أجنة ﴿ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ على أطوار مختلفة ، لا يخفى عليه حال من أحوالكم ، ولا عمل من أعمالكم . ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فلا تنسبوا إلى زكاء الأعمال ، وزيادة الخير والطاعات ، أو : إلى الزكاة قبل أن يُخرجكم من صُلب آدم ، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم . وقيل : كان ناس يعملون أعمالاً حسنة ، ثم يقولون : صلاتنا وصيامنا وحجنا ، فنزلت . وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء ، لا على سبيل الاعتراف بالنعمة ، والتحدث بها ، فإنه جائز لأن المسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكرها ، والأحسن في إيراد الاعتراف والشكر أن يقدم ذكر نقصه ، فيقول مثلاً : كنا جهالاً فعلّمنا الله ، وكنا ضالّلاً فهدانا الله ، وكنا غافلين فأيقظنا الله ، وهكذا فنحن اليوم كذا وكذا . قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون نهياً عن أن يُزكى بعضُ الناس بعضاً ، وإذا كان هذا ، فإنما ينهى عن تزكية السَّمْع ، أو القطع بالتزكية ، ومن ذلك الحديث في « عثمان بن مظعون » عند موته ، وأما تزكية القدوة أو الإمام ، أو أحداً ، ليؤتم به أو لِيَتَهَمَّ الناس بالخير ، فجائز ، وقد زكى رسولُ الله ﷺ أبا بكر وغيره ، وكذلك تزكية الشهود في الحقوق جائزة للضرورة إليها ، وأصل التزكية : التقوى ، والله تعالى أعلم بتقوى الناس منكم . اهـ . وقال في القوت : هذه الذنوب تدخل على النفوس من معاني صفاتها ، وغرائز جبلاتها ، وأول إنشائها من نبات الأرض ، وتركيب الأطوار في الأرحام ، خلق من بعد خلق ، ومن اختلاط الأمشاج بعضها مع بعض ، ولذلك عقبه بقوله : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ

أَنْشَأَكُمْ ﴿ الآية . اهـ . ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ ، فاكثفوا بعلمه عن علم الناس ، وبجزائه عن ثناء الناس . وبالله التوفيق .

الإشارة : والله ما في سموات الأرواح من أنوار الشهود ، وما في أرض النفوس من آداب العبودية ، رتب ذلك ليجزى الذين أساءوا بوقوفهم مع أرض النفوس في العالم المحسوس ، ويجزى الذين آمنوا بترقيهم إلى مقام الإحسان ، بالحسنى ، وهي المعرفة ، حيث ترقوا من أرض الأشباح إلى عالم سماء الأرواح ، وهم الذين يجتنبون كبائر الإثم ، وهو شهود وجودهم مع وجود الحق محبوبهم ، ووقوفهم مع عالم الحس ، والفواحش ، وهو اعتراضهم على الله فيما يبرز من عنصر قدرته ، وتصغيرهم شيئاً مما عظم الله ، إلا اللمم خواطر تخطر ولا تثبت . قال القشيري : كبائر الإثم ثلاث : محبة النفس الأمارة ، ومحبة الهوى النافع في نيران النفس ، ومحبة الدنيا ، التي هي رأس كل خطيئة ، ولكل واحدة من هذه الثلاث فاحشة لازمة لها ، أما فاحشة محبة النفس : فموافقة الطبيعة ومخالفة الشريعة ، وأما فاحشة محبة الهوى : فحب الدنيا وشهواتها ، وأما فاحشة محبة الدنيا فالإعراض عن الله ، والإقبال على ما سواه . وقوله ﴿ إِلَّا أَلَمَمَ ﴾ أي : الميل اليسير إلى الهوى والنفس والدنيا ، بحسب ضرورته البشرية من استراحة البدن ، ونيل قليل من حظوظ الدنيا ، بحسب الحقوق ، لا بحسب الحظوظ ، فإن مباشر الحقوق مغفور ، ومباشر الحظوظ مغرور . اهـ . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ يستر العيوب ، ويوصل إلى حضرة الغيوب ، هو أعلم بكم إذ أنشأكم من أرض البشرية ، ورقاكم إلى عالم الروحانية ، وإذ أنتم أجنة في أول بدايتكم في بطون أمهاتكم ، في بطون الهوى والغفلة ، ودائرة الكون ، فأخرجكم منها بمحض فضله ، فلا تزكوا أنفسكم ، فتتظروا إليها بعين الرضا ، أو تنسبوا إليها شيئاً من الكمالات قبل صفائها . قال القشيري : تزكية المرء نفسه علامة كونه محجوباً لأنّ المجذوب عن بقاءه ، المستغرق في شهود ربّه ، لا يُزكّي نفسه . اهـ . قلت : هذا مادام في السير ،

وأما إن حصل له الوصول فلا نفس له ، وإنما يزكى ربه إذا زكاها ، هو أعلم بمن اتقى ما سواه^(١) .

ومن كذب بالبعث كفر ، والدليل قوله تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبُّونَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (التغابن: ٧)^(٢) .

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جلّ جلاله : لكفار مكة ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ ؟ كقوم نوح ، ومن بعدهم من الأمم المصرة على الكفر ، ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي : شؤم كفرهم في الدنيا من الهلاك والاستتصال . والوبال : الثقل والشدة ، وأمرهم : كفرهم ، عبر عنه بالأمر إيذاناً بأنه أمر هائل ، وجناية عظيمة ، و (ذاقوا) عطف على (كفروا) أي : ألم يأتكم خبر الذين كفروا فذاقوا من غير مهلة ما يستتبعه كفرهم في الدنيا ؟ (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) لا يقادر قدره . ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي : ما ذكر من العذاب الذي ذاقوه في الدنيا ، وما سيدوقونه في الآخرة ﴿ بِأَنَّهُ ﴾ ؛ بسبب أن الشأن ﴿ كَانَتْ ثَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ؛ بالمعجزات الظاهرة ، ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ أي : قال كل قوم من المذكورين في حق رسولهم الذي أتاهم بالمعجزات منكبين كون الرسول من البشر ، متعجبين من ذلك ﴿ أَبَشَرٌ ﴾ من جنس البشر ﴿ يَهْدُونَنَا ﴾ ، أنكروا رسالة البشر ، ولم ينكروا عبادة الحجر ، ﴿ فَكَفَرُوا ﴾ بالرسول ﴿ وَتَوَلَّوْا ﴾ عن التدبر فيما أتوا

(١) تفسير البحر المديد ٢٤٢/٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ .

(٢) قال الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ ثَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ۝ وَاسْتَغْفَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَمِيدٌ ۝ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبُّونَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (التغابن: ٥-٧) .

به من البينات ، أو : عن الإيمان بهم ، ﴿ وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ أي : أظهر استغناؤه عن إيمانهم وطاعتهم ، حيث أهلكهم وقطع دابرهم ، ولولا استغناؤه تعالى عنها ما فعل ذلك ، ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ ﴾ عن العالمين ، فضلاً عن إيمانهم وطاعتهم ، ﴿ حَمِيدٌ ﴾ يحمده كل مخلوق بلسان الحال والمقال ، أو : مستحق للحمد بذاته ، وإن لم يحمده حامد ، ثم ذكر كفرهم بالبعث ، فقال : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ﴾ ، الزعم : ادّعاء العلم ، فيتعدى إلى مفعولين ، سدّ مسدهما ﴿ أَنْ ﴾ المخففة ، أي : ادّعى أهل مكة أنّ الشأن لن يبعثوا بعد موتهم ، ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ ، ردّاً لزعمهم وإبطالاً لما نفوه مؤكّداً بالقسم ، فإن قلت : ما معنى اليمين على شيء أنكره ؟ قلت : هو جائز ؛ لأنّ التهديد به أعظم موقعاً في القلب ، فكأنه قيل : ما تنكرونه والله إنه لواقع لا محالة ، ﴿ ثُمَّ لَتَنْبُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ أي : لتحاسبن وتُجزون بأعمالكم ، ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ أي : ما ذكر من البعث والحساب ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ هين ، لتحقيق القدرة التامة ، وقبول المادة للإعادة .

الإشارة : ألم يأتكم يا معشر المنكرين على أولياء زمانكم ، خبر من أنكر قبلكم ، ذاقوا وبال أمرهم حيث ماتوا محجوبين عن شهوده ، مطرودين عن ساحة قربه ، ذاقوا وبال أمرهم في الدنيا ؛ الجزع والهلع وتسليط الخواطر والشكوك ، ولهم في الآخرة عذاب البعد والحجاب ، وسبب ذلك : إنكار الخصوصية عند بشر مثلهم ، فكفروا به ، وتولّوا عنه ، والله غني عنهم ، وعن توجّهم ، وعن جميع الخلق ، زعم الذين كفروا ؛ ستروا الحق بالخلق ، أي : احتجبوا بالخلق عن شهود الحق ، أن لن يبعثوا على معتقدهم ، قل : بلى وربي لتبعثن ، كما عشتم محجوبين عن رؤية الحق إلّا نادراً ؛ لأنّ العبد يموت على ما عاش ، ويبعث على ما مات ، من معرفة أو نكران ، ثم لتحاسبن على أعمالكم ، لا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة ، بخلاف العارفين ، لا يرفع لهم ميزان ، ولا يتوجه لهم حساب ، حيث فنوا عن أنفسهم ، وبقوا بالله ، وهم من السبعين ألفاً . وبالله التوفيق ^(١) .

(١) تفسير البحر المديد ٥٨/٨ .

وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين ، والدليل قوله تعالى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٥) ^(١)

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ولم يكن ينزل عليهم الكتاب جملة واحدة ، كما سألك أهل الكتاب تعنيًا ، بل كان ينزل عليهم الوحي شيئًا فشيئًا ، فأمرهم كأمرهم ، وقدم نوحًا عليه السلام لأنه أبو البشر بعد آدم ، وأول نبي من أنبياء الشريعة ، وأول نذير على الشرك ، وأول رسول عذبت أمته بدعوته ، وأطول الأنبياء عمرًا ، وجعلت معجزته في نفسه ، فإنه عمر ألف سنة ، ولم تنقص له سنٌ ، ولم تنقص له قوة ، ولم تشب له شعرة ، ولم يبالغ أحد في تأخير الدعوة ما بالغ هو عليه السلام ، ولم يصبر أحدٌ على أذى قومه ما صبر هو ، كان يُشتم ويضرب حتى يغمى عليه . ثم قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ أي : الأحفاد ، وهم أنبياء بني إسرائيل ، ﴿ وَعِيسَى وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَنَ ﴾ ، وإنما خصهم بالذكر مع اشتغال النبيين عليهم تعظيمًا لهم ، فإن إبراهيم أول أولى العزم منهم ، وآخرهم عيسى عليه السلام ، والباقيون أشراف الأنبياء ومشاهيرهم ، ﴿ وَآتَيْنَا

(١) قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَنَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٧﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٨﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿النساء: ١٦٣-١٦٥﴾.

دَاوُدَ زُبُورًا ﴿١﴾ أي: كتاب الزبور، أو زبوراً أي: صحفًا متعددة، وأرسلنا ﴿٢﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴿٣﴾ أي: من قبل هذه السورة، أو قبل هذا اليوم، ﴿٤﴾ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴿٥﴾ ، وفي الحديث ^(١): (عددهم ثلاثمائة وأربعة عشر)، ﴿٦﴾ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿٧﴾ حَقِيقًا، خُصَّ بِهِ مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ، وزاد نبينا محمد ﷺ بالرؤية مع الكلام. قال الورتجبي: بادر موسى عليه السلام من بين الأنبياء لسؤال الرؤية، فأوقفه الحق في مقام سماع كلامه، ومنعه من مشاهدة رؤيته صرفًا، وتحمل نبينا محمد ﷺ أثقال السر بمطايا أسرارهِ، ولم يسأل مشاهدة الحق جهرًا بالانبساط، فأوصله الله إلى مقام مشاهدته ورؤيته بالظاهر والباطن بعين الرأس وبعين القلب، ثم أسمعهُ كلامه بلا واسطة ولا حجاب. قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ ﴿٨﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿٩﴾ (النجم: ١٠، ١١). اهـ. وقال ابن عطية: كلامه تعالى لموسى دون تكليف ولا تحديد، وكما أن الله تعالى موجود لا كالموجودات معلوم لا كالمعلومات، فكَذَلِكَ كَلَامُهُ لَا كَالْكَلَامِ. اهـ. ثم ذكر حكمة إرسال الرسل فقال: أرسلنا ﴿١٠﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِقَلٍّ يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ﴿١١﴾ بَعَثَ ﴿١٢﴾ الْرُّسُلِ ﴿١٣﴾ فيقولون: لولا أرسلت إلينا رسولاً ينبهنا ويعلمنا ما جهلنا من أمر توحيدك والقيام بعبوديتك، فقطع عذر العباد ببعث الرسل، وقامت الحجة عليهم، وفي الحديث عنه - عليه الصلاة والسلام - : (ما أحدٌ أغيرَ من الله، ولذلك حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ مِنْهَا وما بَطَنَ، وما أحدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ من الله، ولذلك مَدَحَ نفسه، وما أحدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعَذْرُ من الله تعالى، ولذلك أَرْسَلَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ) ^(٢). ﴿١٤﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥﴾ لا يغلب، فلا يجب عليه شيء، ﴿١٦﴾ حَكِيمًا ﴿١٧﴾ فيما دبر من النبوة، وخص كل نبي بنوع من الوحي والإعجاز على ما يليق به في زمانه. والله تعالى أعلم.

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٢٦٦٨).

(٢) صحيح البخاري (٦٨٤٦) (٧٤١٦)، صحيح مسلم (١٤٩٩).

الإشارة : علماء هذه الأمة كأنبياء بني إسرائيل ، العارفون منهم كالرسل

منهم ، قال ابن الفارض رضي الله عنه :

فعالمنا منهم نبي ، ومن دعا إلى الحق مآ قام بالرُسُلِيَّة .

وعارفنا في وقتنا الأحمدي من أولى العزم منهم آخذ بالعزيمة .

فإنهم يشاركونهم في وحي الإلهام ، ويحصل لهم المكاملة مع المشاهدة ،

فيسمعون من الحق كما ينطقون به . كما قال الششتري :

أنا بالله أنطق ومن الله أسمع .

فتارة يسمعون كلامه بالوسائط ، وتارة من غير الوسائط ، يعرف هذا أهل

الفن من أهل الذوق ، وشأن من لم يبلغ مقامهم : التسليم .

إن لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار .

وفي الورتجبي : وإن الله تعالى إذا أراد أن يسمع كلامه أحداً من الأنبياء

والأولياء يعطيه سمعاً من أسماعه ، فيسمع به كلامه ، كما حكى - عليه الصلاة

والسلام - عنه - تعالى - ، قال : (فإذا أحببته كنت سمعه . .)^(١) ، الحديث .

أسمعه كلامه ، وليس هناك الحروف والأصوات ، بل أسمعه بحرف القدرة

وصوت الأزلية ، الذي هو منزّه عن همهمة الأنفاس وخطرات الوسواس ، وليس

(١) صحيح البخاري (٦٥٠٢) وفيه : حدثني محمد بن عثمان بن كرامة : حدثنا خالد

ابن مخلد : حدثنا سليمان بن بلال : حدثني شريك بن عبد الله بن أبي نمر ، عن عطاء ،

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته

بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي

يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته : كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره

الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ،

ولئن استعاذني لأعيزنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن ،

يكره الموت وأنا أكره مساءته . »

في ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شيء ، حتى هناك السامع والمسمع واحد من حيث المحبة ، لا من حيث الجمع والتفرقة . انتهى كلامه . واعلم أن أهل الجمع لا يشهدون إلا متكلمًا واحدًا ، قد انتفى من نظرهم التعدد والاثنية ، غير أنهم يفرقون بين كلام القدرة وكلام الحكمة ، كلام القدرة يبرز من غير اختيار ، بل يكون المتكلم به مأخوذًا عنه ، غائبًا عن اختياره ، وكلام الحكمة معه ضرب من الاختيار ، وقد يسمعون كلام القدرة من الهواتف الغيبية ، ومن الجمادات على وجه الكرامة ، وكله بحرفٍ وصوتٍ ، نعم ما يقع من الهواتف القلبية والتجليات الباطنية ، قد يكون بلا حرفٍ ولا صوتٍ ، وقد تحصل لهم المكاملة بالإشارة بلا صوتٍ ولا حرفٍ ، فقله : (بل أسمع به بحرف القدرة وصوت الأزلية . . .) إلخ . إن أراد به التجليات الباطنية فمسلم ، لكن ظاهره أن كلام الحق الذي يُسمعه لأنبيائه وأوليائه محصور في ذلك ، وأنه لا يكون إلا بلا حرف ولا صوت ، وليس كذلك . وقوله : (و ليس في ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شيء) إلخ ، معناه : لم يبق في ولاية أهل مشاهدة الأزل من رسوم الحوادث شيء ، بل اتحد عندهم السامع والمسمع . قلت : لكنهم يشبثونها حكمةً ، ويمحونها قدرةً ومشاهدةً ، ولا يلزم من محوها عدم صدور الكلام منها بالحرف والصوت فإن البشرية لا تطيق سماع كلام الحق بلا واسطة الحكمة ، كما هو معلوم . والله تعالى أعلم^(١) .

وأولهم نوح عليه السلام ، وآخرهم محمد ﷺ وهو خاتم النبيين ، والدليل على أن أولهم نوح عليه السلام قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (النساء: ١٦٣) .

تقدم تفسير الآية الكريمة .

(١) تفسير البحر المديد ١٢٩/٢ - ١٣١ .

وكل أمة بعث الله إليها رسولاً من نوح إلى محمد يأمرهم بعبادة الله وحده ، وينهاهم عن عبادة الطاغوت ، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (النحل: ٣٦) ^(١).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ أي : ما ينظر هؤلاء الكفرة ، الذين قالوا فيما أنزل الله من الوحي : هو أساطير الأولين ، ﴿ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ لقبض أرواحهم ، ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ : قيام الساعة ، أو العذاب المستأصل لهم في الدنيا ، ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك التكذيب والشرك ، ﴿ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ، فأصابهم ما أصابهم ، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ بإهلاكهم ، ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ لكفرهم ومعاصيهم ، المؤدية إلى عذابهم . ﴿ فَأَصَابَهُمْ ﴾ جزاء ﴿ سَيِّئَاتِ مَا عَمِلُوا ﴾ من الكفر والمعاصي ، وهو العذاب ، ﴿ وَحَاقَ ﴾ أي : وأحاط ﴿ بِهِمْ ﴾ ما كانوا به يستهزئون ﴿ أَي : نزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به ، والحق لا يكون إلا في الشر . ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ كالبحائر والسوائب والحوامي ، قالوا ذلك على وجه المجادلة والمخاصمة ، والاحتجاج على صحة فعلهم ، أي : إن

(١) قال الله عز وجل : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ ﴿ إِنَّ تَحْرِيصَ عَلَى هُدْيَتِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (النحل: ٣٣-٣٧) .

فَعَلْنَا هُوَ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ ، فهو صواب ، ولو شاء الله ألا نفعله ما فعلناه . والجواب : أن الاحتجاج بالقدر لا يصح في دار التكليف ، وقد بعث الله الرسل بالنهاي عن الشرك ، وتحريم ما أحل الله ، ونحن مكلفون باتباع الشريعة ، لا بالنظر إلى فعل الحقيقة من غير شريعة ، فإنه زندقة ، فالشريعة رداء الحقيقة ، فمن خرق رداء الشريعة ، وتمسك بالحقيقة وحدها ، فقد استحق العقاب ، ولذلك قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فأشركوا بالله ، وحرّموا ما أحل الله ، وردوا رسله . ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أي : الإبلأغ الموضح للحق ، فمن تمسك بما جاءوا به فهو على صواب ، ومن أعرض عنه فهو على ضلال ، ولا ينفعه تمسكه بالحقيقة من غير اتباع الشريعة ، والحقيقة هي أنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد ، طاعة كان أو معصية ، كفراً أو إيماناً ، لكن الأمر غير تابع للإرادة ، ونحن مكلفون باتباع الأمر فقط ، ثم بين أن البعثة أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم الماضية ، جعلها سبباً لهدى من أراد اهتدائه ، وزيادة الضلال لمن أراد إضلاله ، كالغذاء الصالح ، فإنه ينفع المزاج السوي - أي : المعتدل - ويقويه ، ويضر المزاج المنحرف ويعيبه ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ﴾ قائلا : ﴿ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّغُوتَ ﴾ أي : يأمر بعبادة الله وحده واجتناب ما سواه ، ﴿ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ ﴾ وفقهم للإيمان وأرشدهم إليه ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ فلم يوفقهم ، ولم يرد إرشادهم ، فليس كل من تمسك بشيء وأمهل فيه يدل أنه على صواب ، كما ظن المشركون ، بل النظر إلى ما جاءت به الرسل من الشرائع ، وكلها متفقة على وجوب التوحيد وإبطال الشرك . ثم أمرهم بالنظر والاعتبار بحال من أشرك وكذب الرسل ، فقال : ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ يا معشر قريش ، ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ ؛ كعادٍ وثمود وغيرهم ، لعلكم تعتبرون . ثم نهى نبيه عن الحرص عليهم فقال : ﴿ إِنْ تَحَرَّصَ ﴾ يا محمد ﴿ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ﴾ أي : من يريد إضلاله وقضى بشقائه ، وهو الذي حقت عليه الضلالة ، وقرأ غير الكوفيين بالبناء

للمفعول ، وهو أبلغ ، أي : فإن الله لا يهدي من يضلّه ، أي : لا يهدي غير الله من يريد الله إضلاله . ﴿ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴾ ليس لهم من ينصرهم يدفع العذاب عنهم .

الإشارة : هل ينظر من عكف على دنياه ، وأكب على متابعة حظوظه وهواه ، إلا أن تنزل الملائكة لقبض روحه ، فيندم حيث لا ينفع الندم ، وقد زلت به القدم ، فيتمنى ساعةً تزداد في عمره فلا يجدها ، أو يأتي أمر ربك أمر يحول بينه وبين العمل الصالح كمرض مزمن ، أو فتنة مضلة . كذلك فعل من قبله ، اغتر بدنياه حتى اختطف لأخراه ، وما ظلمهم الله ، بل بعث الرسل وأخلفهم بأهل الوعظ والتذكير ، فحادوا عنهم ، فأصابهم جزاء سيئات ما عملوا من الغفلة والبطالة ، وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون ، من وبال التقصير ، وفوات مقام أهل الجد والتشمير ، وقال الذين أشركوا في محبة الله سواه ، من الحظوظ وزهرة الدنيا : لو شاء الله ما فعلنا ذلك ، محتجين بالقدر ، مع الإقامة على البطالة والخذلان ، كذلك فعل مَنْ قَبْلَهُمْ من أهل الغفلة ، فهل على الرسل وخلفائهم إلا البلاغ المبين؟ فقد حذّروا من متابعة الدنيا ، وبلّغوا أن الله غيور لا يُحب من أشرك معه غيره في محبته ، فقد بعث في كل أمة وعصر نذيراً ، يأمر بعبادة الله وحده ، واجتناب كل ما سواه ، فمنهم من هداه الله ، فاختره لحضرته ، فلم يحب سواه ، ومنهم من حقت عليه الضلالة عن مقام الخصوص ، فبقي في مقام البعد مُكذِّباً بطريق الخصوص ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، كان عاقبتهم الحرمان ولزوم الخذلان ، ويقال للعارف المذكر لمثل هؤلاء : ﴿ إِن تَحَرِّصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ .. الآية . وبالله التوفيق^(١) .

قال ابن القيم رحمه الله : معنى الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود ، أو متبوع ، أو مطاع . والطواغيت كثيرون ، رؤوسهم خمسة :

(١) تفسير البحر المديد ٢١/٤-٢٣ .

إبليس لعنه الله ، ومن عبد وهو راض ، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه ، ومن ادعى شيئاً من علم الغيب ، ومن حكم بغير ما أنزل الله . والدليل قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ (البقرة: ٢٥٦) ^(١).

التفسير :

قال ابن عجيبة :

قلت : (الرشد) : مصدر رَشُدَ ، بالكسر والضم ، رشداً ورشاداً ، و﴿الْغَيِّ﴾ : مصدر غَوَى ، إذا ضلَّ في مُعْتَقَدِهِ ، و﴿بِالطَّاغُوتِ﴾ : فعلوت من الطغيان ، وأصله : طغيوت ، فقلبت لام الكلمة لعينها فصار طغيوت ، ثم قلبت الياء ألفاً . وهو كل ما عبد من دون الله راضياً بذلك ، و(العروة) : ما تستمسك به اليد عند خوف الزلل كالجبل ونحوه ، ووثوقها : متانتها ، وانفصامها أن تنفك عن موضعها ، وأصل الفصم في اللغة : أن ينفك الخلخال ونحوه ولا يبين ، فإذا بان فهو القَصَم - بالقاف - وهو هنا استعارة للدِّين الصحيح .

يقول الحق جل جلاله : في شأن رجل من الأنصار ، تَنَصَّرَ ولداه قبل البعثة فلما جاء الإسلام قَدِمَا إلى المدينة فدعاهما أبوهما إلى الإسلام فامتنعا ، فلزَمَهُمَا أبوهما وقال : والله لا أدْعُكُما حتى تُسَلِمَا ، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فَأَنْزَلَ الله : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ، فهو خبر بمعنى النهي ، أي : لا تُكْرَهُوا أحداً على الدخول في الدين ، وهو خاص بأهل الكتاب . قال البيضاوي : إذ الإكراه في الحقيقة هو : إلزام الغير فعلاً لا يرى فيه خيراً ، ولكن ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ أي تميَّز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة ، ودلت الدلائل على أن الإيمان رشد يوصل إلى السعادة الأبدية ، والكفر غيٌّ يوصل إلى الشقاوة السرمدية . والعاقِل متى تبين له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلباً

(١) تمام الآية : ﴿ لَا أَنْفِصَامَ هَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٥٦) .

للفوز بالسعادة والنجاة ، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء . اهـ . ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ﴾ أي : يبعد عنها ويجحد ربوبيتها ﴿ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ أي : يصدق بوحدانيته ، ويقر برسله ، ﴿ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ أي : فقد تمسك بالدين المتين ، لا انقطاع له أبداً ، ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ بالأقوال ، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالنيات ، فإن الدين مشتمل على قول باللسان وعقد بالجنان ، فحسن التعبير بصفة السمع والعلم . والله تعالى أعلم .

الإشارة : قال في الحكم : « لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك ، إنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك » . وقال أحمد بن حنبل : الطريق واضح ، والحق لائح ، والداعي قد أسمع ، ما التحير بعد هذا إلا من العمى . اهـ . فطريق السير واضحة لمن سبقت له العناية ، باقية إلى يوم القيامة ، وكل ما سوى الله طاغوت ، فمن أعرض عن السوى ، وعلق قلبه بمحبة المولى ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، التي لا انفصام لها على طول المدى . وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ^(١) .

وهذا هو معنى (لا إله إلا الله) . وفي الحديث : (رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله) ^(٢) .

الشرح :

قال الملا علي القاري :

(رأس الأمر) أي أمر الدين (الإسلام) يعني الشهادتين ، وهو من باب التشبيه المقلوب إذ المقصود تشبيه الإسلام برأس الأمر ليشعر بأنه من سائر الأعمال بمنزلة الرأس من الجسد في احتياجه إليه وعدم بقاءه دونه (وعموده الصلاة) يعني الإسلام هو أصل الدين إلا أنه ليس له قوة وكمال كالبيت الذي ليس له

(١) تفسير البحر المديد ٢٥٥/١ ، ٢٥٦ .

(٢) سنن الترمذي (٢٦١٦) وقال حديث حسن صحيح . قال الألباني : صحيح .

عمود ، فإذا صلى وداوم قوي دينه ولم يكن له رفعة ، فإذا جاهد حصّل لدينه رفعة ، وهو معنى قوله (وذروة سنامه الجهاد) وفيه إشعار إلى صعوبة الجهاد وعلو أمره وتفوقه على سائر الأعمال ، والجهاد من الجهد بالفتح وهو المشقة ، أو بالضم وهو الطاقة لأنه يبذل الطاقة في قتال العدو عند فعل العدو مثل ذلك ، أو يضم جهده إلى جهد أخيه في نصرة دين الله كالمساعدة ، وهي ضم ساعده إلى ساعد أخيه لتحصيل القوة ، وله أنواع من جهاد الأعداء ليكون الدين كله لله ، وجهاد النفس بحملها على اتباع الأحكام وترك الحظوظ وتكليف الخصلة المذمومة المفردة خلاف مقتضاها والعمل بنقيض موجبها حتى اعتدلت وتناسقت قوة العلم والغضب والشهوة والعدل ، وهو أشد من الأول ولذا ورد : (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الأكبر)^(١) لأن النفس كالملك في داخل الإنسان وعسكره الروح الحيوانية والطبيعية والهوى والشهوة ، وهي في نفسها عمياء لا تبصر المهالك ، ولا تميز الخير من الشر إلى أن ينور الله بلطف حكيمته بصيرتها فتبصر الأعداء والمعارف وتجد البنيان الإنساني مملوءاً من خنازير الحرص وتكالب الكلب ونمر الغضب والشهوة الحمارية وحية الشيطان ، فكنستها من الرذائل وزينتها بالفضائل ، وأما جهاد القلب فتصفيته وقطع تعلقه عن الأغيار ، وجهاد الروح بإفناء الوجود في وجود الواحد القهار^(٢).

والله أعلم . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢٤٦٠) : منكر .

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١٨٣/١ .

المصادر والمراجع

١- الأعلام . خير الدين بن محمود بن محمد الزركلي . دار العلم للملايين - بيروت لبنان الطبعة الخامسة ٢٠٠٢ م . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية . <http://www.almeshkat.net>

٢- الأحاديث المختارة . تأليف :الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد ابن أحمد الحنبلي المقدسي المشهور بالضياء المقدسي . تحقيق :عبد الملك ابن عبد الله بن دهيش . مكتبة النهضة الحديثة . مكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية <http://www.almeshkat.net>.

٣- الأربعين على مذهب المتحققين من الصوفية لأبي نعيم .موقع إسلام ويب . <http://library.islamweb.net>

٤- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد . تأليف : أحمد بن محمد ابن المهدي بن عجيبة الحسني . تحقيق : عمر أحمد الراوي . دار الكتب العلمية - بيروت لبنان . الطبعة الثالثة ٢٠١٠ م .

٥- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة . الحافظ ابن حجر العسقلاني . تحقيق : محمد عبد المعيد ضان . مجلس دائرة المعارف العثمانية صيدر آباد - الهند ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٢ م . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية <http://www.almeshkat.net> .

٦- الدر المنثور في التفسير بالمأثور . الحافظ جلال الدين السيوطي . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية . <http://www.almeshkat.net>

٧- السنن الأربعة . تحقيق محمد ناصر الدين الألباني . نسخة من موقع الشيخ الألباني <http://www.alalbany.net>

٨- المعجم الصغير للطبراني . أبو القاسم الطبراني . تحقيق : محمد شكور محمود الحاج أمير . المكتب الإسلامي ، دار عمار - بيروت ، عمان الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م . نسخة من موقع شبكة مشكاة

الإسلامية . <http://www.almeshkat.net>

٩- المعجم الكبير للطبراني . أبو القاسم الطبراني . تحقيق : حمدي ابن عبد المجيد السلفي مكتبة العلوم والحكم . الموصل - العراق الطبعة الثانية ، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية

<http://www.almeshkat.net> .

١٠- المستدرك على الصحيحين . تأليف الحاكم الإمام أبي عبد الله محمد ابن عبد الله بن حمدويه الحافظ . نسخة من موقع صيد الفوائد

<http://www.saaaid.net> .

١١- الموطأ . للإمام مالك بن أنس . اعتنى به : حسان عبد المنان - بيت الأفكار الدولية ٢٠٠٤م .

١٢- جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي . تحقيق : الدكتور محمد الأحمد أبو النور . دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة . القاهرة - مصر الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م .

١٣- حقائق عن التصوف . تأليف : عبد القادر عيسى . دار العرفان . حلب - دمشق الطبعة الثالثة عشرة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .

١٤- حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية . <http://www.almeshkat.net>

١٥- سلسلة الأحاديث الصحيحة . محمد ناصر الدين الألباني . نسخة من موقع الشيخ الألباني . <http://www.alalbany.net>

١٦- سلسلة الأحاديث الضعيفة . محمد ناصر الدين الألباني . نسخة من موقع الشيخ الألباني . <http://www.alalbany.net>

١٧- سنن الإمام النسائي (الكبرى) . أحمد بن شعيب النسائي . دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى ، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م . تحقيق : دكتور عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن نسخة من موقع شبكة

مشكاة الإسلامية . <http://www.almeshkat.net>

١٨- صحيح الإمام البخاري . محمد بن إسماعيل البخاري . اعتنى به : حسان عبد المنان - بيت الأفكار الدولية ٢٠١٢ م .

١٩- صحيح الإمام مسلم . مسلم بن الحجاج النيسابوري . اعتنى به : حسان عبد المنان - بيت الأفكار الدولية ٢٠١٢ م .

٢٠- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان . محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي . تحقيق : شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة - بيروت لبنان الطبعة الثانية ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م . نسخة من موقع شبكة مشكاة

الإسلامية . <http://www.almeshkat.net>

٢١- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين . تأليف : محمد بن علان الصديقي الشافعي الأشعري المكي . المتوفى سنة ١٠٥٧ هـ . تحقيق : عصام الدين الصبابطي . دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع . القاهرة - جمهورية مصر العربية . الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

٢٢- فيض القدير شرح الجامع الصغير . محمد عبدالرؤوف المناوي . تحقيق : أحمد عبد السلام . دار الكتب العلمية . بيروت - لبنان . الطبعة الثالثة ٢٠٠٦ م

٢٣- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح . الملا علي القاري . تحقيق الشيخ : جمال العيتاني دار الكتب العلمية بيروت لبنان - الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .

٢٤- مسند الإمام أحمد . مؤسسة قرطبة - القاهرة الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها . نسخة من موقع شبكة مشكاة الإسلامية .

<http://www.almeshkat.net>

٢٥- مسند البزار . أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار المتوفى :
٢٩٢ هـ .المحقق : محفوظ الرحمن زين الله ، وعادل بن سعد ، وصبري
عبد الخالق الشافعي ، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة الطبعة :
الأولى (بدأت ١٩٨٨م ، وانتهت ٢٠٠٩م) . نسخة من موقع شبكة مشكاة
الإسلامية . <http://www.almeshkat.net>

٢٦- مسند الشاميين للطبراني . سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني .
تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي ، مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة
الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م . <http://www.almeshkat.net>

٢٧- موسوعة الحافظ ابن حجر العسقلاني الحديثية . تأليف : وليد الزبيري -
إياد القيسي - بشير القيسي - عماد البغدادي . سلسلة إصدارات الحكمة -
لندن . الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .

فهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة.....	٣
بين الحقيقة والشرية :.....	٣
مناقشة المتحاملين على الصوفية :.....	٦
تمسكهم بالكتاب والسنة :.....	١٠
التحذير من الفصل بين الحقيقة والشرية :.....	١٢
الفهاء الصوفية :.....	١٥
الدس على العلوم الإسلامية : التفسير - الحديث - التاريخ - التصوف :	١٧
تأويل كلام السادة الصوفية :.....	٣٢
وحدة الوجود والحلول والاتحاد :.....	٤٨
منهجي في الشرح :.....	٦٢
الشرح.....	٦٣
تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾.....	٦٣
تفسير قول الله عز وجل : ﴿ فَأَعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾.....	٦٥
تفسير قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾.....	٦٩
تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾.....	٧٠

تفسير قول الله عز وجل : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.....

٧١

تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾.....

٧٤

تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾.....

٧٦

تفسير قول الله عز وجل : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.....

٧٩

تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.....

٨١

تفسير قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾.....

٨٢

تفسير قول الله عز وجل : ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٦﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.....

٨٦

تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾.....

٨٩

تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾.....

٩١

- ٩٣ تفسير قول الله عز وجل : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾
- ٩٥ تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾
- ٩٧ تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾
- ٩٨ تفسير قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾
- ١٠٢ تفسير قول الله عز وجل : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾
- ١٠٤ تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾
- ١٠٦ تفسير قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّا لَنَعْبُدُ وَإِيَّاكَ فَتَتَّعِبُ ﴾
- ١١٠ شرح قول رسول الله : « إذا استعنت فاستعن بالله »
- ١١٤ تفسير قول الله عز وجل : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾
- ١١٤ تفسير قول الله عز وجل : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾
- ١١٧ تفسير قول الله عز وجل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾
- ١٢٠ تفسير قول الله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ آلْعَالَمِينَ ﴾
- ١٢٢ تفسير قول الله عز وجل : ﴿ يُوفُونَ بِالْأَنْذَرِ وَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾
- ١٢٣ تفسير قول الله عز وجل : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا أَلْعَلِّ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾
- ١٢٤ تفسير قول الله عز وجل : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا أَلْعَلِّ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۖ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَمِيعٌ ۝٣٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ۖ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٣٨ ﴾ ١٢٦
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٣٨ ﴾ ١٢٨
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝٣٩ ﴾ ١٣٠
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا أَمُرُّوهُ إِلَّا لِیَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝٣٩ ﴾ ١٣٠
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٤٠ ﴾ ١٣٢
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٤١ ﴾ ١٣٣
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ۝٤٢ ﴾ ١٣٤
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٣ ﴾ ١٣٧
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ۝٤٤ ﴾ ١٣٨
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٤٥ الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٦ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ۝٤٧ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٤٨ ﴾ ١٤٢

- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ ١٤٥
- شرح : حديث جبريل ١٤٧
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ يَتَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَيَتَذَكَّرُ ﴿٤﴾ وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ ١٨٧
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَبْ جُرُؤًا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ ١٩١
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ يَنْبَغِي لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ أَرْضَى وَاسِعَةً فَلِيَّيْ فَاعْبُدُونِ ﴾ ١٩٤
- شرح قول رسول الله : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » ١٩٦
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ١٩٧
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ١٩٩
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿١﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ ٢٠٣

- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَمِنَّا خَلَقْنَاهُ وَمِنَّا نُعِيدُهُ وَمِنَّا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ ٢٠٦
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ ٢١١
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى ﴾ ٢١١
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ٢١٥
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ ٢١٧
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ ٢٢١
- تفسير قول الله عز وجل : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۚ ﴾ ٢٢٤
- شرح قول رسول الله : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله » ٢٢٥
- المصادر والمراجع ٢٢٧
- الفهرس ٢٣١